

يوسف السباعي

الشرق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



السقايات !

(والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس
اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون)
« قرآن كريم »

يطلب من :

مكتبة مصر
شارع كامل صدقي النجاة

الإهداء

إلى عمى العزيز :

طه السباعي باشا

أهدى كتابي هذا .

لا لأنه — بفضل اللقب — صاحب معالي .. أو صاحب سعادة ..
(فأتى لا أدري كيف يستطيع اللقب البشرى أن يشارك الله سلطته
فى منح المعالي أو السعادة . ! ولا أدري كيف يمكن أن يفضل انسان
على غيره لأنه صاحب سعادة !) .

ولكنى أهديه له لأنه — بفضل الله — صاحب نظافة .. نظافة
فى الذهن ، واليد ، والقلم ، واللسان .

انى أهديه له .. رغم أنه سياسى .. وباشا .. و « حماى » .

يوسف السباعي



كتبت هذا الإهداء إلى « طه السباعي » قبل أن تلغى الثورة الألقاب ،
وقد زال عنه اللقب الذي لم أتم له فى إهدائى وزنا . ولم يبق له
إلا ما رأيته يستحق الاعتبار ، أنه لم يصبح « صاحب سعادة » ولكنه
ما زال كما وصفته صاحب نظافة .. فى قلبه وفى خلقه وفى عمله .

مقدمة

التقيت ذات يوم بالأستاذ « أحمد بك عباسى » كبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف ، فانبأنى أن الوزارة كانت توشك أن تقرر بعض كتبى لمدارسها ، لولا أن اللجنة المختصة رأت أن الكتب تحوى بعض عبارات بالعامية تتنافى مع الغرض الذى قررت من أجله الكتب .

ورغم أنه لم يدر بخلى أن اكتب كتبى بحيث لا تتنافى مع مطالب وزارة المعارف ، بل رغم أن ذكر وزارة المعارف لم يطف بذهنى قط وأنا اكتب هذه الكتب ، إلا أننى أحسست بشيء من الخيبة وأنا أسمع قول استاذنا الفاضل ، إذ كان يسرنى ويرضى غرورى ولا شك أن أجد الوزارة تقرر بعض هذه الكتب .

وعلى هذا فلم أكد أبدا هذه القصة حتى ذكرت وزارة المعارف ومطالبها التى تترفع عن اللغة العامية ، وعزمت أن أقيم سراجا منيعا يحول دون تسرب الالفاظ العامية التى تأبى إلا أن تفرض نفسها فرضا فى سياق الحديث . واخذت فى الكتابة محاولا اجراء الحوار بين أبطال القصة باللغة الفصحى ، ولكنى لم أكد اكتب بضع صفحات ، ولم أكد « أحمى » فى الكتابة . . حتى وجدت أبطال القصة ينطقون على الرغم منى فى الحديث باللغة العامية .

وحاولت عبثا إيقافهم عند حدهم . . وردهم عن غيهم . . وتهديدهم بأن وزارة المعارف الفصيحة . . لن تقرر الكتاب فى مدارسها رأنهم سيسقطون الكتاب بهذا اللغو العامى ، والهذر اللا فصيح .

ولكنى أخفقت فى محاولتى ولم أستطع إلا التسليم .. قائلا لنفسى :
 إبنى اكتب للعمامة أكثر مما اكتب للخاصة من الفصحاء والبلاء .. وأن
 هؤلاء العمامة فى أشد الحاجة إلى زاد من الأدب الذى يفهمونه .. والكتابة
 التى يسيفونها .. أكثر من أولئك الخاصة الذين لديهم تراث من
 الفصاحة والبلاغة يفيض عن حاجتهم .

ومع ذلك فأتى أجد هؤلاء الخاصة أكثر اساعة الأدينا الطبيعى غير
 المتكلف .. اذكر انه عقب قراءتى لقصة « زقاق المدق » للأستاذ
 « نجيب محفوظ » واعجابى بها .. أن أعطيتها لعمى « طه السباعى
 باشا » وهو من أبلغ الأدباء ، وعندما انتهى منها سألته عن رايه فيها
 فاجابنى بأنها من أبداع ما قرأ ، ولا يعيبها إلا أن الحوار جرى باللغة
 الفصحى .. ولو كان باللغة العامية لبلغت منتهى الروعة .

وأنى لأنكر أيضا أن حوار « عودة الروح » وهى أروع ما كتب
 « توفيق الحكيم » يجرى باللغة العامية ، رغم أن كاتبنا الكبير قد ترفع
 بعد ذلك عن اللغة العامية وأخذ يجرى حواراه باللغة الفصحى ، أو على
 الأصح ، بأبسط درجات اللغة الفصحى التى تكاد تقارب العامية .

ولست أشك أننا فى فترة صراع بين العامية والفصحى ، وأن
 الكتاب فى هذا الجيل حائرون بينهما ، ولا أدل على ذلك من إخراج
 الأستاذ « محمود تيمور » إحدى رواياته فى ثوبين : ثوب فصيح وآخر
 عامى .

وهذه قصة يبدو فيها هذا الصراع .. بين الفصحى والعامية ..
 ولا جدال هناك فى أن الغلبة — فى الحوار — للعامية ، لأنه من
 المستثقل المموج أن نحاول انطاق أشخاص القصة باللغة الفصيحة ..
 وهم لا يمكنهم فى حياتهم الطبيعية أن ينطقوا بها .

على أية حال لا يراد بمقدمتى هذه اعتذار ولا تبرير .. فالكاتب
 يحب أن تنطلق أفكاره محررة من كل قيد ، والألفاظ فى اللغة توابع

للمأسلوب والأفكار .. ومن الخير ، ونحن نهذف إلى أن يكون أدبنا القومى
أديبا عالميا الا نجعل من اللغة قيذا يثقل قدرتنا على التعبير الصادق غير
المتكلف .

ان هدف الكاتب ، أو الفنان بصفة عامة ، هو الوصول إلى أغوار
النفوس ونقل مشاعره إليها .. والفنان الناجح هو موقظ الأحاسيس ..
محرك المشاعر .. مهما كانت وسيلته ، وأيا كان أسلوبه .
وكل ما أرجوه أن اكون قد حققت بكتابتى هدف الفنان .
والسلام عليكم ورحمة الله .

الفصل الأول

سارق الجوافة

حدثت هذه القصة حوالى عام ١٩٢١ فى حى الحسينية وما زال مسرح حوادثها قائما كما هو ، وقد تكون كف السنين بدلت وجهه بالفناء والهدم ، والبناء والتنظيم .. إلا ان الكثير من علاماته المميزة ما زالت قائمة على حالها لم يخزن عليها الدهر ، ولم يبدلها الزمن .

وأشهر هذه العلامات وأشدها ارتباطا بقصتنا صنبور المياه الحكومى ، القائم فى إحدى زوايا درب السماكين ، أمام كشك صغير تربع فيه « سيد الدنك » .. المانع المانع ، الأمر الناهى فى مياه الحى . الحاكم بأمره فى صف طويل عريض من النسوة ذوات الصفائح ، والرجال ذوى القرب .

وكم أود لو وضعت القارئ فى مسرح القصة وجعلته يتجول فى أزقته وحواريه ، ويراها رأى العين .. ولكنى أشك كثيرا فى أن قارئ هذا الجيل يستطيع الوصول بسهولة إلى هذه الربوع القديمة التى دالت دولتها وأدبر عزها وعفى جمالها وزال سؤدها ، وأضحت قصورها أطلالا بالية ودمنا عافية .. ومع ذلك فليس أحب إلى من التطوع بقيادته إلى هناك واصطحابه فى جولة قصيرة سريعة ، تعطى له مجرد فكرة سطحية عابرة عن المكان ، الذى أوشك أن أزج به إليه ، وأضعه فيه ، خلال فترة قراءته لهذه القصة .

نبداً من شارع فاروق فى منتصف المسافة بين ميدان فاروق وميدان

العتبة (هذا الميدان قد توالى عليه أسماء عدة .. ويبدو لى أن من الخير أن أسميه باسمه القديم خشية أن تبدل اسمه الجديد باسم آخر ما بين كتابتى هذه القصة وظهورها » حيث يقطع الشارع الكبير شارع ضيق يسير فيه الأتوبيس الذاهب إلى بيت القاضى ، وهو شارع البغالة .

لنجعل وجهتنا إلى العتبة ، ثم ندلف يسارا فى شارع البغالة ونسير فى الطريق الضيق المزدحم .. الملىء بحوانيت البقالة والنجارين ، وبائعى القباقيب ، والصرمانية ، والعمارين .. ولتكافح فى شق طريقنا .. بين عربات الكارو ، والحمير ، وعربات اليد ، وباعة العرقسوس .. ولنتجاوز الدروب المقاطعة ، ومنها درب البزازرة ، ودرب عجور .. ولنتجاوز كذلك المسجدين القائمين على يسارنا .. وبذلك نكون قد قطعنا شارع البنهاوى ، ووصلنا إلى الساحة الممتدة الفسيحة المترامية على مدى البصر ، فنجد على يميننا « باب الفتوح » وهو أحد أبواب القاهرة المعز ، القائم فى سبك وضخامة ، وقد علتة الأتربة ، وبدا عليه البلى والقدم ، وترامى حوله بقايا برسيم وروث بهائم ، وحشد من الغادين والرائحين ، والصبية اللاهين العابثين .. والباب يؤدى إلى وكالة الليمون والزيتون ، وإلى الطريق المفضى إلى النحاسيين وبيت القاضى وسيدنا الحسين .

أما فى الواجهة فتمتد الساحة حتى تنتهى بمقابر باب النصر التى يخترقها شارع رئيسى يسمى شارع النجوم ، وهو مفض فى النهاية إلى شارع العباسية ، وقلم المرور ، وتحدد الساحة فى الميسرة بشارع مرتفع يحده جرف مبطن بالطوب ، وهو شارع القصاصيين وينتهى بضريح صغير منمزل هو ضريح « ابن هشام » حيث أزيل ما حوله من قبور لتوسيع الساحة وبقي هو قائما وحده ليدل على سخط الأحياء فى التفريق بين قيم الأموات الذين سواهم الله فى باطن الأرض .

لندع الساحة ، وباب الفتوح ، وباب النصر جانباً .. ولنندلف يسارنا فى أول درب يقابلنا فى الساحة ، درب قد كتب عليه لافتة

قضى باسمه ، وهو « درب السماكين » ، وهو الدرب الموازى لشارع الحسينية ، الذى يليه مباشرة على يسار الساحة .

الدرب طريق عادى ، من طرق الأحياء الشعبية القديمة بضيقه وقذارته ، وبحوانيته القائمة على جنباته ودوره البالية العتيقة المترية الجدران ، العالية الأبواب ، المتقاربة النوافذ حيث يد الساكن تكاد تمسك من خلالها بيد جاره .

وأرض الطريق قد كسيت بكتل البازلت المربعة المقلقلة التى جعلت الطريق أكثر وعورة مما لو ترك على حاله . . واكوام القمامات قد تراكت على جوانبه ، تحيط بها المياه القذرة الأسنة .

كل هذه المظاهر يتشارك فيها درب السماكين مع درب عجور ، ودرب البهلوان ، ودرب اسمه ايه ، وبقية دروب القاهرة النظيفة المحترمة . . ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون لدرب السماكين مجموعة من الظواهر المميزة والعلامات البارزة ، التى تميزه عن بقية الدروب .

أول هذه الظواهر — كما سبق القول — حنفية المياه القائمة على يمين الداخل بعد مسيرة بضع خطوات من مدخل الدرب ؛ والحنفية بكشكها وصاحبها . . تحتل زاوية داخله فى مبانى الطريق ، بحيث تكون الزاوية شبه ساحة صغيرة يحتشد فيها طلاب المياه .

فإذا عبرنا الحنفية وجدنا سورا مهدما يخفى ربوة خربة ، مترية مليئة بالقمامات والصفائح القديمة ، وفى ركن من الربوة تربعت بضع قدور سود للفول المدس وبجوارها وقف نفر لا تقل ملابسهم وجلودهم سوادا عن قدر الفول .

ذلك هو « مستوقد الحسينية » القائم فى ظهره « حمام الحسينية » الذى شيد مدخله فى شارع الحسينية الموازى لدرب السماكين .

ويلى المستوقد بضع دور عتيقة وحوانيت ومدرسة أولية . . تقوم على أزقة قصيرة مقلقة ، متفرعة من الدرب الأسمى كأنها نجسوات شبيهة بحرف U .

فإذا دأبنا فى السير داخل الدرب صادفنا على اليسار منزل شامخ للبناء ، متين الجدران . ذو باب ضخّم مصفّح بالحديد ، قد انفرج عن مدخل عالى السقف . . ضيق الساحة ، وبدا فى ركن منه كوم أسود ، يصعب تمييزه لأول وهلة فى ظلمة المدخل . . ويخيل للإنسان فى بادىء الأمر ، أنه منضدة « عتقى » وادواته . . ولكن بامعان النظر يتضح أنها أفران « بطاطة » قديمة قد وضعها الحداد المواجه للمنزل فى مدخل المنزل ، حتى لا يزدحم بها حائوته .

لننبر المدخل ونندك من الباب القائم على يمينه والمفضى إلى فناء متسع خرب . . ملئ بالكوام الحجارة والأتربة .

ومن الفناء يبدو لنا المنزل وما جاوره خرابا فى خراب وتقرأ فى تفر ، ويلفت نظرنا مئذنة عالية ، تنبىء عن مسجد يجاور المنزل ، أما المنزل نفسه ، فهو مثل لعزیز قوم ذل .

إن الجدر الشامخة المتينة قد تشققت ، حتى لتوشك أن تتقوض أركانها ، والنوافذ قد تهاوت مصاريعها ، وفاضت من حناياها ظلمة كئيبة كأنها هى نوافذ كهف خرب . . والشرفة المتسعة فى الطابق الأول على يسار الداخل قد تآكل سلمها الرخامى واحاطت به أكوام من صناديق خُسية فارغة قد أعدت لرص الكتب الصفراء التى صفت على حافة الشرفة . . والتى أخذ الحمالون فى اخراجها من داخل المنزل .

أجل ! ان ما بقى صالحا للسكنى من المنزل الشامخ الضخم قد استؤجر كمخزن للكتب ، وبذا حفظ المنزل إلى حد ما من المذلة والاهانة . . واستبقى له أثر من طيب أصله . . وسابق مجده .

وقد يلحنا صاحب مخزن الكتب بالترحيب ، وقد لا يلقانا أصلا . . ولن يضيرنا ذلك . . فليس بنا كثير حاجة إليه . . ان الذى يهتما فعلا هو ذلك الصبى « السقا » الذى حمل القرية على ظهره وأخذ يصب مياهها حول شجرة « تمر حنة » عالية مورقة . . هى كل ما تبقى من أثر الحديقة البائدة . . التى كانت تشغل الفناء .

هذا هو مسرح القصة كما يبدو الآن . . خرب متفر . . محطم

مهدم .. ليس به من سمات مجد باند ، ومظاهر عز غبر ، غير بقايا باهتة نلقاها هنا وهناك .

ثمة شيء واحد .. نستطيع أن نجزم بأنه لم يتغير ، وأنه على حاله كما كان منذ ثلاثين عاما .. ذلك هو الصبى « السقا » والشجرة المورقة .

لنرتقب الصبى مليا وهو يميل بجذعه الأعلى ويفتح قهوة « القربة » فتندفع منها المياه إلى حفرة تحيط بجذع الشجرة ، وسرعان ما تفيض المياه فى باطن الأرض لتمتصها الجذور ، فتزداد الشجرة ايناعا وخضرة . لنثبت أعيننا جيدا على الصبى والشجرة .. على الشيء النضر الوحيد بين خراب بلقع ، والثر اليناع الباقى فى رسوم حائلة .

لنمعن فيه البصر .. ولنغضب أعيننا عن كل ما سواه .. ولنعد بأذهاننا القهقرى فنعبر بها ثلاثين عاما فى زمن غبر ثم نقف بها ونمشى الهوينى .

الصبى والشجرة .. كما هما .. حتى لكاننا لم ننتقل من يومنا قيد شعره ، ولم نخض فى ربوع الماضى قيد خطوة . ولكن ما حولهما قد تبدل ، فصار عجبا .

ثلاثون عاما إلى الوراء قد بدلت المكان تبديلا تاما .. فجعلت قفره نضرة ، وخرابه ازدهارا ، وقدمه جدة ، وموته حياة .

إننا لم نعد فى مخزن الكتب .. فالكان قد عاد إلى سابق مجده وقديم عزه ، وأصبح كما كان .. قصر « إبراهيم بك جاد الكريم » .. أو كما كان أهل الحى يطلقون عليه « السراية الكبيرة » .

نحن الآن فى عام ١٩٢١ فى أوائل شهر سبتمبر .. والوقت ما زال مبكرا وضوء النهار لم يستتب له الأمر ، وفلول الليل تتسابق إلى الفرار من جحافل الشرق المحتجة وراء الأملق .

والصباح ندى رطيب ، والسحب متناثرة فى السماء كأنها أكوام القطن المندوف ، و « درب السماكين » صامت ساكن لا أثر فيه للحياة إلا فى المستوقد والجامع ، و « السراية الكبيرة » قد خيم عليها الصمت

وقام جدارها الحجزى الضخم ، وبابها الخشبى السميك البنى اللون المصفتح بالنحاس قد انفرجت ضلفتاه عن « عم جاب الله » الحارس الأسود وقد قبع فوق سجادة الصلاة وانهمك فى التسبيح والتمتة وقد أغمض عينيه وبدت عليه أقصى آيات الخشوع والإيمان .

فإذا تجاوزنا الردهة المظلمة العالية القبة القائمة وراء الباب والتي قبع فيها « جاب الله » يؤدى فرائض دينه . . واتجهنا يمينا أمضى بنا باب صغير إلى الحديقة المتسعة المترامية الأطراف .

والحديقة فى هذه الوقت من السنة تعتبر فى قمة مجدها وفى أوج انتاجها . . فهى — كمعظم حدائق القصور فى ذلك الحين — حديقة فاكهة أكثر منها حديقة زينة . . فالعين لا تقع فيها على ساحات منبسطة من الحشائش وأحواض الزهور ، إذ تتكاثف الأشجار المثمرة فى كل نواحيها ، يتخللها هنا وهناك أنواع من الشجيرات ذات الزهور العطرة كشجيرات الورد ، والفل ، والياسمين البلدى ، والياسمين الهندى ، مما يجعل نسمات الخريف تهب عطرة كأنفاس الأحبة .

وأبرز الظواهر فى الحديقة تكعيبة الكرم الممتدة بحذاء السور والتي تكون مربعا ذا ضلع ناقص يتمه بناء القصر ؛ والظاهرة الثانية هى حوض رخامى متسع ملئ بالمياه يتوسط المربع ، وحول الحوض تناثرت اشجار الفاكهة من خوخ ورمان وبرقوق ومشمش وجوافة ومانجة ، عدا النخيل القائم فى الأطراف و « التوتة » التى تظل المدخل .

والحديقة فى مجموعها اشبه بالأحراش الطبيعية المتكاثفة الأوراق الشديدة الخضرة وقد تكون يد التنسيق والتشذيب قصرت عنها ، ولكن يد الطبيعة عوضتها خيرا فمدفعت فيها من قوتها نضرة عجيبة فتشابكت غصونها ، وأينعت ثمارها وتلتحت أكمامها ، وتفجرت براعمها من قوة العصارة وفرط النمو .

وكانت مياه الحوض الرخامى قد أوشكت أن تفيض بعد أن بدا نصريفها فى أول الليل فى قنوات تسقى الحديقة وكان يسمع لصوت تدفقها من الحوض وانسيابها فى القنوات خرير خافت لطيف .

والندى قد كسا الشجر وتلاوات قطراته على الورود الحمر المتناثرة
أوراقها على الأرض وفى القنوات ، وعلى جدار الشرفة ودرجاتها
الرخامية البيضاء .

والقصر مغرق فى السكون لا يسمع منه صوت ولا حركة ، وقد
أغلق بابه ونوافذه إلا واحدة تستنشق نسيم الصباح غفا صاحبها عن
إغلاقها فى آخر الليل .

وهكذا بدا المكان كله فى إغفاءة إلا من الحارس الذى يؤدى الصلاة ،
والصبى « السقا » .

كان الصبى - سيد الدنك - يؤدى عمله اليومى الذى كلفه به أبوه
منذ بضعة أسابيع .. عندما قرر أخراجه من الكتاب وتعليمه
« الصنعة » ، وكان هذا الواجب اليومى الذى يؤديه « كسقا » مستقل
هو حمل القربة الصغيرة إلى حديقة السراية وسقى شجرة « التمرحنة »
التي كانت مغروسة فى ربوة مرتفعة لا تبلغها مياه القنوات المتسربة من
الحوض .

ووقف « سيد » يصب مياه القربة فى الحفرة المستديرة حول
الشجرة الصغيرة ، وبدا الصبى فى عملية الصب ماهرا حائقا ، رغم
حدائه عهد بها ورغم صغر سنه التى لم تتجاوز التاسعة .

كان الصبى نمونجا متقنا مصفرا لسقا ، وقد وقف بجسده
النحيل الأسمر .. محنى الهامة واضعا القربة الصغيرة فوق ظهره وقد
ارتدى السطيح (١) الجلدى الذى صنعه له أبوه من سطيح قديم له .

وقف « سيد » مرتديا السطيح حاملا القربة على ظهره ، وقد

(١) جاكطة جلدية بلا اكمام ، او على الأصح ، صخري جلدى يرتديه
« السقا » فوق جلبابه ليقية البلال ، وتشد القربة عليه بسيور جلدية
تسمى الحبال .

امسك بيمناه فوهتها المائلة إلى أسفل ، وانثنى بجذعه قليلا مصوبا الفوهة تجاه الحفرة وترك المياه تتدفق حتى أفرغت القربة ما فى جوفها وامتلات الحفرة بالمياه وفاضت .

وقد يشعر الإنسان بالراء والعطف وهو يبصر بالنسبى الضئيل التحيل فى مثل هذه اللحظة المبكره من النهار وعبيد الله ما زالوا فى مضاجعهم يغطون فى النوم ، وهو يحمل القربة تكاد تنفض ظهره ، ويبدو كأنها قد حمل من العبء ما لا طاقة له به .

ولكنه لا يكاد يطالع وجهه حتى يبصر به علامات حبور وغبطة تؤكد أن الصبى هائىء سعيد ، وأنه قرير بعمله لا يشعر منه ثقلا ولا ضرا .

وقف « سيد » وقد أفرغ « القربة » فتهدلت فارغة على ظهره ، وبدأ وجهه أسمر دقيق التقاطيع ، حلو القسمات ، وأخذ ينفض بيده قطرات الماء التى بللت كفه وذيل جلبابه وتلفت حوله بنظرة فاحصة وجرى بصره بالنوافذ فلم يجد بها عينا ترقبه ، ثم هبط إلى مدخل الحديقة فلمح « عم جاب الله » ما زال قابعا على سجادته منهكما فى صلاته .

واطمأن « سيد » إلى انعدام الرقابة فسار فى خفة إلى شجرة جوافة مثقلة بالثمار الصفراء المثلثة ، وكان فى أسفل الشجرة من الثمار الناضجة المتساقطة ما يكفى لاشباعه .. ولكنه كان يكره الغنيمة السهلة ، فسرعان ما خلع القربة والسطيح وقفز ممسكا بأحد الفروع المنخفضة ، ثانيا جذعه السفلى ، مبدلا قدميه على جذع الشجرة ، ساعدا عليها كالقردة وأخذ ينتقل من فرع إلى فرع حتى استقر على فرع محمل بالثمار ، ولاحث له فى نهاية الفرع ثمرة تكاد تكون أكبر ما حملته الشجرة فصمم على أخذها ، وبدأ تسلقه على الجذع رويدا رويدا ، فلم يكد يصل إلى حافته ويمسك بالثمرة حتى تهاوى الجذع تحت ثقله وهوى به إلى أسفل .

لم يهو « سيد » إلى الأرض .. فقد حال بينه وبين الوصول إلى الأرض سد قام بينهما هو جسد « عم جاب الله » الذى بلغ مسامعه

صوت تسلق الشجرة وخشخشة الأوراق ، نقام ليحقق شكوكه فى الشقى الصغير الذى تعود سرقة الثمار يوما بعد يوم .

وفوجيء « جاب الله » بالصبى يهوى بالفرع على رأسه ، فضج بالصراخ والسباب ، ولم يكد يتمالك نفسه ليقبض على الصبى السلقط ، حتى كان قد تناول القرية والسطيح وانطلق هاربا يعدو خارج الدار .

انطلق « سيد الدنك » يعدو بالقرية والسطيح ، ووراءه « جاب الله » الأسود .. يهرول بجلبابه الأبيض وعمامته ، ولم يكد يصل إلى الباب الخارجى حتى توقف مبهورا فقد وجد أباه « المعلم شوشة الدنك » يقف على الباب بعربته المحملة بالقرب .

وصاح به أبوه فى دهشة :

— ما بالك ؟

وتلفت « سيد » خلفه ، فلم يجد « جاب الله » قد وصل بعد فاجاب :

— لا شئ .. لقد انتهيت من سقيا الشجرة .

— ولم تهول هكذا عاريا ؟ ان السقا الاصيل لا يخلع السطيح والقرية ويحملهما هكذا فى يديه .. السقا لا يخلع حلته ابدا .. ولو سار بدونهما فإنه يصبح كالعسكري الذى يحمل بذلته على كتفه .. هل رأيت عسكريا يفعل ذلك ؟

وكان « سيد » ما زال يتلفت خلفه فى ذعر وهو يدعو الله ان يحجز « جاب الله » داخل الحقيقة ، وأجاب على سؤال أبيه بقوله :

— لا ...

— إذا فلم تخلع عنك بذلتك الآن ؟

وقبل أن يجيب كان « جاب الله » قد وصل .. وهو يجدف بساقيه الطويلتين الشبيهتين بالمجاديف .

وكان سبابه و « برطمته » يسبقانه ، وبعد لاي وطول سباب ، عرف المعلم « شوشة » ما كان من أمر ابنه .

واستمر « جاب الله » فى شكواه :

— كل يوم مثل هذا .. يتسلق الشجر ، ويكسر الفروع ويتسلف
الحديقة :

— لا تغضب يا عم جالب الله .. ساعلمه كيف يتأدب فى بيوت
الناس .. انه لم يعد صغيرا .

ونظر إلى ابنه نظرة وعيد وأردف مهددا :

— وإذا كان يصر على أن يبقى صغيرا .. فساعيده إلى الكتاب .
ان الخطأ خطئى . لقد ظننته قد أضحى رجلا ، وأردت أن أعلمه الصنعة
منذ الآن . ارتد السطيح وساعدنى فى دفع العربية أيها الأحمق .

وارتدى « سيد » السطيح ، ثم أخذ فى دفع العربية مع أبيه
إلى داخل الحديقة وسارا بها فى ممر بين الأشجار حتى وصلت إلى
الحوض الرخامى فحمل الرجل القرب وأفرغها الواحدة بعد الأخرى
داخل الحوض بعد أن سد البالوعة التى تفرغ المياه فى القنوات ..
وأخيرا امتلأ الحوض وأفرغت القرب .

وإدار المعلم « شوشة » العربية ودفعها إلى الخارج وحيا « عم
جالب الله » مودعا :

— لا مؤاخذة يا عم جالب الله .. لن يعود الولد لمثلها مرة أخرى ..
سأحضر الدور الأخرى فى الضحا إن شاء الله .

وعاد « المعلم شوشة » إلى الحنفية مرة أخرى ليعيد ملء القرب
.. وسار « سيد » بجواره ، وهو ينظر إليه من آن لآخر نظرة فاحصة
محاوِلا أن يستشف بها دُخيلة نفسه .

اتراه حقا غاضبا عليه ؟ .. أمن أجل جِوانة أو جِوانتين يغضب
عليه ؟ .. لا .. لا .. أنه لا شك يدعى الغضب كعادته .. وهو كذلك
لن يعيده إلى الكتاب .

الكتاب .. لعنة الله عليه وعلى أهله أجمعين .. انه لن يطبق
لذهاب إليه والرسف فى أغلاله بعد أن تذوق حلاوة الحرية والانطلاق .
لقد علمه أبوه الصنعة ووضع فى مصاف الرجال ، وهو لن يتنازل
عن مركزه بحال من الأحوال .. كانت القرية تثقل عليه فى أول الأمر ..

أما الآن فقد تعود حملها ، ولم تعد تثقل على ظهره .. حقيقة أنه يستيقظ مبكرا كل يوم ، ولكن الكتاب أيضا كان يضطره إلى مثل هذا التبكير ، فارق بين تبكير وتبكير ، فيها مضى كان تبكير إلى السجن ، أما الآن فتبكر إلى الحرية . أنه يرتدى السطيح ويحمل القرية الفارغة ويتجه مع أبيه إلى الحنفية ، فلا يكاد يملا القرية حتى ينطلق بها إلى السراية ، وانطلاقه وحيدا في مثل هذا الوقت المبكر كان حلما طالما دأب نفسه .

إن الجوافة والبلح ، وتكمية العنب ، كلها قد أضحت تحت أمره ، كان فيها مضى يتطلع إليها وهو واقف بجوار أبيه يرتبها خلال ملء الحوض وبمنفسه ألف حسرة .. كان « عم جاب الله » يعطف عليه أحيانا ببعض « السقط » ، ولكن « سيد » لم يكن ممن يرضون بالحينة .. ويقنعون بالسقط .. بل كانت بنفسه لهفة على أن يثب على التكمية ويقفز فوق شجرة الجوافة ويتسلق النخلة .. تلك كانت أميته التي طالما تاق إليها .

ولقد حققها الله له أخيرا عندما قرر أبوه ذات يوم أن يخرج من الكتاب ، وأن يبدأ تدريبه العملي باصطحابه معه في جولاته الساقية التي يوزع خلالها المياه على دور درب السماكين .. ومنعطافته .. ثم بدأ بعد ذلك يوكل إليه بعض الأعمال المستقلة .. كان أولها وأهمها سقيا شجرة التمرحنة في السراية الكبيرة .

ولم يحاول أن يسأل عن السر في إسناد هذه العملية بالذات إليه ، بل حمد الله في سره .. ولم يحاول أن يبدي اغتباطا ظاهرا ، خشية أن يفضح أبوه أمره ويكشف نواياه .

واليوم — وقد فضحه عم جاب الله — لا يدري ماذا يخبىء له القدر .

على أية حال لا يظن القدر يخبىء له خيرا ، فأقل ما يجزيه به أبوه — إن لم يعده إلى الكتاب — هو أن يحرمه من سقيا التمرحنة ، وبالتالي من دخول الحديقة وحيدا .

لعن الله الطمع .. لقد أخرجت آدم من الجنة تفاحة ، وأخرجته هو من حديقة السراية .. جوافاية .

ووصلت العربية المحملة بالقرب الفارغة إلى الحنفية ، وصاح « ثوشة » بالمعلم « على دنجل » .. المترع فى كشكه وراء الحنفية :
— الدور الثانى يا معلم .

— اصبر قليلا حتى أملا هذه الصفائح .
وكانت بضع نساء قد وقفن أمام الحنفية يحملن الصفائح الفارغة متوازنة على قمة رؤوسهن دون أن تسندها يد .

ووقف « ثوشة » يرقب المعلم « على » وهو يملأ الصفائح الواحدة بعد الأخرى ، وطافت برأسه بضعة خواطر ما لبث أن أجاب عليها بقوله « الحمد لله » .

أجل !! الحمد لله على كل حال .. لقد كان هذا المقعد وراء الحنفية أولى به هو .. لا « على دنجل » الذى لم يحمل فى حياته قرية ، ولم يملأ زيرا .. انه لا يعرف عن صنعة السقاين ، أكثر مما يعرف هو عن القراءة والكتابة .. ولكنها حظوظ وقسم .. لقد أمضى حياته كلها « مطبائى » يصفق بيديه ويهلل بحنجرته ، ان له فى الزفف والافراح ماضيا مجيدا ، فهو يجيد برم الشوارب ، وعوج اللاسة ، والرقص على الوحدة إذا ما استدعى الأمر ذلك ، ومع ذلك فلم يكد يخلو مقعد الحنفية من صاحبه « المعلم برعى » بعد موته حتى عينت الشركة « دنجل » مكانه ، وهو لا يعرف السطيح من القرية ، ولكنها الواسطة التى تنال كل صعب ، والتى تجعل المطبائى يستوى على عرش السقاين ، وتترك الوريث الشرعى يتجول بالقرب فى الحواري والأزقة والدروب .
واستعدل « دنجل » اللاسة على رأسه ، ويرم بأصابعه شاربه ، وصاح بصوت متهلل ، وهو يصفق بيديه :

— يا صباح الفل .

والنفت « ثوشة » ليرى صاحبة التحية ، ثم هز رأسه وتهتم لنفسه :

— طبعاً .. انها « عزيزة نوفل » لقد اضع الرجل كرامة المهنة ،
و غلب عليه طبع الطيباتى .. بمجرد ان رأى المرأة الرجراجة المتنتية ..
إن لعابه يكاد يسيل ، وهو يملأ لها الصفيحة .. ويكاد يخترق بعينه
ثوبها المغلق على صدرها البارز المكتنز .

اهكذا يكون تصرف شيخ السقاين ؟ ! يجب ان يكون اثبت من ذلك
واكثر رزانة .. إن أمامه حشدا من النسوة والرجال ، ممن لا يخفى
عليهم أمر « عزيزة » وسمعتها وسيرتها .. انه سيبىء إلى السقاين
ويشين سمعتهم .. ولكن لا .. إن « دنجل » لن يكون سقا .. أبدا ..
فهو دخيل على المهنة .. ولا كل من جلس امام الحنفية سقا .. « ولا كل
من ركب الحصان خيال » .

واخيرا انتهى ملء الصفائح ، وحل دور « شوشة » فى الماء ،
فنقدم إلى الحنفية فى عبوس ، وأخذ يملأ قربه .. الواحدة تلو الأخرى ،
حتى انتهى منها جميعا دون أن ينبس ببنت شفة .

ونقدم « سيد » بعد ذلك وملأ قربه الصغيرة . وصاح « شوشة » ،
وهو يدفع العربية أمامه ، وقد سار ابنه بجواره حاملا قربه :
— تمانيه وواحد صغيره .. الدور الثانى .

وتحرك ركب المياه و « سيد » لا يفتأ يرقب وجه ابيه العابس بين
آونة وأخرى .

لولا هذا العبوس والصمت لما كان هناك أب مثله ، ولكن حتى مع هذا
العبوس والصمت يراه خير أب .. بل خير إنسان .. لشد ما يعجب
به ويحترمه ويحبه .. وأكثر ما يقوى هذه المشاعر فى نفسه إحساسه
بأنها مشاعر متبادلة وبأن أباه أيضا يعجب به ويحبه ويحترمه .

أجل ! انه لا يعامله كما يعامل آباء الحارة أبناءهم .. فهو لا يسبه
ولا يضربه ، ولكنه يبين له الخطأ من الصواب ، ويشرح له ما خفى عنه
وينصحه ويرشده ، فإذا ما أخطأ .. وعو غالبا ما يخطئ .. لأن الخطأ
دائما أحب وأسهل من الصواب ، لانه فى رفق ، فإذا كرره ، وعو غالبا

ما يكرره ، زجره فى شدة .. فإذا لم يزجر أوقع عليه عقابا نفسانيا
.. كان يخاصه أو يحرمه من بعض مزايا الرجولة التى كان يمنحها له ..
ولم يكن أقصى على نفسه من هذين العقابين .

وتوقفت العربية أمام الدار الأولى .. دار « أم عبد الله » القائمة
فى مواجهة إحدى الأزقة المسدودة التى يمتلئ بها الدرب .. وتقدم
« شوشة » إلى الباب الخشبى المفلق فدىق « سقاطته » الحديدية بضع
دقات متوالية .. وبعد برهة سمع صوتا نسائيا من وراء الشبكة
الخشبية لنافذة سفلية تجاور الباب ، يصيح بلهجة ممدودة منغمة :

— مين ؟

وأجاب « شوشة » بصوته الأجش :

— السقا .

وعاد الصوت يصيح :

— يا واد يا عبد الله .. افتح لعبك شوشة .

وفتح الباب صبى صغير يناهز عمره عمر « سيد » ولم يكد يبصر
« سيد » وهو يتقدم أباه بالقربة حتى هتف به مرحبا :

— أزيك يا سيد .. تلعب بلى ؟

وأجاب « سيد » فى لهجة الرجل الجاد :

— بلى .. أصطبح وقول يا صبح .. وسع الطريق .

وتقدم « سيد » يعبر الفناء المظلم الصغير ، وصعد بضع درجات ،
ثم دلف من باب على يمين الداخل ولح « أم عبد الله » جالسة على
شلتة وأمامها « كنكة القهوة فوق وأبور السبرتو » فحياها بنفس اللهجة
الرزنية .. محاولا جهده أن يخشن من صوته :

— صباح الخير يا خالتى « أم عبد الله » .

— صباح الخير يا خويه .

وتبعه صوت أبيه قائلا بنفس اللهجة :

— صباح الخير يا خالتى « أم عبد الله » .

— خير عليك « يا معلم شوشه » .. عايزه قريه زياده فرغها
فى طشت الغسيل ، واملا الصفيحه كمان .

واتجه « شوشة » يسارا فى صمت ، ودف من باب المطبخ وعبر
الدهليز المظلم المفضى إلى الحمام .. ويحاسة التوجيه .. — إذ كان
النظر متعذرا تمامًا — أخذ فى ملء الأزيار والصفائح والطشت وغيرها
من مستودعات المياه الخالية .

ووضع « سيد » قريته فى أول شت صادفه ، ثم استدار إلى
الخارج ، وفى الفناء لقي « عبد الله » مرة أخرى .

وعاد « عبد الله » يسأله فى إصرار :

— تلعب بلى ؟

— العب .

— امتى ؟

— بعد التشطيب .

— يعنى بعد الضهر ؟

— أبوه !

— طيب .. أكون أنا جيت من الكتاب .

— نتقابل فين ؟

— عند السبيل .

وكان أبوه قد انتهى من تفريغ القربة ، فتبعه إلى الخارج وسار
يدفع معه العربة إلى بقية الدور .

وانتهى الدور الثانى ، ولم يعد « شوشة » بعده إلى الحنفية ليبدأ
الدور الثالث ، بل اتجه إلى نهاية الدرب ، ثم دلف يمينه وأوقف العربة
بجوار الرصيف بعد بضع خطوات ودخل دكانا وضعت على واجهته
لافتة كبيرة .. كتب عليها « غول الأمرا » .

كان مدخل الدكان قد سد معظمه بمنضدة طويلة .. وضع عليها
قدر نحاسى أحمر لامع ، وفى أسفله دروة صفراء سوداء ، حجبت وإبور

الغاز الذي أخذ يئز بشدة ، ومن فوهة القدر تصاعد بخار أبيض .. ووراء المنضدة وقف « عم سلامة » يكبشته ذات اليد الخشبية الطويلة .. وهو لا يكف لحظة عن الدنينة .. ويجوار القدر قد وضعت قصعتان ، بإحداها سلطة قوطة ، وبالأخرى سلطة لبن ، وبجوارهما صينية نحاسية صفراء فرشت بعروق البقدونس ورصت فوقها الطعمية الساخنة ، وأمام المنضدة وخارج الحائوت وضع قفص رصت عليه الأرغفة .

وراء « عم سلامة » وقف « زكى الحق » صبيه ، وقد أخذ يدفع بيده أسطوانة وأبور الغاز الكبير المتصلة بالوابور بأنبوبة رفيعة .. طويلة ، وفوق الوابور استقرت طاسة كبيرة مليئة بالزيت ، قد طفت فوقه أقراص الطعمية .

وقلب « زكى » الأقراص ، ثم رفع الناضج منها فوضعه فى مصفاة من الصاج بأسفلها طبق لتلقى الزيت المتساقط من أقراص الطعمية : وبين آونة وأخرى يتلفت « عم سلامة » لينقل محتويات المصفاة إلى الصينية التى أمامه المفروضة بالبقدونس .

وبجوار « زكى » من الداخل وقف « حريشة » يجهز المواد الأولية ويخراط البصل والكراث فوق الفول المنقوع مع بقايا العيش المكسر ، ثم يصب الخليط فى الجرن الحجري المثبت فى أحد الأركان ويرفع القائم الحديدى فيدفعه فى جوف الجرن ، ثم يأخذ فى طحن الخليط .. محركا اليد فى جوف الجرن بحركة دائرية طاحنا الخليط بين حديد اليد وحجر الجرن .

هذا هو « مطعم الأمرا » وتلك هى محتويات مطعم الأمرا .. عدا بضع مناضد خشبية تناثرت داخل الدكان جلس عليها .. جزء من الأمرا أنفسهم .. أما الجزء الآخر فقد ضاق به المكان فتربع فى الهواء الطلق على حجر الرصيف .

و « عم سلامة » قد سبق الأمريكان فى ابتكار طريقة « ساعد نفسك » فليس لديه جرسون يقوم بالخدمة ، بل هو يلزم زبائنه من الأمرا بالتوجه

إلى صينية متسعة رصت عليها الأطباق فيأخذ كل منهم ما يلزمه منها ويتقدم إلى « سلامة » غنيقده الثمن ويأخذ منه ما يريد ويحمل طعامه إلى المنضدة أو على قارعة الطريق ، فإذا ما انتهى من الأكل كان عليه أن يتقدم إلى الحوض ليفسل الأطباق ويضعها مكانها قبل أن ينصرف .

ووزع « شوشة » التحيات بهينا ويسارا على الجالسين ، وكان جلهم معرفة وأصدقاء . . فعلى باب الدكان كان يستقر « محمود مسطرين البنا » الذى كان يأبى الجلوس على المناضد لاعتقاده أن « عم سلامة » بضع رسم جلوس عليها بخصم جزء من الفول ، فهو لا يشك أن كمية الفول المفروقة لزبائن الرصيف أكثر من تلك المفروقة لزبائن المنضدة ولذا فقد طلق المنضدة ثلاثا .

وبجواره . . على الرصيف أيضا . . يجلس « حسين القرداتى » ومعه سلامة (القرد) وزكية (المعزة) وكان دخول الدكان محرما عليهم اتقاء ما يثيرونه من مشاكل بين الزبائن لاسيما وأنه لم يكن هناك كثير استلطاف بين « سلامة القرد » و « سلامة الرجل » ، وقد حاول « عم سلامة » كثيرا أن يقنع « حسين » بتغيير اسم قرده منعا لللاهات التى تحدث له نتيجة الخلط بين الاسمين ، ولكن « حسين » لم يقتنع بتاتا ، وقال له فى دهش : أنه لا يستطيع أن يتصور كيف يكون (قرده) أى شيء غير « سلامة » ، وأن خيرا له إذا كان متضررا من تشابه الأسماء أن يغير اسمه هو . !

وفى داخل الدكان كان يجلس « على الحى المبيض » و « محمود الخشت الجزار » و « زكى زين الخضرى » وثلة أخرى من جيران « شوشة » فى حرب عجور .

وتقدم كل من « شوشة » و « سيد » فأخذ طيقا وأتجه به إلى « عم سلامة » ، ودون أن ينبس « شوشة » ببنت شفة ملأ له « سلامة » طبقه فولاً ، ثم رش عليه بعض الزيت من إحدى الزجاجات الموضوعة بجواره ، وغرف له فوق الفول بعضا من « سلطة القوطه » ووضع

له نصف ليمونة ثم سلطه الطبق فعاد به إلى منضدته بعد أن تناول رغيفا وجلس يأكل بطريقته العبوس الصامتة .

وجاء دور « سيد » ، وقبل أن يمد يده بالطبق صاح بعم سلامة :

— الفول كويس ؟

— ورد .

— مستوى ؟

— زبده .

— طيب هات طعميه .

ويبدأ « عم سلامة » فى عد الطعمية ، ولكن « سيد » يراجع نفسه بعد لحظة ويصيح بالرجل :

— والا أقول لك .. هات فول .

ويعيد الرجل الطعمية إلى الصينية فى صبر وأناة ، ويبدأ فى غرف الفول ، ثم يهم بوضع الزيت عندما يصيح به « سيد » :

— لا .. زيت حار وحياة أبوك .

— عينيه يا معلم سيد .

ويشعر « سيد » بكثير من الفخر وهو يسمع الرجل يناديه « معلم » ويشد السطيح الجلد على جسده ويصلح حمالات القربة الفارغة .

فإذا ما انتهى « سلامة » من وضع الزيت وهم بوضع سلطة القوطة صاح « سيد » :

— لا .. سلطة لبن أنا ما أحبش سلطة القوطة .

— أمرك .

ويضع « سلامة » سلطة اللبن وهو يذكر أن الشقى الصغير قال له بالأمس وهو يهم بوضع سلطة اللبن عكس ما قال اليوم وأنها مسالة إمارة لا أقل ولا أكثر .

وبعد أن وضع له السلطة ونصف اللبونة أمسك « سيد » بالطبق والرغيف وهمس بصوت أقل تواضعا :

— ادبنى طعميايه بقى . .

وضحك « عم سلامة » ونأوله « الطعمية » فدفع بها في فمه
واكلها قبل أن يراه أبوه . . لقد كان يعلم جيدا أن أباه لا يقر هذه
الطريقة ، ولكنه يحب الطعمية ويحب الفول ، وهو يرى أن أباه دائما
يختار صنفا واحدا من هذه الأصناف ، ويكره أن يكلفه أكثر مما يحتل .

ويذهب « سيد » للأكل ، ويواصل « سلامة » عمله وهو يترنح
طريا بين آونة وأخرى بجسده السمين الأبيض ، وشاربه الكثيف المتهدل
على شفتيه وعينيه المنبعجتين « المبكرة » وأجفائه المسبلة ، والفوطة
البيضاء الملوثة بماء الفول والزيت والطماطم مرسلة على صدره ويطنه ،
والطاقية البيضاء غاطسة حتى أذنيه .

وانتهى « شوشة » وابنه من الأكل وغسل كل منهما يديه وطبقه
وأعادته إلى موضعه على صينية الأطباق ، وتبل أن يغادر الدكان صاح
« سيد » في صوت الرجال مخاطبا « حريشة » و « زكى الحديق » صبي
« عم سلامة » :

— عنكم يا رجاله !

وأجابه الصبيان في صوت واحد :

— عشت يابو السيد .

ثم عاد يهمس في صوت خافت لا يسمعه سواهما :

— النهارده بعد الظهر عند السبيل .

وسأله « حريشة » وهو يدير اليد في الجرن :

— فيه إيه ؟

وأجاب سيد باختصار :

— بلى .

واعترض « زكى » وهو مستتر في قلى الطعمية :

— ما فيش معاه ولا بليه .

— أسلفك .

وأسرع بلحاق أبيه خارج الدكان وهو يصيح :

— سلامة .. أمك فى العش والاطارت ؟

واحمر وجه « عم سلامة » السمين الأبيض وبدأ عليه الغضب ،
والتفت « شوشة » إلى ابنه ناهرا : ولكن « سيد » هز كتفيه وأردف
يقول فى غير اكتراث :

— قصدى .. سلامة القرد .

وضحك « حسين » القرداتى وقرع الرق فى مرح ومجون ، ونظر
إلى « سيد » بعينه الواحدة الباقية به :

— رد على أخوك يا سلامة .

وبعد فترة قصيرة أردف يقول لسيد متهقها :

— بيقول لك .. أبوك السقا مات .

وهم « سيد » بأن يجيب .. ولكن أباه جذبته من يده ناهرا ، ولكنه
رفض أن يخرج من المعركة منهزما ، فصاح وهو يهرول وراء أبيه :

— أمك تمشى ع الحيط .. يحموا أبوك فى كتكه .

وصاح حسين متهقها :

— قديمة .

وعاد « سيد » يجيبه وهو مستمر فى هروله :

— ويعنى أبوك السقامات .. جديدة .. يابن القديمة .

وضج الجالسون فى المطعم بالضحك ، وتعالى كلمات الاعجاب
بسيد من كل جانب .

ووصل « شوشة » بعربته حتى وصل إلى الحنفية ، وملأ الدور
الثالث ، وحاول « سيد » أن يملأ قربته ، ولكن أباه قال له فى لهجة
مقتضبة :

— كفايه دورين .

كان « شوشة » يتبع فى تدريب ابنه برنامجا موضوعا .. بدأه
باصطحابه جالسا على العربة بجوار القرب . وبعد بضعة أيام أمره
بالسير بجواره ، وبعد بضعة أيام أخر أمره بدفع العربة منه .. ثم
بدأ يحمله القربة الصغيرة فارغة وبعد بضعة أيام ملأها له وتركه

يفرغها فى أول بيت ، وبعد ذلك اصطحبه إلى « السراية الكبيرة » وأمره بسقى التمرحنة .. كواجب يومى مستمر .. ثم أضاف إليه بعد بضعة أيام آخر دورا ثانيا فى بيت « أم عبد الله » .. وهكذا كان يتدرج به فى التدريب .

وكان الدور الثالث سيفرغ فى السراية .

ولم تكد العربية تصل إلى بابها حتى أمر « شوشة » ابنه بالوقوف فى الخارج .

ووقف « سيد » أمام الباب ، وهو يهز رأسه أسفا .

اهكذا قد حرم عليه الدخول إلى الجنة .. وله ؟ .. من أجل جوافية لا هنا ولا هناك ؟

لا . لا . يجب أن يعطيه أبوه فرصة أخرى . هذا ظلم .

وعندما انتهى أبوه من تفريغ القرب فى الداخل وخرج يدفع العربية من الباب الكبير .. رفع إليه « سيد » رأسه متسائلا :

— لماذا لم تدعنى أدخل معك ؟

— لأنك لا تؤتمن على الدخول ،

— كيف ؟

— ألا تدرى كيف ؟ !

— لا ...

— لأنك سرقت الجوافه من الشجرة ، وأول رأسمال السقا .. هى

الأمانه .

— ولكن ما فعلته ليست سرقة .

— ما هى السرقة إذا ؟

— هى أن تأخذ ما للمحتاج لغير المحتاج .

— ما شئ الله .. من قال لك هذا ؟

— شئ بالعقل .

— السرقة هى أن تأخذ ما ليس لك .

— من قال هذا ؟

— ربنا .

— لا اظن ربنا يقول هذا !

— استغفر !

— أستغفر الله العظيم .. ولكنى مع ذلك امر على انه لا يقول

هذا .

— ماذا يقول إذا ؟

— أعتقد أن اخذ ما للغير إذا كنا فى حاجة إليه أكثر منه لا تعتبر

سرقة .. انها مساعدة منا لله فى توزيع نعمه .. وإقرار عدالته ..

فنحن فى الواقع لا نأخذ ما للغير ، ولكننا نأخذ ما لله الفائض عن حاجة

الغير ، انها معاونة لله لا أكثر ولا أقل .. افيفضب ذلك الله ؟

— الله ليس فى حاجة إلى معاونة احد .. وهو ادرى بتوزيع ماله

على عبده ، ونحن أعجز عن أن نحكم على حاجات سوانا .. إن فينا

من الأنانية ما يعيننا إلا عن حاجتنا .. فما من بشر يحس بحاجة غيره ..

وما من بشر يحس بالفائض عن حاجته .. فهو أبداً فى حاجة ، وغيره

فى غير حاجة .

— على أية حال لا اظن أهل السراية فى حاجة ماسة إلى

الجوانية التى كنت ساكلها .

— ولا أنت أيضاً فى حاجة ماسة إليها ، ولكن المسألة أن الله وهبها

لهم ولم يهبها لك .. ولكل ما وهبه الله .. وواجبنا فى هذه الحياة هو

أن نخلص فى عملنا ، ونتقبل بعين قريرة نتيجة هذا العمل .

— وهذا ما كنت اتوهم فعلا ، لقد أخلصت فى الصعود على

الشجرة ، وأؤكد لك أنه لم يكن بالعمل الهين ، بل كان يحتاج إلى جهد

كبير ، وكنت اتوى قبول الجوافيه .. نتيجة هذا العمل .. بعين

قريرة ، ولكن لم يحدث قسمة .

ولم يستطع الأب العبوس أن يمنع ضحكته وقال لابنه :

— نتيجة هذا العمل .. كان يجب ان تكون دق عنقك فهذا ليس عملك الطبيعى ، بل هو عمل شرير خرجت به عن جادة الصواب .

— على اية حال .. هذه هى المرة الاولى ، ويجب ان اعطى فرصة اخرى .

— حسن .. سأعطيك فرصة اخرى .. ستستمر على سسقى التمرحنة .

واحس « سيد » بالغبطة تملأ جوانحه .. وشمر بامتنان كبير لشجرة التمرحنة .. انها فى حد ذاتها لا شئ ، لاتها لا تجديه نفعا ، فهو لا يهتم كثيرا بالتمرحنة ، ولا بالورد أو الفل أو غيره من الاشياء التى لا تسمن ولا تغنى من جوع .

ولكن اباه بوليها اهتماما خاصا .: فهو لم يتركها مرة واحدة بلا سقيا .. وقد كانت سقياها اول واجب كلفه به ، وأول امتحان لرجولته ، واختبار لقدرته .. وكانما يود أن يغرس فى قلبه نفس اهتمامه بها ورعايته لها .

ولقد نجح « المعلم ثبوتة » إلى حد ما فى غرضه ، إذ بدأ « سيد » يعتبر الشجرة ذات مركز خاص ، ويضعها فى مصاف الشجر المثمر من أمثال الجوافة ، والعنب ، والرمان .. قد تكون حقا غير ذات نفع مباشر له .. ولكنه كان يراها السبيل إلى بغيته .. لقد كانت بالنسبة إليه مفتاح الجنة .

حيا الله التمرحنة ، وشجرة التمرحنة وساقى التمرحنة .

الفصل الثاني

فى قبضة زمزم

انتصف النهار ، وانتهى « المعلم شوشة » من توزيع المياه على درب السماكين ، وأحس « سيد » بحركة فى أمعائه ، وهى أول بوادر الجوع ، وبداية النداءات المطالبة بالطعام فى بطنه .

ورفع رأسه إلى أبيه مترجما حركة أمعائه سؤاله على سبيل التذكير والاطمئنان :

— احنا رايعين نتقضى ؟

وأجابه الرجل بإيماءة من رأسه كأنها يبتاع الكلام .

ويحه .. لم لا يتكلم ؟ إن « سيد » فى حاجة إلى الدردشة ، والأخذ والعطا فى مسألة الأكل من باب التصبير ، وتهذئة الأمعاء .

ولم يحتمل « سيد » الصمت .. كان لسانه يتملبل فى فمه .. كان ما سلب من نشاط لسان أبيه وضع فى لسانه .

ومرة أخرى رفع رأسه إلى أبيه ، وهما يدفعان العربة أمامهما ، وعاد يسأل :

— حانتقضى إيه ؟

— إيه رأيك أنت ؟

سؤال طيب .. انه خير وشيلة لفتح باب الدردشة .. وانطلق

« سيد » يقول بحماس :

— عندنا ثلاث غدوات : الأولى فى مطعم الأمرا ، سمك مقلّى ..
أو كسبريه بالطماطم والبقدونس والبصل .. والغدوة الثانية فى مسقط
« خالتي زمزم » طبق فته بشرية الكوارع .. وكوارع إذا امكن ..
أو لحمه رأس ومبار .

وصمبت « سيد » برهة ليزدرد ريقه ، ونظر إلى أبيه من جانب عينيه
ليرى وقع حديثه عليه ومدى استعدادده لقبوله ، ولكنه لم يستطع أن
بمستبين من وجهه الجامد العيوس شيئا فعاد يتم حديثه قائلا :

— أما الغدوة الثالثة ففى مكان الاسطى مخير .. مكرونة بالصلصة
هايله ، وكشرى بجبته ، عجيب .. وكبدته بالشطيطه مدهشه .
وتطلع « سيد » مرة أخرى إلى وجه أبيه ، عله يجد صدى لرغباته ،
ولكنه لم ير سوى العيوس والجمود .

وأخيرا لم يجد بدا من سؤاله ، فهتف صائحا فى حماس :

— أيه رايك ؟

— احنا حناكل جبنة وبطيخ مع سنك « أم آمنة » فى البيت عشان
هيه قالت لى من كام يوم إن نفسها فى اكلة جبنة وبطيخ .

جبنة وبطيخ ! لشد ما جاء الجواب مخيبا لآماله .. لقد كان فى
واد وأبوه فى واد آخر .. كان فى وادى الكسبرية ، وغتة الكوارع ،
وكبدة الشطيطه .. وكان أبوه فى وادى الجبنة والبطيخ .. وشتان
بين الواديين .

« ست أم آمنة » نفسها فى الجبنة والبطيخ ؟ ! وما ذنبه هو ؟
لفاكل هى جبنة وبطيخا ، أو جبنة وشما ، أو جبنة وزفتا .

وزفر « سيد » من انفه زفرة شديدة ، وهما يقتربان من درب عجور
.. ولاحت لعينه لافقة ، فوق حاتوت على ناصية العرب كتب عليها
« مسقط الحاجة زمزم » وأسفلها كتب « اخلوها بسلام أمين » ،
وأسفل اللافنة استقرت « الحاجة زمزم » على دكة خشبية فى مدخل

الحيات ، وعلى سيمائها ما يناقض الآية المكتوبة على اللافتة ،
او ما يشعر بقرط حاجة الداخل إليها .

لم يكن يبدو على « الحاجة زمزم » ما يوحي بسلام ولا أمن ..
كانت امرأة شر بكل ما فى معنى الكلمة .

استقرت « الحاجة زمزم » متربعة على الدكة ، وتهذلت من حولها
كل اللحم المحيطة بها .. وقد بدت طيات فوق طيات ، كل طية تستقر
متبدلة فوق الطية التى اسفلها ، وهى فى جلستها على شكل هرم تتكون
قاعدته من الارداق والأنخاذ ، والسيقان ، وقد انبعجت أطرافها ،
وبرزت إلى الخارج من قرط الضغوط بين الشحوم ، وبين خشب الدكة
نتيجة لثقل الجسد الواقع على القاعدة .

والطبقة الثانية التى تلى القاعدة تتكون من بطنها ، ومن محيط
الشحم الملتف حول خصرها ، وهذه الطبقة فى ذاتها مكونة من بضعة
طيات متعرجة متتالية كانها الصاج المعرج ولكنه صاج لين طرى .

والطبقة الثالثة التى تلى طبقة البطن تتكون من صدرها وشحم
ظهرها الذى يظهر ببروز وراء قفاها وتحت ابطيها كأنه سنام الجمل ،
وهذه الطبقة ليست متصلة المحيط ، بل تتكون من ثلاث كتل رئيسية هى
الثديان وسنام الظهر وشحم الإبطين .

وعلى قمة الهرم تستقر الرقبة والرأس ، وفوق ذلك كله تبسود
« الأمطة » الحمراء تعصب الرأس ، وكأنها علم أحمر ينذر بالخطر الكامن
اسفله .

ذلك هو الوصف العام « للحاجة زمزم » باعتبارها هيئة طبيعية
مستقرة فى باب المدخل ، فإذا حاولنا أن ندخل فى التفاصيل لفت نظرنا
فى القاعدة قدمان مخضبتان بالحناء قد أحاط بهما خلخالان وبدت قاع
القدم مشتقة أشبه بالخف لم يجد معها دعك باللوفة أو صقل بالحجر ..
فإذا كانت لدينا الجراءة فى أن نحاول أن نكشف عما فوق الخلخال
وجدنا أطراف سروال شيت أحمر يبدو « مكشكشا » من أسفل الجلباب
الأسود الذى يستر الهيئة الهرمية الشحمية . فإذا تركنا المساتين —

اذ لا اظننا بمستطيعين الكشف عن أبعد من ذلك — وصعدنا فوق درجات الهرم وجدنا فتحة الجلباب تتسع حول العنق وفوق الصدر ويستقر غوتها كردان ذهبى تتدلى منه سلاسل وشراشيب ذهبية ، وفى الرسفين قد صفت الأساور والنوايش ، وبدا ظاهر اليد أخضر من كثرة ما نقش من وشم عليه .

أما الوجه ففيه أثر من جمال بائد .. أثر باهت شاحب يشير إلى أنه هنا كانت امرأة .. كما تشير بقايا الطلل من حجارة منهرة إلى أنه هنا كان إيوان .

ونما تحاول مصلحة الآثار تجديد الأطلال بخلتها من جديد ووضع حجر جديد مكان كل حجر بال .. فقد حاولت « الحاجة زمزم » أن تفعل بوجهها ما تفعل المصلحة بأطلالها . يمكن الأسنان المتساقطة قد وضعت طاقما جديدا ، ومكان الرموش الهاوية والأجنان المقروحة قد خطت بالكحل خطا أسود عريضا ، ومكان الحواجب المتأكلة قد رسمت حواجب جديدة ، وأسفل المنديل الأحمر الذى عصبت به رأسها اطلت ضفيران مستعارتان غليظتان سوداوان .

و « الحاجة زمزم » تابى إلا أن تجعل من جمالها منخرة ، رغم أن لديها من المواهب ما تستطيع الفخر به غير ذلك الجمال الضائع الموهوم .. لديها المسط ، ولديها الخلاخيل والأساور ، والبيت الملك ، كل ذلك بهيئ لها ثراء ، تستطيع أن تفاخر به أهل الحى .. ولديها السطوة والسلطان والفتونة . فهى يحمد الله — فى « درب عجور » كما كان الحجاج بين أهل الكوفة لا يتعق لها بالشنان ولا يغمز جانبها كتغماز اللتين ، ولديها لسانها .. الطويل السليط المؤذى .. الذى تستطيع أن تناضل به أمة من اللثام والسفلة فتقهرها .

لديها كل تلك المواهب ، ومع ذلك فهى تصر على التعلق بالجمال الزائل وهى تابى إلا أن تحتل فى درب عجور مركز « فتاة الحى » بالذراع ، فهى تهاجم كل امرأة جبيلة .. لم تنج من لسانها واحدة ، ومن

لم تجد بها عيبا اتهمتها بأنها عاهر .

كانت « الحاجة زمزم » تزن حوالى مائة وخمسين كيلو ، منها مائة كيلو أناتية ، فقد كانت ذاتها هى محور كل حركة وكل فكرة وكل تصرف يصدر عنها .. وكان يبدو كأن كتل الشحم التى تراكمت على جسدها قد اختلط فيها الشحم بمواد متفجرة .. فهى أبدا تفرقع بالسباب والشتم وتفيض بالمرارة والحقد .

هى حائرة بين رغبتها فى تصيد الإعجاب بشخصها ، وبين إطلاق شرورها وأحقادها التى تفيض بها نفسها .. لا تكاد تتصنع الرقة والدلال حتى تغلب عليها سلاطة لسانها وسفالة خلقها ورغبتها الكامنة فى الشر والأذى .. فهى ترق للقوى فى مواجهته فلا يكاد يوليها ظهرا حتى تنهشه بلسانها .. أما الضعيف فتقرغ فيه أحقادها غائبا وحاضرا .

تلك كانت « الحاجة زمزم » ، خالة « المعلم شوشة » السقا ، والزوجة السابقة « لإبراهيم الفرارجى » الذى قد غر منها غرارا وترك لها الحى بأكله .. بعد أن سودت عيشه وأزهقت أنفاسه ، وتزوج من « حسنة » المسكينة بائعة الفول النابت .

وكادت المرأة تجن عندما هجرها الرجل لا لحبها له .. بل لحبها لنفسها .. فقد كانت تجد فى نفسها شيئا ممتازا عن بقية النساء .. وكانت تأبى أن تقارن نفسها بسواها ، وكانت لا تكف عن تعداد محاسنها والتعقيب عن معائب الغير .. فكيف بها وهى ترى زوجها يفر منها ويفضل عليها أقبح نساء الحى وأوضعهن .

كانت صدمة قاتلة لها زادت من حقدها ومراتبتها .. فأصبحت مخلوقة لا تطاق .. تعلقس ثياب وجهها ، وتشاكس طوب الأرض .

وكانت « زمزم » تحس بعد هجر زوجها أن الدنيا تناصبها العداء .. فنأصبت الدنيا العداء ، ووقفت تناضل فى الحياة وحدها بلا زوج ولا ابن ، ولكنها كانت صلبة العود شديدة المراس .. فاستطاعت أن تصمد ..

واتسع مسطها وربحت تجارتها وأضحت ذات ثراء لم يبلغه أحد من أهل الحى .

وكان « سيد » يرى أباه شديد النفور من « الحاجة زمزم » ، رغم ما كانت تبديه له « الحاجة » من مودة ظاهرة ، ورغم ادعائها أنه ابنها ، وأن « سيد » ابن ابنها .

وكان « سيد » يكره نفور أبيه من « الحاجة » فهو يراها ذات نفع إذ أنها لا تفتأ تطلع عليه المنح بين آونة وأخرى ، ما بين قطع المبار والملايم التى تنفحه بها بين آونة وأخرى .

كان « شوشة » يكره منحها ، فقد يعلم أن « زمزم » لا يمكن أن تمنح بقصد المنح ، وأنها لا تدفع إلا لتأخذ أكثر مما تدفع ، وبالفعل صدق ظنه . . إذ تبين له أنها تريد أن توطد الصلة وترفع الكلفة حتى يحل إليها المياه مجاتا فى سبيل أكلة بين آن وآخر وبضعة ملايم تمنحها لابنه .

لقد كانت تقول انها أمه وأنه ابنها . . لأنها كانت تعلم أن الابن لا يعطى أمه المياه بالثمن ، ولكن « شوشة » لم يخدع بالعطف الظاهر وأصر على التباعد عنها وحرم على ابنه أن يأخذ منها مليما واحدا ، وفى المرات القلائل حين كان يهفو إلى أكلة لحمه راس ، كان يصر على دفع ثمنها على « داير مليم » .

وعندما وصلت العربية بحذاء الجانوت تمهل « شوشة » قليلا وبدا كأن فكرة طازئة طافت بذهنه .

ودعا « سيد » ربه أن يهدى أباه ويدخله المسط ، ورفع رأسه إلى السماء وتمتم بصوت خافت :

— لحمه راس . . وقتة كوارع يارب . . اللهم أبعد عنا الجبنة والبطيخ .

وفى نفس الوقت انطلقت صيحة من كوم الشحم الرابض على الدكة :
— اتفضل يا معلم شوشة . . اهلا وسهلا .

ولم يدر « سيد » ما الذى غير رأى أبيه فجأة ، أهى دعوته إلى

الله ؟ أم دعوة الحاجة زمزم له ؟ فقد توقف الرجل وترك العربية بجوار الرصيف ، وأمسك بيده ، واتجه إلى المسقط .

ولم تكن بالطبع إحدى الدعوتين هي التي غيرت رأيه ، بل كانت فكرة خطرت له عندما تذكر مماثلة « الحاجة زمزم » في دفع القرب المتأخرة : وعزمه على أن يأخذ الثمن فقة وكوارع ولحمة رأس حتى لا يعطيها فرصة الاحتيال عليه .

واستمرت المرأة في ترحيبها :

— أهلا وسهلا بالمعلمين .

وأحس « سيد » بنشوة وهو يخاطب بصيغة الجمع مع أبيه ، ورد على تحية « الحاجة » بخير منها قائلا في لهجته الرجالي :

— أهلا وسهلا بشيخة المعلمات ، وفتوة الحسينية .

وفجأة تناولت « الحاجة » حجرا من كوم حجارة وضع بجوارها ، ورفعت يدها ثم قذفته بشدة فمر فوق رأس « سيد » كالصاروخ ، واستقر على رأس كلب يهم بالاقتراب من المسقط ، وحمد الصبي ربه أنه لم يكون المقصود بالجحر . . فقد ظن وهي ترفع يدها بالحجر فجأة أن وصفه لها « بشيخة » قد أغضبها ، وأنها فهمته بمعنى الكبير في السن . . لا الكبير في المقام .

وعدا الكلب يعوى هاربا من المنطقة الحرام . . ورفعت « الحاجة » يدها عن كوم من الأسلحة الخفيفة ، سلاح الكلاب ، والقطط ، وما إليها من أطفال الحي الاشتقاء الذين يحولهم أحيانا معاكستها . وقبضت بيدها على السلاح الثقيل . . سلاح الزبائن العصاة ، الذين يساومون في الدفع أو يماطلون فيه وهو « شومة ثقيلة » . . تقرر بها « الدكة » بين آن وآخر على سبيل الإنذار والتحذير .

ودخل « شوشة وابنه » يخوضان في كوم العظام المتراكم على مدخل المسقط ، والمحرم — بلا ريب — على الكلاب والقطط . . وحييا « جاد » صبي « الحاجة زمزم » والمتولى شئون المسقط ، وهو قزم معوج

الساقيين ، بارز الذقن لا يقل شرا وسفالة عن معلمته .. وهو المخلوق الوحيد الذين يمكن أن يحتملها ويداوم على العمل معها ، فقد استطاع أن يصمد في العمل معها قرابة الخمسة عشر عاما منذ أن كان صبيا في الثانية عشرة . وقد تبدل جميع عمال المسط عداه ، إذ كان يربطه بالحاجة رابطة متينة من سوء الخلق والكره المتبادل جعل كليهما لا يستغنى عن الآخر .

كان « جاد » يتخيل رأسها في كل رأس يشجه ، ولسانها في كل لسان يقطعها ، وكان يشعر بلذة من عملية الثج والقطع ، ويدعو الله في كل ضربة ساطور .. أن يضعها أمامه فوق « الأرملة » ويمكنه من زمارة رقبتها .

وكانت « الحاجة » بدورها تتخيله في كل كلب عاو هسبت رأسه . وفي كل زبون مضروب حطمت ضلوعه ، وكانت تدعو الله أن يريها « جادا » كومة من العظام ، كذلك الكوم المستقر أمام مدخل الحانوت .

وهكذا كان يجمعهما — غير حاجة كل منهما إلى الآخر — شعور من الحقد والبغضاء .. كان كل منهما ينميه في الآخر ويبقيه دائم اليقظة .. فكما يشعر بعض الفنانين برغبة دائمة في الحب ، وحاجة إلى ما يوقظ حسه ، ويرهف مشاعره .. كانت « زمزم » و « جاد » يشعران برغبة دائمة في البغض وحاجة إلى ما يوقظ حقدهما ، ويؤجج غضبهما . لقد كان كلاهما فنانا في الشر ، عبقريا في الأذى .

ووقف « جاد » وراء القزان الكبير الذي يتصاعد منه البخار .. بفكه السفلى العريض ، وفقنه البارز ، وحواجه الثقيلة ، وأنفه المعوج التشبيه بالمتنار .. وقد بدا شديد التشبه بالشياطين والزبانية .. ثم أخذ يجهز بعض الطلبات على الأرملة الخشبية ووضعها في الأطباق الصغيرة .. ودفع بها إلى صني وقف ينتظر بجواره ، وقد بدا صورة طبق الأصل منه وهو ابنه « حنفي » الذي يعاونه في خدمة الزبائن .

ولم يكن الحانوت مزحما ، فقد خلا إلا من بضعة زبائن تناثروا

فى الأركان وأقبل كل منهم يتناول طعامه فى سكون عدا واحد بدا وجهه غربيا على « شوشة » وابنه « سيد » .

كان الزيتون الجديد كهلا يرتدى جلبابا من « الدمور » المخطط ، وجاكطة قديمة ، نحت يافتها وكيعاتها وأطراف أكمامها ، وبرزت البطانة من عدة مواضع ممزقة فيها ، وفى قدميه حذاء بال أجرى ، لا يعرف له لون ، قد جدد نعله بقطعة من كاوتش سيارة ، وربط إحدى فردتيه بقطعة من الدوبارة ، وتدلّى لسان الأخرى من الفتحة الخالية من الرباط ، وارتدى جورب صوف كالكى طويل من جوارب السلطة ، قد تهدل من ساقيه الرفيعتين المساوين ونزل فوق الحذاء .

والرجل على كبره يبدو لطيف الملامح ، بشوش الوجه ، تهدل شاربه الأبيض على شفتيه فأخفى العليا ، وأبرز السفلى وتناثرت الشعيرات حول ذقنه ورقبته . . فكست وجهه شبه وبرة بيضاء .

ومع كل مظاهر البهولة البادية على الرجل نجد الطربوش الأسود الزيتى المنهار الجوانب ، المندوف الزر ، قد استقر على حاجبيه الأيسر على ميل شديد ، كاد يخلط معه توازنه . . مؤكدا أن صاحبا ما زال محتفظا بعبائة معنوية شديدة . . وأنه رغم أن طاقته المادية عاجزة قد باعدت بينه وبين الفخامة والأبهة بعد السماء عن الأرض . . إلا أنه أصر على ألا يخلد . . وأن يستعمل من وسائل الأتاقة والعبائة ما أبقاه له الذى أخنى عليه كما أخنى على لبد . . فأمال الطربوش على حاجبيه . . ووضع فم السيجارة بالعقب فى جانب فمه .

ذلك هو « شحاتة أفندى » كما أبصره « شوشة » وابنه « سيد » . . ليس به من مظاهر الأفندية غير الطربوش والجاكطة ، بادى الانسجام والسرور . . لا يكف عن التلفت يمنا ويسرة . . حتى يستقر بصره على الهرم الأكبر الجالس على الحكمة . . تعرف على قمته « الأمطة » الحمراء .

ولا يكاد بصره يستقر على وجه « الحاجة زمزم » . . ذى التجاعيد

والهضاب والوهاد .. ولا تكاد تلتقى الأعين حتى تتحرك حواجبه مرتفعة منخفضة بطريقة آلية .

وهكذا يتضح من حركة « شحاتة أفندى » .. أنه يصوب سهام غزله إلى الهرم الشحمى .. بادئا بتلعيب حواجبه .. متابعاً هجومه الصامت بهجوم ناطق ، قائلاً وهو يمصص بشفتيه .. ويهز رأسه فى شبه أسف وطرب :

— « يا ميت ندامه على اللى حب ولا طالشى » .

ويبدو واضحاً أن هجومه قد أصاب الهدف ، وهو لابد أن يصيبه . نقد كان الهدف — من ناحية الحجم — أضخم من أن يخطئه مصوب ولو كان أعمى . ومن ناحية الحساسية كان الهدف نفسه يتصيد كل هجوم أيا كان نوعه .. فإذا كان هجوم غزل ، فليس أحق به منها .. لأنها — كما تعتقد فى نفسها — أجمل أهل الحى .. وإذا كان هجوم عراق .. « فادها وأدود » .. لأنها أيضاً أقوى أهل الحى ذراعاً ، وأطولهم لساناً .

وظهر تأثير هجمات « شحاتة أفندى » على الهرم الأكبر .. عندما بدأ الهرم الأكبر يتميل ويهتز طرباً ، ثم يطلق ضحكة ناعمة نسبياً ، ويهز رأسه المعصوب بعلامة الخطر ، وينشد مترنماً : « يا نور الميئون آنست » .

وصلت الأغنية إلى أذن « شحاتة أفندى » فاعتبرها بمثابة تحية له ورد على غزله ، واستسلام لهجومه ، فاطلق التذيفة الثابتة فى صورة أغنية أخرى ، متابعاً نجاحه صائحاً ، وهو يهز رأسه طرباً « يابل أنت راحشنى وروحى فيك » .

وهكذا استمر الغزل فى صورة اغتيات .. يتبادلها الطرفان ، حتى وقف « حنفى » بطبق لحة الرأس والعيش والطرشى ووضعها على المنضدة أمام « شحاتة أفندى » .

وكف « شحاتة أفندى » عن الغزل مرة واحدة ، لا تلعب حواجب ،

ولا إتشاد أغاني ، ولا طرب ، ولا هز رأس ، وحلق في الأطباق حلقة
 منهم مسغب .. لم يذق طعاما منذ أسبوع . وانصرف بكليته إلى الصبي
 حنفى ، معرضا تماما عن « الحاجة زمزم » منكرا إياها كل الانكار ،
 كان لم يكن يناديه منذ لحظة : « ياما انت واحشنى وروحي فيك » ..
 وكأنها كان هذا القول موجها إلى كرشة الخروف .. لا إلى كرشة
 « الحاجة زمزم » .

واقبل « شحاتة أفندى » يفحص الطبق .. ويقلب الكرشة والمبار
 .. وقطع لحة الرأس .. وهم « حنفى » بالاتصراف عندما صاح به
 « شحاتة » في لهجة أمرة :

— اسمع يا ...

— محسوبك حنفى .

— اسمع يا حنفى .. عايز جوهرة .. ونص مخ مع نص لسان ..
 بس كده خليه يوضبهم على كيفك .. وهات كمان شوية شوربه .

وبدا الدهش على « حنفى » إذ لم تكن الطلبات لتتناسب مع مظهر
 صاحبنا .. وبدا عليه التشكك في جدية طلب الرجل وفي استطاعته
 دفع ثمنه .

وأدرك « شحاتة » معنى نظرة الصبي فقال من باب التطمين
 والتأكيد :

— هات .. هات .. مافيش فرق بينى وبين الحاجه ، ما بين
 الخيرين حساب .

ورفع « حنفى » كتفيه كأنما يقول « وأنا مالى .. انت اللي حتاكل ،
 وانت اللي حتدفع » .

ووصل إلى مسامع « شوشة » قول الرجل « ما بين الخيرين
 حساب » ، فلم يشك في أن الرجل لم يعرف « الحاجة زمزم » جيدا ..
 وأنه خدع باستسلامها لغزله ، وإلا لما أدخلها في زمرة الخيرين .
 وحمل « حنفى » طبق الفتة وطبق الشورية والكوارع إلى شوشة

وابنه ، ثم عاد ليحمل بقية الطلبات إلى شحاتة أفندى .

وانهمك الكل فى الاكل فلم يسمع منهم صوت ولالقى أحد منهم بالا لأحد . . كان الاهتمام كله مركزا بين الغم والأطباق ، وكان « سيد » متلهفا على فتة الكوارع فهو يحبها وقد مضى عليه بضعة أشهر دون أن يتذوقها ، فاللقاء بينهما على وحشة وطول فرقة .

وكان « سيد » ما فتى يراقب جاد فى عملية الفت ، وتمزيق العيش ووضعه فى الطبق ، وكان يود لو ينهض لمساعدته ، ثم أخذ يراقب الشورية والبخار يتصاعد منها وهى تهبط فوق العيش فتلين صلابته وتذكر صرح لقماته ، وهكذا لا يلبث خليط العيش والشورية حتى يستحيل إلى كتلة طرية متماسكة كصدر العذراء . . ليونة وسخونة ، ويبدأ بعد ذلك ، فرش الرز ، واللثيم « جاد » يأبى إلا أن يرقق طبقة الفرش كأنها ينزعها من جلده . . رغم أن « سيد » يحب كثيرا الرز المفروش على الفتة . . ولكن منذ متى كان « جاد » يأبه لرغبات « سيد » أو أكثر من « سيد » ؟ انه سافل لثيم كابنه « حنفى » . . ويجيء دور الصلصة ، وإذا كان « جاد » يفرش الرز من جلده . . فهو يسكب الصلصة من دمايه . . إنه لا يكاد يضع المغرفة فى الحلة حتى يخرجها ، ثم يدور بها حول الطبق وبحذاء حافته من الداخل دون أن يسكب منها شيئا كأنها هى عملية تشميم لا أكثر ولا أقل .

ولا يستطيع « سيد » أن يكتم غيظه ، وهو يرى أن المسألة أخطر من أن يسكت عليها فيصيح بجاد :

— عايز صلصه يا عم جاد . . الريحه مش كفايه .

ولا يجد « عم جاد » بدا من أن يسكب بضع قطرات من « الكبشة » ، وهو ينظر إلى « سيد » فى حنق ولسان حاله يقول « بالسّم الهارى » . . ويتبسم « سيد » وكأنه يجيبه « ولو » .

ويغفل « سيد وأبوه » بالكوارع عن « شحاتة أفندى » ، كما غفل « شحاتة أفندى » بلحمة الرأس والجوهره واللسان عن « الحاجة

زمزم « ، وعن الدنيا بأكملها ، وبكاد بنفسياته كلية حتى يصل إلى أذانها ، وقد بلغا قاع سلطنة الفتنة ، صوت هدير آت من مدخل الحانوت ، فتلفتا تجاه الصوت فى دهش فإذا « بالحاجة زمزم » تزار قائلة :

— يقول إليه ؟ على الحساب .. حساب مين يا عمر ؟ قول له بدفع بالتى هى أحسن .

وكان القول موجها إلى « حنفى » .. رغم أنه رج الدكان بأكملها وبخرق آذان الزبائن جميعا وجعلهم يتلفتون فى دهش ليتبينوا مصدر الزوبعة وليكتشفوا من هذا الذى جرؤ على الاصطدام بـ « الحاجة زمزم » .

وتحرك « حنفى » ليبلغ الرسالة لصاحبها .. رغم أنه لم يكن هناك شك فى أنها قد وصلت لا إلى صاحبها فقط بل إلى سكان الحى المجاور .

ويتتبع الزبائن « حنفى » بأبصارهم ليروا الضحية ، فإذا بهم يجدون الصبى قد وقف أمام الزبون الجديد « شحاتة أفندى » أو كما عرف بينهم بعد ذلك .. « شحاتة أفندى » الهلפות .

وقف « حنفى » أمام « شحاتة » وقال له بهدوء :

— الحاجة بتقول لك ادفع بالتى هى أحسن .

وكان الطربوش أبرز مظاهر العياقة فى « شحاتة أفندى » قد غادر موضع الاناقة وانتقل من الحاجب إلى مؤخرة الراس ، وكان « شحاتة » قد أتى على جميع ما فى الأطباق وأعلن بالتجشؤ عن مدى شبعه ورضائه .. وبدأ فى جلسته قريبا للغاية ، ولكنه لم يتمتع كثيرا برضائه وقرارته .. فقد فاجأه الزئير الصادر من « الحاجة » عندما بلغها الصبى الرسالة .. لا سيما وأنه كان قد بدأ يستعد لمواصلة الغزل .

وبدا الارتباك على « شحاتة » ، وهو ينقل الطربوش بين حاجبيه ومؤخرة راسه ، ويضع ساقا على ساق ، ثم يخفضها ثانية ، ولكنه حاول التمالك وقال للصبي فى صوت خفيض :

— روح انت .. انا حتفاهم معاها .

أجل .. انه لا شك سيستطيع التفاهم معاها .. فقد كانت تذوب رقة وهو يقول لها « ياما انت واحشنى » .. وأغلب الظن أن ما أثارها عليه ليس رغبته فى عدم الدفع ، بل انصرافه عنها إلى لحمة الرأس .. لعنة الله عليه .. كان يجب أن يكبح جماح نفسه ، وأن يتروى قليلا فلا يندفع إلى اللحمة مثل هذا الاندفاع ، ولكن .. لا بأس عليه .. سيعرف كيف يسترضيها ، ويدير رأسها ، ويأكل منها ، ويلين لسانها .. فى سبيل لحمة الرأس والمخ واللسان .. الذى أكله ، والذى ينوى أن يأكله بعد ذلك .. انها فرصة سانحة لا ينبغى أن يضيعها من يده مهما كان الأمر .

وبدا يعد فى ذهنه خطة الهجوم المضاد على الهرم الشحمى الأكبر .. ولكنه قبل أن يبدأ التفكير فوجيء بالزئير مرة أخرى ، وسمع المرأة تصيح بالصبي :

— قل له يدفع قبله .. لحسن أخرجه من الدكان ملط ، يأكل جوهره ولسان ، ومشى عايز يدفع الحساب .. الأقرع التزهى ، والنبي أطلع حبابى عينيه ؟

وارتجف « شحاتة أفندى » فقد وجد أن المسألة أخطر بكثير مما كان يظن .. لشد ما خدع فى المرأة .. إذ ظننها مركبا سهلا ذلولا .

ولم ينتظر « شحاتة » حتى يبلغ « حنفى » الرسالة ، بل نهض متجها إلى « الحاجة زمزم » عله يستطيع تهدئتها والتفاهم معاها .

وبدا وجه « الحاجة » مريدا متجهما .. وقد انتخت أوداجها وزوت ما بين حاجبيها المرسومين وكثرت عن أنيابها الصناعية ، ولم يكذ « شحاتة أفندى » يقف أمامها وهو يحاول الابتسام حتى صاحت به :

— نتفاهم على إيه يا عومر ؟ .. إيدك على الحساب .. ادفع
تمن السم الهارى اللى كلفته .

— صبرك على يا حاجه .. الدنيا مش حاتطير .. الناس لبعضها .

— الفلوس .. إيدك على الفلوس .

واستط فى يد « عم شحاتة » فقد خذلته المرأة تهاها وقلبت له
ظهر الجن .. ولم يكن قد دخل جيبه مليم واحد منذ بضعة أيام ، ولم يجد
هناك بدا من أن يقوم بهجوم غزلى خاطف عله يستعيد به الموقف ، وبدأ
بطلق ما فى جعبته من سهام . فلجأ على هدير المرأة وزئيرها بحركة
سريعة من تلعب الحواجب ، وصاح منشدا فى طلب :

— « حبيبى قاعد ع الذهبية ، ودراعه متختخ زى الليه » ..

ثم أعقبها بقوله التقليدى فى أسف :

— « يا ميت ندامه على اللى حب ولا طالشي » .

وهنا انطلق « سيد » متقهقا وصاح بأعلى صوت مجاوبا شحاتة
أفندى :

— « يا ميت ندامه على اللى كل ولا دفعشى » .

وفجأة وفى سرعة البرق .. بدأت الندامة .. ندامة « اللى كل
ولا دفعشى » .

لقد ارتفع نراع « الحبيب المتختخ اللى زى الليه » ثم هوى مطبقا
على جاكته « شحاتة أفندى » وجذبه بعنف تجاه الحبيب .. ليس الجالس
على الذهبية .. بل الجالس على الدكة أمام المسط .

ومزقت الجاكته وهوى « شحاتة أفندى » جاثيا أمام الدكة وأفلتت
بد الحبيب الجاكته ، وأطبقت على زماره رقبة مريح الهوى ولحمة
الرأس .

وبسرعة البرق تناولت « الحاجة » العصا بيدها الأخرى ثم رفعتها
إلى أعلى مهددة صائحة :

— الفلوس .

وصاح « شحاتة أفندى » فى نلة واستعطاف :

— حاضر .

— هات .. قوام .

— صبرك على .

— طلع إيدك بالفلوس .

— نسيت المحفظة فى البيت .. ولا معيش ولا مليم .

وصرخت « الحاجة زمزم » فى وجهه وزادت الضغط على عنقه :

— نسيت المحفظة ! ؟ دا كلام ما بنطليش على .. حاخذ الهدمة اللى

عليك وأخرجك بلبوس .

ثم صاحت :

— جاد ...

وبلغ النداء « جاد » وهو واقف أمام القزان يشاهد المنظر فى

شماعة وفرحة . فأسرع إلى الحاجة وهو يجيب فى طاعة :

— نعم يا معلمة .

— قلعه الجاكتة ، والجلابيه ، والجزمه ، وناوله .

ولم تكذ « الحاجة » تنتهى من قولها حتى هجم « جاد » على

« شحاتة أفندى » الذى كان راكعا أمام الدكة وعنقه فى قبضة

« الحاجة » وطربوشه ملقى على الرصيف وعيناه محمقتان فى دهش

وذعر .

ونزع « جاد » الجاكتة — أو على الأصح — علاهيل الجاكتة بين

استغاثات « شحاتة » وزئير « زمزم » ، ثم مد يده إلى ذيل الجلاباب وهم

برفعه عندما نهض « شوشة » من مقعده فى غضب واندفع إلى

« جاد » بعد أن رآه ينفذ بالفعل حكم « الحاجة » بتعرية الرجل وصاح

فيه حائفا متحديا :

— إيه اللى بتعمله دا يا جدع انتة ؟

ولم يجب « جاد » بل نظر إلى « الحاجة » نظرة تساؤل كأنه يستشيرها فيما يفعل إزاء تدخل المعلم « شوشة » ، ثم حول عينيه من « الحاجة » إلى « شوشة » وبالعكس كأنها يقول له « كلمها هي » او « انتشطر عليها » .

وحاولت « الحاجة » أن تبذل جهدا كبيرا لكتم غيظها مفضلة أخذ « شوشة » بالحسنى فقد كانت مدينة له بثن القرب التي وردها خلال ضحكة سطحية كشفت عن طقم أسنانه وأبرزت تجاعيد وجهها ، وقالت مجيبة على سؤال « شوشة » بأقصى ما استطاعت من رقة :

— المنكوب ده ما دفنمش تمن اللي اتسميه .. طلب جوهره ومخ ولسان .. على الحساب .. تصدق إن الجربوع ده يكون له حساب .. داخنا لو بعناه بحاله ما يجيبش تمن اكله . لكن اتنا حا اعرف ازاى اخليه يبطل النصب على الناس .

وقبل أن تسمع رد « شوشة » حولت الحديث إلى « جاد » قائلة :

— قلعه الجلابيه ، وخليه يمشى فى الشارع ملط .

واستمر « جاد » فى نزع الجلاب معتبرا أن المناقشة قد انتهت ، ولكن « شوشة » تقدم خطوة ثم قبض على رسغ « جاد » ولوى ذراعه إلى الخارج ثم دفعه بشدة دفعة جعلت « جاد » يصرخ من فرط الألم . ولم يكن « شوشة » ضخم الجسد أو بادي القوة ، ولكنه كان من النوع الذى يسمونه « عرق » .. كان نحيف الجسد ، ضامره ، ولكن عضلاته الضامرة كانت تبدو عندما تتصلب كأنها قطع الصلب ، وكان يتمتع بقوة كامنة وإقدام وجراة جعلته بين أهل الحى مرهوب الجانب وجعلت « جادا » يتنحى عن الميدان تاركا « شوشة » مع « زمزم » وجهها لوجهه .

وكان « سيد » فى هذه الآونة ما زال جالسا على مقعده منهكا فى مصبصة بقية كارع ، ولكنه لم يكن يبصر دفعة أبيه لجاد ويوتن أن هذا لابد أن يكون بداية معركة حتى قفز من مقعده فى فرحة ظاهرة ، فقد

كان يتوق منذ مدة طويلة إلى أن يرى أباه فى معركة لا سيما مع هذا الحيوان اللئيم « جاد » ، وكان يتوقع أن تنيله مثل هذه المعركة ماريا طالما تلهف عليه وهو ضرب « الواد حنفى » ابن « جاد » الذى طالما اعتدى عليه بالسبب محتما بأبيه و « بالحاجة زمزم » ، ولكنه فى المعركة يستطيع أن يتصيده وحده إذ لا شك أن جادا وزمزم سيكونان مشغولين عنه بأبيه .

ولكن لم يكن يجد « جاد » يتنحى حتى خاب أمله . إلا أنه عاد يرقب عينى « زمزم » فقد أضحى فى يدها الآن مفتاح الموقف إن شاعت أنهته بسلام ، وإن شاعت أعلنت القتال .

وبدا جليا أن « زمزم » لا تريد الدخول فى معركة مع « شوشة » ، فقد صمتت برهة ، وهى ما زالت مطبقة بيدها على زمارة رقبة « شحاتة أفندى » الذى بدأ يتطلع فى استغاثة صامتة إلى منقذه الأكبر ، ثم أطلقت تنهيدة معناها : « اللهم طولك يا روح » ، ورفعت حاجبها الأيسر ، وهزت رأسها ببطء ، وتساعلت فى هدوء مصطنع :

— مالك يا سى شوشه .. حد داس لك على طرف ؟

— قبل كل حاجة سيبى الراجل ده .

— أسيبه ؟

— أيوه .. سيبيه !

— أنت تعرفه ؟ صاحبك ؟ قريبك ؟

.. قلت لك سيبيه !

وبدأ الغضب يغلغلى فى صدر المرأة .. ولكنها بذلت جهدا كبيرا لكبت بوادره ، وقالت فى لهجة اقناع :

— أنا عارفاهم أكثر منك ، عارفة الصنف النصاب المحتال ده .

— اسمعى يا حاجة .. تعرفيه ما تعرفهش .. كلمه ورد غطاها

.. قلت لك سيبيه ، وحادفلك الحساب .

ودهشت المرأة ، وبدت عليها امارات الخذلان .. ولكنها لم تستطع
أن تقول شيئا .. فقد أسكتها « شوشة » برده .. حقيقة أنه سيحرمها
من التمتع بإحدى عمليات الشر والأذى ، ولكنه سيدفع الثمن ، وهو
الاهم .

وافلتت من قبضتها رقبة الرجل .. فنهض « شحاتة أفندى » وهو
يتحسس رقبة غير مصدق أنه نجا ، وأمسك بجاكتة المزمزة ، ووضعها
على كتفيه وتناول الطربوش الذى تدحرج فوق الرصيف ، فوصعه على
مؤخرة رأسه ، ووقف يقلب البصر فى ذهول بين القضاء المستعجل
والمعجزة الكبرى ، أو بين « زمزم » و « شوشة » .

وتكلمت المعجزة تخاطب القضاء فى لهجة مقتضبة حازمة :

— حسابه كام ؟

وتحول القضاء إلى صبيه « جاد » ملقيا نفس السؤال :

— حسابه كام ؟

— لسان وجوهره ومخ .. مخ بتلاته ابيض ، وجوهره بساغ ،
ولسان بصاغ ، ورغيف بعشرين تعريفه ، وبعشرين تعريفه طرشى
وسلاطه ، تبقى الحسبه كلها أربعة ساغ .

ولم يتمالك « شوشة » نفسه من الصياح فى دهشة ، وهو ينظر
إلى « جاد » فى شك وريبة :

— أربعة ساغ !

— أبوه أربعة ساغ !

وتحول ببصره إلى « شحاتة أفندى » طالبا منه أن يكذب « جاد » .
ولكن الرجل هز رأسه بالموافقة .. فعاد « شوشة » يسأله :

— انت كلت كل دا يا أخينا ؟ !! مخ ولسان وجوهره وطرشى.

وسلطه ؟

— أبوه !

— ولا فيش معاك مليم واحد ؟

وهنا وجدت « زمزم » الفرصة سانحة للتدخل ، ومعاودة الهجوم على « شحاتة أفندى » بعد أن بدت علامات التراجع على « شوشة » فقالت ساخرة :

— اقرع ونزهى .. نصاب ابن نصاب . فلكرها ياغمه . قلت لك سيبولى وأنا أعرف أراى آخذ حتى معاه .

ثم أردفت مقلدة صوت « شوشة » بلهجة ساخرة :

— قلت لك سيبيه .. حاديلك الحساب .. ادفع كع .

أربعة قروش .. مرة واحدة ؟ !! إنه مبلغ ضخم .. وهو ضائع ضائع .. فهذا المغامر المجنون .. لا يبدو أنه يستطيع رده ، ولو بعد عشرات السنين .. بل حتى لو باع ملابسه كما كتبت « الحاجة زمزم » تنوى أن تفعل فلن يوازى الثمن الدين .. فالجاكتة والطربوش والجلباب والجزمة .. وايضا الفائلة واللباس — بفرض أنه سيمشى بلبوصا كما قالت « زمزم » — لن يستدر من أكرم بائع روبيابيكيا .. أكثر من قرشين ونصف .

ومع ذلك ، فرغم فداحة المبلغ ، والياس من استرداده لم يكن هناك وجه للتراجع .. فهو لم يُتعود أن يعطى كلمة وينقضا .. وهو لا يستطيع أن ينكص على عقبيه بعد ما أبداه من مظاهر الشهامة أمام شرذمة المحدثين فيه .. المراقبين للمعركة من أولها ، وكذلك لا يستطيع أن يعرض نفسه لشحاتة « جاد » و « الحاجة زمزم » .

إذا لا مفر من تحمل الأربعة قروش .

ومضت فترة صمت كان الكل ينتظرون في تحفز قرار « شوشة » .. فشحاتة أفندى قد مد عنقه الممرق ، ورأسه الأشيب الملقى عليه الطربوش المنهار .. ينتظر الحكم عليه في توصل ورجاء .. و « زمزم » تمسك « الشومة » وترفع يدها على أتم استعداد لاسترجاع « شحاتة أفندى » في قبضتها .. لتتزع عنه ملابسه .. و « سيد » متأهب لخوض

غمار المعركة .. مسلط عينية على « حنفي » عدوه الالاد .. حتى إذا
ما أذن للمعركة انتقض عليه .

وأخيرا نطق شوشة بالحكم قائلا :

— حاديكي اللي اتنى عايزاه .. أربعة ساغ .. عشرة ساغ ..
ريال .. جنيه .. أنا قلت كلمه وخلّاص .. سيبي الراجل يروح لحاله .
وهزت « الحاجة زمزم » رأسها في دهش .. ونفخت من أنفها نفخة
سخرية ، وقالت :

— اشبع به .. اهو عندك .. إيدك على الفلوس .

— تعالى نصفي الحساب سوا .. عندك ثلاثين قرش حساب ميه ..
كلت في الجمعه اللي فانت بتلات قروش .. والنهارده بتلاته ..
يبقى حسابي ستة ساغ .. حتى عليهم أربعة ساغ حساب الراجل ..
يبقى الكل عشرة ساغ ، خديها من الثلاثين ، يبقى لى عندك ريال .

وعضت « زمزم » على شفتيها ، إذ ساءها أن تنتهي المسألة بمثل
هذه السهولة ، لا سيما وأنها كانت تعتبر حساب المياه حسابا بيتا لن
يستطيع « شوشة » استرداده .

ولم ينتظر « شوشة » ردا من زمزم ، بل مد يده صاحبها ابنه ،
دافعا عريته أمامه ، وأشار إلى « شحاتة أفندي » قائلا :
— يالله بنا .. السلام عليكم .

وسار الثلاثة مشيعين بنظرات الإعجاب من الزبائن ، وبهمهمة
الحقد والتهديد من « جاد » ، وبتمتعة الدعوات السيئة من « زمزم » ...
وابتعدوا عن الحائوت ، و « شحاتة أفندي » مطرق في صمت ووجوم
وندم .. يحاول أن يلم أطراف فصاحته وشجاعته ليرد على جميل الرجل
الذي أنقذه من براثن المرأة سفاكة الدماء .

وأخيرا من الله عليه بالحديث فقال في صوت خافت :

— عدم المؤاخذه يا معلم .. أنا في غاية الممنونية والخلج .

— ما فيش لزوم .

— سأرد لك الدين فى اقرب غرصة .. لقد طوقت عنقى ، أو على الأصح .. أفلت عنقى بجيبك الذى لن أنساه مدى الحياة .

— لا تتعب نفسك برد شيء ، ولكن خذها عظة .. لا تأكل فى مسمط « زمزم » إلا على قدر نقودك .. وإلا عرضت نفسك للتهلكة ، إن ما فعلته اليوم هو الجنون بعينه .. ما الذى جعلك تغامر بأن تأكل ما أكلت وليس فى جيبك مليم واحد ؟ هل حقا نسيت حافظة نقودك ؟

— طبعا لا .. ليس لدى حافظة نقود ، لأنه ليس لدى نقود ، فالنقود لا تكاد تستقر بين أصابعى إلا لحظات .

— إذا ما الذى جعلك تقدم على ما فعلت ؟

— حسن الظن .

— بمن ؟

— بالحاجة زمزم .

— كيف ؟

— هى التى أغرتنى بكل ما حدث ، هى السبب والله ، كنت أجلس على القهوة فى أمان الله ، وكنت أنوى أن أقضيها بأى شيء ، بطبق كشرى على الحساب ، بلقمة جبنة ، بلقمة حاف ، حتى مرت هى من أمام القهوة .

— هى ؟ من ؟

— الحاجة زمزم ، مرت على الرصيف تتهادى وترجع ، وتهسى ككل الشحم واللحم المتراسة على أراذلها ، وأنا أحب اللحم لا سيما ما تكلل منه فوق الأرداف . ومن أجل الأعمال التى أقوم بها خلال جلوسى على المقهى « البصبصة » ولذا لم تكد تخطر الحاجة حتى بدأت البصبصة .

— بصبصه ؟ .. للحاجة ؟ اليس عندك نظر ؟

— ايدا !! هذه هى المصيبة ، نظرى ضعيف جدا ، شيش ييش ،

لا اكاد اميز إلا الاردا ف المهتزة ، اتصدق أنى بصبفت ذات مره
« للشيخ منصور الفتى » ، وهو يتهادى ألام القهوه بجسده السمين
المربرب ؟ الست معذورا بعد ذلك إذا أنا بصبفت للحاجه زمزم ؟
إنها على الأقل إبرة .

— لا والله .. الشيخ منصور أهون ، أى رجل به أنوثة أكثر منها .
— صدقت ، ولكن أنى لى أن أعرف ذلك ، لقد أبصرت الخطوط
والكحل فى وجهها وطيات الشحم فى مؤخرتها ، فلم أتمالك من التصفيق
بيدى وتلميع الحواجب والصياح فى طرب « يا ميت ندامه على اللى
حب ولا طالشى » وهذه هى طريقتى الدائمة فى البصبة وهى طريقة
مضمونة لا تخيب أبدا ، وبالفعل لم اكد أنتهى من الصياح حتى رنت من
« الحاجه » ضحكه طويلة وغمرت بعينيه وقالت « ولا طالشى ليه ؟ » ..
وأنا فى البصبة حاضر البديهة ، سريع الرد ، إذا لم تسعفنى أغنيه
جاهزه ، أطلقت من رأسى أى شىء موزون . وهكذا أجبته بسرعة :

يا حلو هاجر وغايب قوللى كيف أراضيك

تبعد وتهجر وتنسى تقوللى غين أراضيك

وضحكت المرأة مرة أخرى ، وقالت فى تفاخر « فى مسبط الحاجه
زمزم فى درب عجور على سن ورمح » مسبط !! هكذا مره واحده ،
لقد فوجئت ، وكنت أظنها لا تفرج ، هذا والله صيد ثمين ، أكل وبصبة .
ماذا يريد المرء أكثر من هذا ، وأى أكله .. أكله بشبعه ، لحمه رأس ،
ومبار ، ومخ ، و ... وانطلقت وراء المرأة أتابعها وأجيبها فى حماس
بأبلغ عبارات البصبة ، « يا ميت زيه ، يا ميت قشطه ، هز يا وز »
وهكذا استمررت وراءها حتى بلغنا المسط ، فاستقرت على دكتها
واستقرت على مقعد أمام إحدى المناضد ، وتبادلنا الغزل ، غنوه منى
وغنوه منها ، واحسست كائن فى بيتى ، فلقد كانت طريقته فى الجاوبه
تحمل أبلغ آيات الرضا والترحيب .. أبعد كل هذا تظننى أخشى فى
الأكل لومة لائم ؟

- طبعاً لا .. لقد ظننت « تحت القبة شيخ » .
- وأى قبة .. وأى شيخ ! ؟ لقد خيل إلى أنى لو طلبت كرسيها
هى لما تأخرت .
- يا ساتر .. لا تذكرنى بكرسيها .
- وهكذا وضعت فى بطنى بطيخه صيفى .. وطلبت .. واكلت ،
ونجشأت .. وعند الحساب ...
- دفعت انا .. لا عليك .. تعيش وتلخد غيرها .
- تأخذ انت غيرها ، انا لم أخسر شيئاً سوى الخضه ، ولكتك
انت الذى خسرت ، وهذا ما يؤسفنى أشد الأسف ، والمصيبة أنى لا أعرف
كيف أسدده لك .
- وضحك المعلم « شوشة » وأجاب برفق :
- قلت لك لا تحمل هما ، ما بين الخيرين حساب ، ولكن احذر من
أن تعاودها ، لا تدع الأرداف تجرك مرة أخرى إلى مثل هذا الكمين . هذه
المرّة انتهت سليمة ، ولكن فى المرّة القادمة يعلم الله كيف تنتهى .
- على أية حال لن أنسى جميلك أبداً ، فلو صدق ظنى فى المرّة
الوحيش ، فإنك قد أنقذت حياتى .
- وهنا كان الثلاثة قد وصلوا إلى الدرب الكائن به بيت « شوشة » ..
- فتوقّف الرجل ومد يده إلى « شحاتة » مودعاً ، وهو يقول :
- اتفضل معنا .. نسقيك قهوه .
- كفايه الغدا .. إن شاء الله مردوده ، وخسرك السابق ..
السلام عليكم .
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .
- وقبل أن يدلف الرجل وابنه إلى داخل الدرب هتف الرجل :
- كده ننسى طلب ستك أم آمنه .
- الجبنه والبطيخ ؟

— أجل .. لقد شغلنا شحاته أفندي عنها .
 — أفندي ؟ أما زلت تصر على أنه أفندي ؟
 — ألا يرتدى جاكته وطربوشا وجزمه ، لماذا لا يكون أفنديا ؟
 — إنه نصف أفندي ، فهو لا يرتدى بنطلونا !!
 — بناتقص البنطلون .. انه يبدو عليه آثار عز قديم .
 — أقسم أنه ما رأى العز قط .. إنه فى أحسن حالاته .
 — دعنا منه .. هيا لنشتري البطيخ والجبنه .
 وسار الاثنان بضع خطوات حتى بلغا عربة البطيخ الواقفة على
 ناصية الدرب ، وحيا « شوشة » صاحبها قائلا :
 — السلام عليكم يا معلم أحمد ، نقى لى بطيخة على كيفك .
 وكان المعلم « أحمد » فى حالة هياج لا ينتهى منها أبدا .. ما دام
 واقفا على قدميه ، فهو يدور حول العربة ويربت على البطيخ الواحدة
 بعد الأخرى صائحا بأعلى صوته :
 — حمار وحلاوة يا حلو .. الى فضلوا .. ع السكين يا طيب .
 وقبل أن ينتهى « شوشة » من طلبه كان صاحبنا قد أطبق بكتلى
 يديه على بطيخة وحب فيها سكينه إلى النهاية ثم حركها محدثا شقا
 طويلا وأخرج السكين وضغط على جانبى البطيخة محملا ببصره خلال
 الشق صارخا فى انتصار كأنه فتح عكا :
 — حصوه فى عين اللى ما يصلى ع النبى .. البلدى يوكل حمار
 وحلاوه .
 كل هذا الضجيج و « شوشة » لم ير البطيخة ، ولم يعرف ما إذا
 كانت حمراء أم بيضاء .. ولكته من غرط صراخ الرجل وحماسته لم
 يشك فى أنها حمراء ، وهم بأن يأخذها .. ولكن « سيد » صاح
 بالرجل :
 — ضيبيها ..
 وتردد الرجل برهة كأنها يخشى أن تكشفه عملية التضييب ، ولكن

تردده لم يطل . . وما لبث أن أمسك بالسكين فندفعه فى جوف البطيخة محدثا ثلاثة شقوق أخرى كونت مع الشق الأول مريعا ثم رمى السكين وقلب البطيخة فى كفه الأخرى جاعلا المربع أو التضبيبة إلى أسفل حتى سقطت فى كفه ، فلم تكد تسقط حتى رفعها بكفه إلى أعلى واندفع فى ضجيج المهود :

— احنا بياعين الحلو . . حمار وحلاوة يا طيب .

ثم أخفض يده بقلب البطيخة حتى حانت فمه وقضم منها قطعة . . ثم اندفع يصيح مهللا كأنها لم يذق من قبل بطيخة :

— عندنا الشهد .

ثم أسرع بوضع القلب مكانه ماذا يده بالبطيخة إلى المعلم « شوشة » قائلا :

— حلال عليك . . بالهنا والشفا .

حدث كل هذا بمنتهى السرعة وبين صراخ وضجيج لا يتركان لإنسان فرصة النظر إلى البطيخة أو تبين لونها أو مذاقها . . بل يأخذها واثقا من حمارها وحلاوتها بإحاء من بائعها .

وتناول « شوشة » البطيخة متسائلا :

— بكام .

— خمسه ابيض .

— نص فرنك كفايه .

— والله يا معلم من أصحابها بالاربعة ابيض ، ونكسب فيها تعريفة . . يبقوا خمسه ابيض .

ومد « شوشة » يده بالنصف فرنك فأخذه الرجل وهو يقول :

معلش . . المره الجايه نعوضها .

هكذا كان يقول كل مرة . . فهو لا يكسب أبدا . . ولكنه يعوضها فى المرة القادمة .

وبعد أن وضع « شوشة » البطيخة على العربة اتجه إلى « شيخه البقال » الكائن على الناصية الأخرى من الدرب وقد بدا الحانوت حاويا لكل شيء فهو بقال ومطعم وفكهسانى وحلوانى وخضرى وملحق به صالون حلاقة .

يبدو الحانوت بواجهته الحمراء القائمة أو التى كانت فيما مضى حمراء ثم كسا الزمن حمارها بطبقة سوداء من الأتربة والدخان والزيت والشحم .. وقد سدت واجهة الحانوت بمنضدة (بنك) مصنع بالصاج ووضعت عليه قدرة فول ورصت بجوارها الارغفة وبداخل رصت علب السردين والقونة وقطع الصابون الأحمر والأبيض وعلب الزهرة وورق الملح وعلب الحلوى الصفيح ، وتوسطت الحانوت منضدة مقسمة إلى عيون وضع فى إحداها الحلاوة الطحينية وفى الباقى الجبنة البيضاء والزيتون والجبنة الرومى وأسفل المنضدة صفيحة بها طرشى أفرنجى وصفيحة بها زيت ويرميل خل ، وفى ركن الحانوت رصت بعض زكائب حوت مختلف البضائع كالزرز والعدس والملح الخشن ، وفى الخارج رصت بقية الزكائب وقد وضع بجوارها قفص عليه طبق به ليمون وكرات وفجل وقفص به بلح أمهات ، وعلى الحائط أسندت بضعة أعواد من القصب ، وفى الجانب الآخر من الحانوت صندوق كازوزة رصت الزجاجات فى أعلاه ووضعت الواح الثلج فى باطنه ، وعلى الرصيف بجوار صندوق الثلج استقر صالون الحلاقة مفترشا الأرض ، وقد جلس صاحبه الأسطى « عيد » مزين « درب عجور » النقالى .

والقى « شوشة » التحية على الجمع المحتشد أمام الحانوت :

— السلام عليكم .

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وتعالت التحيات المتناثرة من هنا وهناك :

— أهلا وسهلا .

— ازيك يا معلم شوو شه .

— فينك من زمان ! ؟

وبعد أن أجاب « شوو شه » و « سيد » بما تيسر من الردود
قال « شوو شه » للمعلم شيحة :

— وحياتك تدينى حته جبنه حلوم بقرش .

وعقب « سيد » على قول أبيه :

— واتوصى . . دى لخالتك أم آمنه .

— واحنا لنا بركه إلا هى .

وتسلم « شوو شه » الجبنة فسلمها لسيد ، وسار الاثنان متجهين
إلى البيت .

ماسورة معدنية موضوعة فى اعلاه وموصلة بين خارجه وداخله ،
يضع الشارب فمه عليها ويشفط فتندفع المياه فى فمه .

وثانى تلك المغريات شجرة التوت الضخمة القائمة بجوار السبيل
والمادة فروعها لا لتظلل السبيل وحده بل لتظلل الدرب بأجمعه .

والدرب لا يزيد على بضعة بيوت على اليمين واليسار وبيت فى
المواجهة يستقر أمامه السبيل والشجرة ، وسكان الدرب هم أنفسهم
أصحاب الحوانيت الكائنة فى خارج الدرب . مثل « الخشت الجزار » ،
و « زين الخضرى » ، و « شيحة البقال » ، و « عيد المزين » ، و « أحمد
الفكهانى » ، يزيد عليهم بضعة سكان آخرين من أصحاب الصنعة مثل
« محمود مسطرين » البناء ، و « على الحمى » المبيض ، وحسين
القرداتى ، وهم كلهم تلمهم أوامر الجيرة فتجعلهم أشبه بأسرة واحدة
يجمعها فى السكن درب القط ، وفى الماكل مطعم الأبرأ أو « مهبط
زمر » ، وفى التسلية مقهى « قدورة » الكائن فى شارع البغالة .

وبيوت الدرب عتيقة رثة حطت عليها كف البلى والقدم ، فهى
مشقة الجدر مفتحة البياض ، يخال الناظر إليها أنها توشك أن تنقض ،
والدرب لا يخلو من مظاهر القذارة والفقر التى اتسمت بها غيره من
الدروب فى تلك الأحياء الوطنية ، وإن كان يميزه عنها تلك الشجرة
والسبيل المستقران فى نهايته واللذان يخلعان عليه شيئا من الرونق
يمحو إلى حد ما أثر عروق الملوخية المتناثرة أمام إحدى دوره وبقايا
تصفية الطماطم من قشر وبذر وفضلات طعام وقشر بصل أمام الأخرى .

بوجه عام كان « درب القط » له رونقه الخاص لا سيما فى نفوس
« سيد » وأصحابه ، أما بيت « سيد » فهو لا يختلف كثيرا عن بقية بيوت
الدرب . . وكان يتكون من طابقين : الطابق الأول من الحجارة ، والثانى
من خشب البغدادلى الظاهر فى بعض نواحي الجدران فى المناطق
التي تساقط بياضها ، وباب البيت خشبى غليظ بنصنه الأعلى تضبان

الفصل الثالث

معركة فى درب القط

لنتتبع الرجل وابنه وهما فى طريقهما إلى البيت ولنتوقف برهة فى الدرب ولنتقم خلال ربوعه بجولة قصيرة . يقع البيت فى « درب القط » وهو درب صغير متفرع من « درب عجور » الرئيسى الكائن به « مسقط زمزم » و « جزارة الخشت » ، ومحل « زكى زين الخضرى » ، وصف من الحوائث ينتهى ببقالة « شيحة » الواقعة على كلا الدريين « درب عجور » و « درب القط » .. وإن كان بابها الكائن على الدرب الأخير لا يفتح أبدا .

و « درب القط » درب ضيق يكاد السائر فيه يلمس أجنابه لو مد ذراعيه بحذاء كتفيه ، وهو غير مرصوف ، أرضه طينية محكوكة مرطوبة ، مسدودة الواجهة لا منفذ به ، فهو والأمر كذلك غير مطروق إلا لساكنيه أو للباة المتجولين الذين يدخلونه فيطلقون نداء أو نداءين مثل « حبشى يا ملوخي » أو « لا تين ولا عنب زيك يا خسانى يا أمهات » ثم ينصرفون عنه إذا لم ينادهم أحد .

وهو أشبه بفناء خاص منه بطريق عام ، ويعتبر ملعبا لأهل الحى من الصبية ، فهو مأمون من العربات ، بعيد عن المارة ، وبه من المفريات ما يجعله مقصدهم وملجأهم .

وأول هذه المفريات وأهمها السبيل الحجرى الكائن فى الواجهة المسدودة ، وهو عبارة عن خزان من الحجر ذى صنوبر لا يزيد عن

حديدية ورائها ضلفة زجاجية كسرت وسقط عنها زجاجها منذ آمد بعيد ، والباب مفتوح على مصراعيه ، بلا أمل فى غلقه ، فقد تراكمت الأتربة حول أسفله حتى أضحى مدفونا فى الأرض ، ولم يعد يتبين حده السفلى فبدأ كجذع الشجرة نابتا من الأرض ، والباب لا لون له . . والواقع أن البيت كله . . بل الدرب كله لا لون له . . أو هو بلون الأرض إذا كان للأرض لون .

وعلى الباب والجدران كتب الصببة كل ما يخطر بذهنهم من الكتابة من هجاء ومديح وإعلانات وآيات قرآنية وأسماء وأغنيات ، وإن كانت الجمل الغالبة فى كل هذه الكتابات هى « سيد جدع » ، وواضح أن كاتبها لابد أن يكون « سيد » نفسه . وفى أعلى الباب ، وفى الناحية اليمنى منه وضع رقم البيت أو ما كان فيما مضى رقبا ، ثم انمحي بفعل حجارة الصببة عند مبارياتهم فى التنشين وإصابة الرقم .

فإذا تجاوزنا الباب وجدنا مئذنة رحبا بعض الشيء أو رحبا بالنسبة لضيق الدار ، وصادفنا فى مواجهته ، ومن ناحية السلم عجوزا متشددة بالسواد تتربع على حجر مستطيل مطرقة فى وجوم وشروود ، وقد اتكأت بخدها المجدع على راحة كفها اليسرى ومطبقة بمرفتها على ركبتها وأمسكت بيدها عصا من الجريد تحركها يمنة ويسرة بين آونة وأخرى وأمامها فى منتصفه الفناء أوزتان تنقران بمنقارهما هنا وهناك ، وفى حديد الدرابزين ربطت « ماعزة » تطلق صيححتها الممدودة بين آونة وأخرى فتبدد سكون الفناء .

وسمعت العجوز وقع الأقدام وقرقرة العجل على الأرض ، فرفعت رأسها ، ثم حولته نحو الباب ، ولكن عينيها لم تثبتا على شيء بل أخذتا تترجرجان فى مقلتيها . كانت العجوز ضريرة .

ومع ذلك فلم تكن تخطئ قط وقع أقدام رجلها ، كبيرها وصغيرها ، « شوشة » و « سيد » : زوج ابنتها ، وحفيدها .

ودفع « شوشة » العربية في جانب الفنان واقترب من العجوز
 « أم آمنة » منحيا الأوزتين جانبا وقال بلهجة رقيقة :
 — العواف يا أم .. جبت لك الجبنة والبطيخ .
 — يعافيك يا ابني ، إن شاء الله ما اعدمكش . احضر الطبلية ؟ .
 ست « أم على » مرات الحاج محمود عامله بصاره وقالت انها حاتبت
 لنا طبق . اطلع يا سيد هاته .
 — احنا كلنا ، سبقناك عند الحاجه زهم .
 — بالهنا والشفا . وتعبت نفسك ليه بالجبنة والبطيخ ؟ كنت اقضيها
 بأي حاجه ؟

— دي حاجه بسيطه يا أم آمنة .. تدخلى تاكلى جوه ؟
 — خلينى هنا في الطراوه .
 — هات الطبلية لستك يا سيد .

— وعلى إيه طبلية . ادينى لقمه فيها حته جبنة وشقة بطيخ .
 وانبرى « سيد » إلى الداخل وبعد لحظة عاد بالطبلية فوضعها أمام
 جدته وفي نفس اللحظة سمع وقع أقدام « مبقاب » يقرع أرض السلم
 الحجري هابطا من الدور العلوى ، وما لبث القوم حتى أبصروا « زكية »
 بنت « المعلم خشت » تنهady حاملة « طبق البصارة » قائلة :
 — العواف يا جماعة .. الطبق اهه يا خالتي الحاجه .
 واجابت أم آمنة شاكرة :

— كتر خيرك يا اختى . ليه التعب دا كله ، خلوه للعشا بقى .
 ونساءلت زكية :
 — ليه يا خاله ؟

— عمك شوشه وسيد اتغدو .
 — طيب ما نزل ناكل سوا .. ابويا متغدو هي الدكان وأخويا في
 الكتاب .. مفيش غيرى اتا وامى .. اما اقول لها تنزل تفتح نفس
 بعض .

ثم صاحبت تنادى أمها :

— أم .. أم .

وأجابتها « أم على » من أعلى السلم :

— إيه يا زكية ؟

— خالتي أم آمنه حتاكل لوحدها ما تجيبى الغدا وتنزلى ناكل معاها .

— طيب يا بنتى ، نازله حالا . حتى الطبق عندك وتعالى خدى

مقيت الحاجه .

وبعد لحظات كان السباط قد مد فى الفناء وقد التف حول الطبلية :

أم آمنه ، وأم على ، وزكية .

وكان الثلاثة حول الطبلية يمثلن الطيبة المصرية الأصيلة والكرم

الطبيعى غير المفتعل ، كرم الفقير وجود بالقلة حتى يصير معدما .

كانت « أم على » زوجة « المعلم خُست » وابنتها « زكية » يعتبران

نفسيهما مسئولتين عن راحة « أم آمنه » .. كأنها أمهما . والواقع

أن العجوز الطيبة كانت تبدو وكأنها أم لكل من فى الدار ، بل كل من فى

الدرب ، فما سمعها أحد ذات مرة تغتاب إنسانا أو تعيب فى جار

أو جارة ، وما خرجت من فيها إلا الدعوة الصالحة ، أما دعوة السوء

فكانت تستبدل بها دائما قبل أن تغادر شفتيها « الله يسامحه » وكان

قلبها يعفو قبل أن تعنو شفتاها .

كانت العجوز حلوة الخديث ، لطيفة المعشر ، سديدة الراى ، مخلصه

النصح ، شديدة القناعة ، كانت تشعر بأن عماها عبء على من حولها

وهى التى تعودت دائما أن تحمل عبء الجميع ، ولذلك لم تكن تحاول

أن تطلب شيئا حتى لا تزيد من عبئها ، بل كانت تحاول أن تقوم بأقصى

ما تستطيع به من خدمات لمن حولها .

كان « سيد » أشد الناس حبا لها ، كما كانت هى تخصه بأكبر قدر

من عطف قلبها الكبير ، وحب نفسها المعطوفة الحنون .

كانت هى لا تقتنا نقدم إليه كوب اللبن الذى تحلبه من الماعزة ، وكان هو لا يفتأ يجمع لها قشر البطيخ من الدور الجاورة لتخرطه لأوزنيها ، وفى كل ليلة قبل ان يذهب للنوم ليرقد بين احضانها .. كان يجلس بجوارها مصفيا لاقاصيصها الممتعة التى لا ينضب لها معين .

وكان كثيرا ما يحلو للصبي أن يقارن بينها وبين « الحاجة زمزم » .. بين النقيضين المجبيين . ويسائل نفسه : كيف يكون خالق الاثنتين ربا واحدا ؟ كيف يكون صانع هذه الكتلة من الخبث والشر والاثانية والحق . هو نفسه خالق هذا الجدول المنعم بالطيبة والوفاء والتضحية وانكار الذات ؟

وما فائدة حج بيت الله لمثل الحاجة زمزم ؟ .. وايهما افضل : زمزم مع سبعين حجة أم أم آمنة بلا حجة واحدة ؟

وانتهى الثلاثة من الغداء وكان « شوشة » قد توشأ وصلى وتهدد على فراشه فى إحدى حجرات الدار الثلاث .

ورفعت « زكية » الطبلية ، ووضعت بقايا الاكل ، امام الماعز والأوزتين .

وارتفع صوت « سيد » من الداخل متسائلا :

— يام .. انت شيلتى كيس البلى من تحت المخده ؟

وأجابه صوت أم آمنة .

— شوفه عندك تحت المرتبة يمكن اكون حطيته بعد ما نفضت

المخدرات .

وعاد الصوت يجيب ضاحكا :

— أهوه .. لقيته .. خضتني يا شيخه .. افكرته ضاع بكنته حاتبتى حكايه ، وأنا ناوى النهارده اشولهم كلمهم .

— انا جببتك نيكل يعجبك قوى من محمد بتاع الرويابيكي .

— هو انين ؟

واقبل « سيد » يعدو فى لهفة مكررا :

— فین هوا ؟

— أهو .. إيه رأيك بقى ؟

— يا سلام يام ! مدهش .. انت لازم كان أصلك زمان لعبية

بلى .

وجلست النساء الثلاث فى الفناء تتجاذبن الحديث والأقاصيص .

واستلقى « شوشة » فى فراشه فى الحجرة المعتمة محدقا فى

السقف ذى العروق الخشبية الهابطة من المنتصف تحت ثقل السقف

والإعياء من مر الزمن . وأخذ ينقل بصره بين العروق الخشبية والجدران

الحجرية المشققة ، وقد شرد ذهنه فى حساب القرب التى وزعها ..

خمس وأربعون فى السراية . اثنتا عشرة عند أم عبد الله .. خمس عشرة

فى بيت الحكيم .. وعشر فى بيت السبكنى .. وثلاثون فى المطعم ..

و .. و .. وأغمض عينيه وراح فى إغفاءة .

وفى الوقت نفسه كان « سيد » قد أخرج البلى من تحت المرتبة

وفرشه فوقها وجلس يحصيه واحدة واحدة .. لقد كسب فى أسبوع

ما يقرب من مائتى بلية .. كان كل ما يملك عشر بليات ، والآن قد

أضحى معه ما يزيد على الثلاثمائة .. واليوم إن شاء الله سيزيدهم

إلى أربعمائة .. فهذا النيكل الذى أحضرته له « أم آمنة » من بائع

الروباييكيا سيقتش جيدا .. ستكون اليوم معركة كبرى ، ولكن الخوف

من ألا يقبلوا هذا النيكل . على أى حال لديه نيكل آخر أصغر منه ..

أين هو ؟ لقد وضعه فى الكيس .

وصاح « سيد » مناديا بأعلى صوت :

— أم .

وأجابته أم آمنة مهدئة :

— وطى صوتك يا سيد لحسن أبوك زمانه نام .

واقبل عليها « سيد » يسألها بصوت منخفض :

- فين النيكل القديم ؟
 — وعائزه ليه القديم ؟
 — يمكن ما يرضوش اللعب بده .
 — ليه ؟ ماله ؟
 — كبير قوى .
 — القديم خده الراجل .
 — يا نهار اسود .. وايه العمل ؟
 — ولا اسود ولا ابيض ، استنى لبكره وانا اجيبهولك منه ..
 أهو بيفوت كل يوم .
 — استنى لبكره .. انتى مجنونه ؟ اللعب النهارده .. الساعه
 أربعه .. انتى فاكراها إيه ؟
 — وانا ايش عرفنى ان اللعب النهارده .. وانهم مش-حايروضوا
 بده ؟ انت مش قتللى انك نفسك فى نيكل كبير ؟
 — آه .. لكن ما هو الخوف لا ما يرضوش بيه ..
 — يمكن يرضوا .. على العموم خش دور فى صندوق الكراكيب
 اللى جنب القرب القديمه والسطايح يمكن تلاقى نيكل والا بنوره .
 وعدا « سيد » إلى صندوق الكراكيب والذي جميع فيه « شوشة »
 القرب القديمه وبعض انتقاض وأشياء لا نفع لها .
 وبعد برهة انطلق « سيد » من الحجرة المتربة المظلمة وهو يصيح
 فرحا :
 — لقيتها .. بنوره مدهشه .. فاكركه ؟ مش كنت قلت لك من
 شهرين كذا ان بنوره ضاعت منى .. اهى هى دى .
 — الحمد لله .. هدى بالك ؟
 — انا خارج بقى .
 — يابنى اتعد استريح .. استهدى شويه ، دا العفارىت بيتيلوا ..
 — وانا عفريت ؟

— العن .. اقعد الدنيا حر .. لما الشمس تهذا شويه .. دا المثل
قال اتغدوا واتهدوا .

— أيوه اتعدى طول النهار انتى قولى لنا فى أمثال .. فيه حاجه
اسمها اتفدى واتهدى .

وانطلق « سيد » من باب الدار إلى السبيل والتوته .

وكان أول ما فعله هو أن مد فمه على البوز المعدنى وأخذ يشفط حتى
اندفع الماء فى فمه فأخذ يتسلى بالشرب . وتلفت حوله علـه يجد أحد
الصبية من الصحاب قد أتى .. فلما لم يجد أحدا بدأ يتسلى بتسلى
التوته ، وفيما هو يجلس على أحد فروعها لمح « ددق الحمى » ابن
المعلم « على الحمى المبيض » وهو يحمل طبقا من العسل والطحينة
ويتجه إلى بيته ، فاطلق صغيرا طويلا بوضع سبابتيه فوق لسانه المثنى
داخل فمه .

وعرف ددق الصغير فتوقف والتفت تجاه السبيل ولما لم يجد أحدا
هم بمتابعة السير ولكن سيدا صاح به ضاحكا :

— أنا هنا يا ترل .. فوق الشجرة .. رايح فين ؟

— حاودى العسل والطحينة البيت .

— طيب وديهم وتعالى قوام وما تنساش البلى بتاعك .

— حمامه .

ولم يكذب « ددق » فى قوله « حمامة » فما نظن الحمامة كانت
تستطيع التخلص من طبق العسل والطحينة والعودة إلى « سيد بمثل
هذه السرعة .

وكان أول ما فعل سيد هو أن أبرز النيكل الجديد فاذنبا إياه فى
الهواء بإعجاب متناه ثم تلقفه بحركة ماهرة قائلا :

— شفت ده ؟

— إيه ده ؟ .. حاطعـب بيه ؟

— أيوه .

— ليه ؟ هيه فته ؟

— ماله ؟ لمعبش بيه ليه ؟

— ابتى العب بيه لوحك .. ده نيكل .. والا جله حديد ؟ !
لا يا عم يفتح الله .. انا مروح اودى البلى بتاعى انا مش مستغنى عن
نفسى .

— اتعد ما تبقاش مره .

— لا يا عم .. اذا جت لحد النيكل بتاعك .. انا مره وابن مره
كما .. اوعى خلينى اروح .

— طيب اتعد بس خلينا نتكلم .. هى الدنيا طارت .. بلاش النيكل
الى مخوفك ده .. ايه رأيك فى البنوره دى ؟ تنفع والا لا ؟
— ايوه كده .. معقول .

— طيب وإذا لعبنا شركا ينفع النيكل والا ينفعشى ؟

— ينفع اوى .

— طيب لما أطلعاه قدام زكى وحريشه وعبد الله وبقيت الولاد ..
ابقى اسكت انت .. واحنا نلعب شركا .. بس اسمع اما اتقول لك ...
وقطع عليهما حديثهما صفير صادر من ناحية الدرب ، ثم صوت
رغيح حاد يصيح قائلا بلهجة طويلة منغممة :

— سيد يا ويكا .

وانطلق صفير « سيد » مجاوبا الصفير وعلا صوته مجاوبا النداء
صائحا :

— حريشه يا ويكا .

وأقبل « حريشة » يعدو ويقفز من أول الدرب حتى وصل إلى
السبيل فجلس على الحجر الذى افترشه زميلاه . وكان أول ما تاله
« سيد » هو سؤاله :

— فين زكى امال ؟

— فى الدكان .

- ليه ؟ .
- المعلم سلامه ما رضيش يسبيه .
- وانت جيت ازاي ؟
- قاللى روح هات بقرش كرات فخذت بعضى وثنى جاى على هنا .
- والكرات ؟ .
- بعد اللعب يحلها ربنا .. امال فين الباقى .. فين عبد الله المعيرجى وعلى الخشت ؟
- زمانهم جايين .. لسه مخرجوش من الكتاب .. شفت النيكل ده ؟
- وقذف النيكل فى الهواء ، وصاح حريشة مستنكرا :
- يا خبرك اسود .. ده نيكل ده ؟ . دا لو شافه المعلم سلامه يدق بيه الطعميه .
- يعنى ما ينفعش ؟
- ينفع والا ما ينفعش ، انا مالى يا عم .. انا معايش ولا بليله .
- امال جى تثيله ايه ؟
- انا مش قلت لك الصبح .. قلت حا اسلفك .
- وتردهم امتى ؟
- اما ربنا يعطينا .
- وامتى ربنا حا يعطيك ؟
- اسأله .. اهو قدامك . .
- اسأله انت .
- وانا مالى .. هوا انا اللى حاخذ البلى ؟ .. اللى حايبعتوا —
- إذا بعت — ابقى خده .
- طيب بلاش غلبه .. خد .. آدى خمسه .. عشره .. خمستاشر ..
- عشرين .. كفاياك كده ؟
- هات كفا عشره .

— وادى كمان عشره .. إيه رايك بقى ؟ ! تخلىنى العب بالنيكل ده ؟
 — ليه ؟ مجنون ؟ اضيع البلى بتاعى ؟ شوف لك نيكل غيرد
 والا أروح .
 — إيا ضلالى .. احنا مش اتفقنا ان انا اسلفك والعب بالنيكل
 اللى يعجبنى ؟
 — ما اتفقناش ولا حاجه .
 — تنفع البنوره دى ؟
 — أهى تمشى .. ياللا بينا .
 — استنى شويه أما ييجى الباقي .. وهوا دا يبقى لعب ده ..
 لما اكسب التلاتين بليه اللى انا مديهم لك ، والتلاتين بليه اللى حيلة
 الواد ددقق ، استنى لما ييجى الخشت والمعيرجى دول تلاقىهم متريشين -
 وحالتهم نجف .
 وقبل أن يجيبه حريشة .. ظهر على الخشت ومحمود زين ومحمد
 مسطرين ، وقد اقبلوا من باب الدرب يعدون بالجلاليب والصنادل
 والطرابيش ، وقد أمسك كل منهم لوحه الصفيح بيده .. ولم يك
 يراهم سيد حتى قفز واثبا وصاح فيهم :
 — ياللا يا وله منك له قوام ، احنا مش فاضيين لكم .
 ولم تمض لحظة قصيرة حتى كان زين ومسطرين قد قذفوا بلوحيهما
 وطربوشيهما ، وخلصا صندليهما ، واقبلا يعدوان وكل منهما يشخشيخ
 بكوم البلى فى جيب الجلاب .
 وهكذا أنظمت عقد الصبية : سيد ، وددقق ، وحريشة ، ومحمود ،
 ومحمد ، ولم يبق سوى على الخشت الذى طالعت غيبته فى الدار ،
 وعبد الله المعيرجى الذى لم يبد بعد فى الدرب .
 وانطلق « سيد » يستعجل « الخشت » وكان يقطن فى نفس دارهم
 فى الطابق الاعلى ، ولم يكذب يبلغ الفناء ، حتى سمع صوت صياح « على »
 وهو يقول فى عناد :

- حاخده .
- إياك .
- والنبي لانا واخده .
- يا واد سيبه . ابوك ما عندوش غيره ويمكن يحتاجه في مشوار كده والا كده .
- ده مقطع .. ومهر يد .
- أديني قولتك سيبه ، وخلص .. أما أشوف حاتسمع الكلام والا لا .. حاكم انت ما تجيش بالنوق أبدا .
- ايه هوا ده .. هوا انتي كل حاجه لا لا .. والله لانا واخده ، واعملی اللى تعملیه .
- والنبي لو خدته لاتزل أعجك ، أديني قولتك أهو ، امشى انجر .. هوا انت كل يوم لك هليله ؟ ! لازم تفرج علينا الجيران وجبران الجيران ، هوا ما فيش في الحته اولاد غيرك ؟ ياخي جاتك ناييه .
- حاخده .
- برضك بتقول حاخده ؟
- أمال لعب بايه ؟
- أنت مش اببارح لسه واخذ واحده ؟
- عملتها وضاعت .
- وعلى كده لازم لك كل يوم فردة ، تعملها وتضيمها .
- ووقف « سيد » يستمع إلى المناقشة ، وقد ضاق صدره ، واخيرا جذب « على » من يده وصاح به :
- ياللا يا أخى بلاش تضییع وقت .
- اسكت انت ، لازم آخدها .
- ايه هيه دي اللي لازم تلخدها ؟

- بقول لها حاخذ فردة شراب من بتوع ابويه ، عشان اعمل كوره شراب ، مسخسراها قيه .
- يا أخى مش وقته ، احنا مش حانلعب كوره النهارده حانلعب بلى .
- لا .. انا حانلعب كوره .
- يا على يا خويه ، ما تبقاش زى الشريك المخالف .. احنا كلنا حانلعب بلى .
- انا حانلعب كوره .
- وحذك ؟
- وحدى .
- ما تبقاش تلم ، خلى لعب الكوره لبكره ، ما جبكش النهارده .
- ولم يجبه الخشت ، بل عاد يصيح بامه :
- احنفى الشراب يا ام .
- واجابت امه ، وقد نفد صبرها :
- يا واد اسكت بقى وجعت دماغى ، امشى بالنى هى احسن .
- امشى لاهسن انزل انصصك ، اصحى لو مسكتك مش حاتمستك عافيه .
- احنفى الشراب يا ام .
- وهنا سمع وقع اقدام « ام على » تهبط منقضة .. وكانت « ام آمنة » قد جلست فى الفناء تنصت إلى المعركة .. وشمت من وقع اقدام « ام على » بواذر خطر ، فلم تجد بدا من التدخل فصاحت بعلى :
- تعالى ياخويا خذ فردة شراب عندى امى .
- ثم نزعته من إحدى ساقبها فردة شراب .. كانت تقيها الروماتزم ، وقالت لام على :
- مذهبش لزوم يا ام على .. اتصرى الشر ، كلهم كده دماغهم نائسه .
- واخذ « على » فردة الشراب وانطلق يعبو من البيت هاريا .

ووصل الاثنان « على » و « سيد » إلى السبيل حيث بقية الثلاثة .
وصاح على :

— عايزين شوية شراميطة نحشى بيها الشراب .
وصاح « سيد » وقد نفذ صبره :

— يا على يا خويه مافيش لزوم النهارده للكور ده !
— يا أخى انت مالك ومالى .. إذا كنت عايز تلعب بلى اللعب وحدك ..
انا حالعب كوره .. من فيكو يحب يلعب كوره معايا ؟
وانقسم الجمع قسمين : دقدق وحريشة فى جانب سيد ، ومسطرين
وزين فى جانب الخشت .

وزاد حنق سيد فقد وجد أن الجانب السمين الذى به كل الفائدة
على لعب البلى قد انحاز إلى على ، وأنه لو استمر فى عناده فلن يكون هناك
فائدة فى اللعب ، وأن أقصى ما يمكن أن يربحه هو الثلاثون بلية التى
يملكها دقدق الغلبان .

ووجد أن اللين والرفق أجدى عليه ، فقال لعلى فى رقة ظاهرة :
— يا سيدى ما تزعلش بدل ما نقسم البلد نصين نمشى رايك ورأى
.. نلعب كلنا كوره سوى وبعد ما نخلص من الكوره نلعب كلنا بلى .
— أبوه كده .. مستعد .. يا الله نعمل الكوره .
— اصبر شويه وأنا أجيبك شويه شراميطة .

وانطلق يعدو إلى البيت فوجد أباه قد ارتدى جلبابه النظيف وهم
بالخروج لقضاء بعض المصالح والجلوس على مقهى قدوره .
ولحه أبوه وهو يحمل بعض الخرق فصاح به :
— على مين ؟ . حاتعمل آيه بدول ؟

— حاتعمل كوره شراب .
ثم انطلق إلى السبيل .

وكان « سيد » ماهرا فى كل شيء .. ويدخل ضمن نطاق مهارته
.. صنع الكور الشراب .

ودفع الخرق فى قاع الجورب ودكها جيدا ثم ربط الجورب. وتلبه حولها وأخذ يقرعها فى حجر السبيل حتى تزداد صلابة ونكا . وعاد يربط الجورب مرة أخرى ويقلبه . واستمر يضرب ويربط ويقلب حتى انتهى من عمل كرة كبيرة مستديرة صلبة ولم يبق سوى تخطيط حافة الجورب من أجنباه .

وتطوع « دقدق » بسرقة إبرة وخيط ، وانتهت العملية وبدأ الاستعداد للعب .

وصاح « سيد » متسائلا :

— حا تلعبوا بالرجل والا بالايدي ؟

وصاحت الأصوات .. بردود متناقضة « بالرجل » .. « بالايدي » ، « بالرجل » ، « بالايدي » .

ولكن « سيد » كان ينتظر القول الفصل من صاحب القول الفصل وهو « على الخشت » .. فقد صمم على احترامه ومداراته حتى يزج به فى لعب البلى ويربح منه ما تيسر ربحه .

وقال « على الخشت » فى ثقة واعتداد :

— بالايدي .

— يالله نقسمها .

وصاح دقدق :

— « سيد » تصاد على .

ولكن « سيد » لم يكن يود أن يدخل فى خصومة مع « على » قبل البدء فى لعب البلى ، ولذا فقد فضل أن يكون فى جانبه رغم رغبته الدائمة فى تحديه .

وقبل « على » التحدى وقال :

— نط قصادى .

ولكن « سيد » قال متخابئا :

— لا يا عم .. شوف واحد قدك ينط قصادك .

وسر « على » من هذا التراجع ، وصاح متفائرا متحديا :

— ما فيش فيكو جدع ينط تصادى ؟

وفقر « دقدق » أمام « الخشت » صائحا :

— ليه جميص ؟ . أنا تصادك .

ووقف كل منهما تجاه الآخر ثم أخذا يقتربان ببطء وقد وضع كل منهما قدمه أمام الأخرى ، وظلا يقتربان بالتناوب ، ولصق كعب قدمه على أصابع الأخرى ، وظلا يقتربان حتى انتهت المسافة بينهما ، وكان « دقدق » آخر من وضع قدمه فصاح :

— أنا حاختر .

— اختار .

— اخترت سيد .

قالها بفوز وظفر ، ولكن « سيد » وجد أنه سيصبح بهذا الاختيار الغبي خصما لعلی ، وكاننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .

فصاح بدقدق ناهرا :

— شوف لك واحد تاني .. بلاش مرازيه .

وفوجيء بدقدق برفض سيد زمالته فصاح به في غضب :

— عنك ما جيت .. يعني القليعه .. اخترت زين .

وصاح على :

— اخترت سيد .

وابنسم « سيد » مرحبا :

وصاح بدقدق :

— اخترت حريشه .

— اخترت مسطرين .

ولم تكد التقسيمة تنتهي حتى سمع في أول الدرب صفير طويل ، وبعد لحظة ظهر عبد الله المعيرجي يعدو بأقصى سرعة ، وهو يصيح باللهجة ذات اللحن والنغم :

- سيد يا ويكا .. حريشه يا ويكا .. خشت يا ويكا .. الخ .
وبعد لحظة كان يقف بينهم لاهنا ، وهو يهز البلى فى جيبه قائلا :
— مين يلعب ؟
وقال له سيد :
— احنا حانلعب كوره شويه وبعدين نلعب بلى .
— زى بعضه .. اللعب معاكم .
— بس مالکش محل .. عشان احنا قسمنها ثلاثه قصاد ثلاثه .
— لكن انا لازم اللعب .
— شوف لك زميل .
— واجيبه منين ؟
وضاق صدر « سيد » فصاح به :
— ياتشوف لك زميل يا تتنيل تقعد لغاية ما نخلص .
— اتنيل انت .
واو كان « سيد » فى غير هذه الظروف لما تردد فى ضربه ، ولكنه
كان يريد ان ينتهى لعب الكرة على اية حال حتى يبدأ لعب البلى ،
ولذا فقد كظم غيظه وقال له فى رفق :
— الله يسامحك ، خش اللعب بدالى ، انا مش حالعب .
وتأثر « عبد الله » برد « سيد » فقال له :
— ما ترعلش يا سيد . اللعب انت .. انا حاستنى .
— لا والله لانت اللى لاعب .
— مش ممكن .. انا حاتمعد اتفرج .
وبدا اللعب بعد ان انتقوا قطعة حجر صغيرة وضعوها على جانبها
لتكون « ميس » وكان « تيم » سيد وعلى هو « التيم » الذى سيقف
بجوار الميس وليبدأ اللعب .
وامسك على الكرة وصاح : « اول سنو » ثم رجع الكرة بيده
الى اليسرى الى أعلى وضرب إلى الامام باليمين .

وكانت الضربة عالية فتلقفها « حريشة » قبل أن تسقط إلى الأرض وصاح مهللاً :

— انزل .

ونظر « سيد » إليه فى غيظ ، ثم قال لعلى مؤنباً :

— ما كائنش حقا تضربها علىوى كده .

ونزل « تيم » سيد ليتلقف الكرة ووقف « تيم » حريشة بجوار الميس ، ثم بدأ حريشة الضرب صائحاً :

— اول سنو .

واندفعت الكرة مقتحرجة على الأرض حتى لا تعطى « التيم » الآخر فرصة لتلقفها ، وأمسك على بالكرة يصوبها نحو الميس ولكنها أخطاته ممرت بجوار الحجر دون أن تصيبه .

واستمر « تيم » حريشة فى اللعب : تانيه سنو .. ثالثه سنو .. أول شكّا .. تانيه شكّا .. ثالثه شكّا .

كل ذلك و « على » يستولى على الكرة ، يدفعها كل مرة نحو « الميس » فتخطئه حتى بلغ « التيم » أول دقو .. ثم أول ودنو .. وأول كحككو .. وهنا لم يطق « سيد » صبراً فقد كادت القلبة تتم وثال لعلى نه رفق :

— ادينى الكوره اضربها المره دى .

واعطاه « على » الكرة ، ولم يحاول « سيد » أن يخرجها بتان حتى يضمن الإصابة ، بل أمسك بها ، ثم قذفها بعنف قذفة عالية جعلت الكرة تهبط على الميس بإصابة مباشرة أطارته من موضعه .

وهكذا قلب انتصار « تيم » حريشة إلى هزيمة ، واحتل « تيم » سيد مرة أخرى « الميس » .

وبدا « سيد » اللعب بسرعة ، ونى بضع دقائق كان قد وصل إلى « كحككو » ، وانتهى الدور بنصر تام .

وصاح سيد :

— بالله بينا على البلى . ارسم الترنجيلة يا حريشه .
 وأسرع « حريشة » بقطعة حجر ، فخط بها « الترنجيلة » فى
 الأرض راسما مثلثا متساوى الاضلاع .. وعلى بعد بضعة خطوات
 منه رسم « اللين » أى الخط الذى يبدعون منه اللعب .
 ووقف الجميع حول « الترنجيلة » وصاح سيد :
 — تلعبوا كام ؟
 واحامه على الخشت :
 — خمسة .. خمسة .
 — وجب .. خمسة خمسة .
 وأخرج خمس بليات من الكيس فوضعها داخل « الترنجيلة » ،
 وحذا الباقي حذوه فامتلا المثلث بالبلى . ثم بدعوا يقذف كل منهم النيكل ،
 وهو واقف بجوار « الترنجيلة » فى اتجاه « اللين » ليروا من منهم
 اقرب إلى « اللين » حتى يكون البادىء باللعب .
 وعندما حل دور « سيد » قذف النيكل الكبير ببساطة فى اتجاه
 « اللين » ونظر خلسة إلى زملائه ليرى تأثيره عليهم ، ولكنه لم يكن
 فى حاجة إلى هذه النظرة فقد صاح « على » نائرا :
 — إيه ده ؟ حاتلعب بييه ؟ .. ليه ؟ .. كروديات ؟ .. شسيل
 النيكل ده .
 وبهدوء اجاب سيد :
 — طيب ما تزعلش .. حاشيله ، حتك على .. حالمب بالبنوره ،
 ببسوط يا عم ؟
 ثم اتجه إلى اللين فتناول النيكل وقذف البنورة بدله .
 وكان « حريشة » اقربهم إلى اللين فوقف بجواره وبدأ التصويب
 إلى « الترنجيلة » ، ولكن النيكل مر بجوار حافتها دون أن يصيب شيئا
 من البلى .

وتلاه على الخشت ، ثم زين ومسطرين . وحل الدور على « سيد » .
وقبل أن يقذف بالبنورة صاح فى ثقة واعتداد :

— عليك وعلى البلى .

وانبرى له « على » معترضا :

— مايناش من قتل .

— كله لك ، وكله ليه .

— ماقولتش م الاول ليه ؟

— ادينى يقول لك اهو .

— لا ياعم .. ما فيناش من قتل .

وتدخل « حريشة » قائلا فى ضجر .

— يا أخى سييه .. يعنى نشانجى القلعه ، حاقتك وهو على

اللين ؟

واقتنع « على » فقال لسيد فى سخريه :

— طب لعب يا روح امك .. اما نشوف شطارتك ، الظاهر انك

مستغنى عن بنورتك ، إن شاء الله حادثشها لك ، عليك وعلى البلى

آل !! طب اللعب أما نشوف .

ويبدو أن من الخير قبل أن نستمر فى وصف المباراة أن نوضح للقارىء

(الذى قد بعد المهد بينه وبين لعب البلى أو قد يكون أرسقراطيا لم

يلعبه أصلا) بعض التعبير التى قد تستعصى على فهمه .

فـ « القتل » معناه أن يصوب اللاعب نيكله أو بنورته إلى بنورة الآخر

فإذا أصابه أخرج من اللعب خاسرا نصيبه من البلى ، و « كله لك

وكله ليه » معناه أن اللعب مفتوح للاعب أن يلعب كيفما شاء ، و « نوكله

ليك ونوكله ليه » معناه اللعب مقيد .

وامسك « سيد » بالبنورة فى يده ونفخ فيها وصمت لحظة بدا

خلالها كأنها يقرأ الفاتحة ، ثم أغمض إحدى عينيه وقذف بنورته بتؤدة

غصارت فى الجو فى خط مقوس ثم هبطت مستقرة بالضبط فوق نيكل
« على الخشت » ، دون غيره من بقع الأرض الفسيحة المتسعة .

وسادت الدهشة الصبية ، ووقف « سيد » وقد علت شفتيه
ابتسامة كبرياء استقرت فى جانب شفتيه ، وبعد فترة صمت قصيرة
ترك للزملاء خلالها فرصة الدهش والوجوم والتمعن صاح بأعلى
صوته :

— حلو . . كده النشان . . شيل النيكل بتاعك ياروح امك .
وفى صمت انحنى « على » فأخذ نيكله وانسحب وهو يضبط على
أسنانه من الغيظ وصاح فى استهتار :

— بعلهش يا زهر .

وأجابه سيد :

— والا عليه .

وكان على « سيد » ان يتم لعبه وأن يظل يلعب حتى يخطئ فيتبعه
لاعب آخر ، فأمسك بالبنورة وقذفها بتؤدة داخل « الترنجيلة » فأخرجت
خمس بليات ، ثم عاد وقذفها مرة أخرى فأخرجت ستة ، وظل بقذفها
المرّة بعد المرّة حتى أفرغها عن آخرها ، ثم قال متسائلا :

— تلعبوا كام ؟

وصاح « على الخشت » مندفعاً :

— عشرة عشرة .

— عشرة عشرة ؟ وجب .

ولم يعترض أحد وأخذ كل منهم يضع بلياته العشر فى الترنجيلة .

وتكررت العملية ، وكان « على » هو الذى سيلعب أولاً فى هذه

المرّة ، فوقف يقلد سيداً قائلاً :

— عليك وعلى البلى .

وصاح به حريشة :

— يا اخى لعب أنت على البلى كله .

وقذف « على » النيكل فاصطدم بالأرض . ثم ظل يتدحرج حتى
استقر داخل الترنجيلة .

وهلل « سيد » مصفقا بيديه صائحا :

— اطلع بره يا روح ستك ، بقول لك غشيم ومتعافى .

وصاح « على » حائقا :

— تكس ليه .

— نو تكس ليك .

— لا تكس ليه .

— يعنى إيه تكس ليك ؟ هوا فيه تكس وانت جوا الترنجيلة ..

شيل النيكل بتاعك وبلاش غلبه .

— مانيش شایل النيكل ، بلاش غلبه انت .

— شيل بقول لك أحسن لك .

— مانيش شایل .. اما اشوف حاتعمل ايه ؟

— حاتعمل ايه ؟ طب خد .

وهجم « سيد » على الترنجيلة فامسك بنيكل « على » .. ثم

تذف به بأقصى قوته وصاح بعلى :

— روح بقى دور عليه .

وانطلق « على » يعدو لا ليهيحث عن النيكل ، بل ليهجهم على

الترنجيلة فيأخذ كل ما بها من بلى ، ثم يعدو فارا به .

ولكن قبل أن ينطلق « على » بالبلى وهو فى قبضة يديه ، اندفع

« سيد » ماداً قدمه .. فاعترض بها طريق الآخر .. محاولاً « شنكلته » .

وانلحت الشنكله ، وهوى « على » مندفعاً إلى الأرض ، فarda

ذراعيه ، وتبعثرت البليات ، وانطلق صراخ « على » من جراء الصدمة

يدوى فى الدرب ، وما لبث حتى نهض متحاملاً على نفسه متأهبا للدخول

فى معركة مع « سيد » .

وعلت قهقهة الصبية عند وقوع « على » ، ووقفوا يمنون أنفسهم

بمعركة وشيكة الوقوع .. ووقف « سيد » متحفزا منتظرا ما ينوي « على » فعله رداً على المقلب الذي أعطاه إياه .

وهجم « على » والسباب يتطاير من فمه ، ودفع بقبضة يمينه في وجه « سيد » فأصابت أنفه .. وأحس من الإصابة بألم شديد ودمعت عيناه ، حتى لم يعد يرى ما أمامه .
وضحك الصبية وهللا ، وصاح زين :
— ادبلو .. كما واحده .

ورفع « على » يده ليحقق طلب « زين » ويعطى له كمان « واحده » ، ولكن قبل أن تصل إلى أنف سيد .. كان سيد قد هبط برأسه إلى أسفل متجنباً الضربة ، وفي نفس الوقت مد ساقه وراء ساقيه ، ثم دفعه بيده في صدره دفعة شديدة .

كانت حركة بارعة من سيد إذ كان يجيد ضرب المقلب وكان المفروض أن يهوى « على » إلى الأرض فيقفز سيد فوقه ويكيل له الضربات ، ولقد هوى فعلا ، ولكن قبل أن يصل إلى الأرض مد يده بسرعة فتشبث بفتحة جلباب سيد .. فلم يكذب يهوى إلا وجلباب سيد مشتوق نصفين .
وفزع سيد من تمزيق جلبابه ، ومما يمكن أن يقوله له أبوه لو أبصره على تلك الحالة ، والهاه التفكير في جلبابه الممزق عن متابعة نجاحه ، والارتقاء على خصمه ، وأعطاه بذلك فرصة للنهوض ، ولعائدة الإمساك بخناته .

وزاد حنق « سيد » وثارت ثائرته ، وهو يرى « على » يعاود الهجوم عليه بعد أن مزق جلبابه .. ومد يده فأمسك برقبة « على » .. ثم رجع برأسه للخلف قليلا ، وفي لمح البصر دفعها للأمام مصوبا جبينه إلى أنف « على » .. كانت « روسية » محكمة ، صفت لها أيدى الصبية المشاهدين طربا .

ولكن الخصمين لم يصبهما منها أي طرب .. فلما « على » فقد أحس برأسه تلف وبعينيه تغيبان فلم يكن لديه قطعا أي فرصة للطرب .

أما سيد .. والذي كان يجب أن ينتشى بضربة النصر القاضية فقصده نظر إلى خصمه مذعورا إذ أبصر بالدماء تسيل من أنفه متساقطة على شفتيه .

ولم يكد « على » يحس بالسائل الساخن فوق شفتيه حتى مد أصابعه ليتبين ماهيته ثم انطلقت منه صرخة مدوية .. فقد أفرعه منظر الدماء أكثر مما أفرعه ألم الضربة ، وصاح بأعلى صوته :
— يابن الكلب .. كده عورتى ؟

ووجد الصبية أن الموقف قد تطور ولم يعد يحتل الضحك وأن عليهم أن يفعلوا شيئا .. فاندفع « حريشة » ممسكا بيد « على » وصاح :

— تعال عند السبيل لما أطس لك وشك بشوية فيه .

وصاح زين وهو يلحق بهما :

— ما تخلفشى يا على .. دى قصده .. أنا أول أبارح اتفصحت زيتها وما جراليش حاجه .

وتطأير من نفس « سيد » كل إحساس بالعداوة وحل محله شعور بالعطف على خصمه والخوف من أن يكون أصابه مكروه .

ونسى « سيد » جلبابه ، ونسى البلى ، ونسى كل شيء إلا أصابه « على » وأمسك بيده يدعو به تجاه السبيل .

ولم تكن هناك من وسيلة للحصول على مياه السبيل إلا بالشفط ، فمد « سيد » فمه إلى الماسورة وأخذ يستدر المياه بفيه ثم يدفع بها في وجه « على » حتى أغرقه .

وتدخل « زين » باعتباره مجريا للحالة وقال صائحا :

— اتعد على الحجر وميل راسك لورا .

وعمل « على » بالنصيحة ، ولم يكن يملك إلا أن يعمل بها ، فقد كان في حالة من « الخضة » جعلته يطيع كل قول له .

واحاط الصبية بزميلهم الجريح يزودونه بالمياه وبالنصائح حتى انقطع سيل الدم .

وصاح حريشة ضاحكا :

— خلاص يا جماعه ما تخافوش ، دى حاجه بسيطه .. دى عين وصابتنا .. انا طول النهار وعيني بتترف .. الحمد لله اللى جت على كده .. خدت الشر وراحت .. روسيه تقوت ولا حد يموت .

وقال زين :

— بس خلاص .. صافيه لبن .. كل واحد يبوس راس التانى ..
ياللا يا جماعه داحنا اخوات .

وتقدم « سيد » باعتباره صاحب آخر اعتداء وأمسك برأس « على » وقبل شعره المبتل وقال فى ندم :

— معلش يا على .. حقك على .

وقام « على » فأمسك برأس « سيد » وقبلها وعيناه مغرورتان بالدموع :

— الحق على أنا يا سيد .. انا اللى غلطان .. معلش آدى راسك .

وهكذا تصافى الصبيان .. وعادت المياه إلى مجاريها . إلا من أمر واحد بقى جاثما على قلب سيد وهو جلبابه الممزق .

كيف يذهب به إلى البيت ؟

وصاح مسطرين :

— ولا يهكم .. الابره اللى خيطنا بيها الكوره آهى موجوده ..
وانا أجيب لك فتله حالا .. حممه .

وبعد لحظات كان « سيد » قد خلع جلبابه وجلس « مسطرين » على حافة الحجر يرتق موضع التمزيق وحوله الصبية يرتقبونه حتى انتهى .

وكانت الشمس قد هبطت وراء الأفق والظلام قد بدأ يتسلل إلى
الدرب ، وقال عبد الله المعيرجى :

— يا الله بينا يا جماعه الدنيا ليلت .

وتجاوبت الردود : « يا الله » .. « يا الله بينا » ..

وقال سيد :

— حد فيكو يحب يتسلى بالقتله وأحنا ماشيين ؟

وسأله حريشة :

— بكام ؟

— الشبر ببليه والقتله باتنين .

— يا الله .

وقذف سيد بنورته صائحا :

— العب .

وأخذ كل منهم يتناوب تصويب نيكله على نيكل الآخر وهم سائرون
حتى دخل كل منهم داره فى الدرب ، ولم يبق سوى حريشة وعبد
الله .. فسار عبد الله إلى بيته فى درب السماكين .. وتذكر حريشة
الكرات فأنطلق يعدو لشرائه وحمله إلى الدكان .

الفصل الرابع

مطروود من الجنة

دخل كل من سيد وعلى إلى البيت وقبل أن يجتازا عتبة الباب
همس سيد متسائلا :

— مش حانجيب سيره ؟

وأجاب « على » مطمئنا وهو يرفع كتفيه :

— ولا كان حصل حاجة .

ولكنه استدرك متسائلا في شك :

— ولكن الجلابيه بتاعتك .. حاتقول عليها إيه ؟

— أقول !! . أقول انها اتشبكت في مسمار .. أقول أي حاجة

.. على العموم هي متخيطه كويس ، وما افتكرش حد حاشونها

الليلة دى .. أنا حاخش انام قبل ما ييجى أبويا وبالنهار يبقى يحلها
رينا .

وكان الفناء قد أناره بصيص من ضوء فانوس معلق في بئر السلم ،
وقد خلا من قاطنة النهار ورفاقها .. الأوتين والمساءزة التي ساقتها
« أم آمنة » إلى متور داخل البيت بمساعدة زكية بنت الخشت التي
تعودت مساعدتها في قضاء حاجاتها وفي تنظيف الدار ، وكانت العجوز
تعتبرها كابنتها .

وغى الفناء افترق الصبيان الصديقان متحابين كأن لم يتعاركا
أو يتضاربا أو يمزق أحدهما ثياب الآخر أو يريق دمه .

صعد على فى السلم وهو يترنم بقوله « يا حليله يا بليله » .
واختفى شبحة الصغير بين لغات الدرج ، واجتاز سيد باب الشقة
المغلق نصف اغلاقه بعد أن دفعه بقدمه وهو يهز كيس البلى ويطوحه
إلى الأمام وللخلف ثم وقف فى قاعة ضيقة مربعة رصفت أرضها ببلاط
معصرانى مشقق مقلتل فى مستوى أرض الفناء .

ولم يكن بالقاعة من الأثاث سوى أريكة منهارة الجوانب ، مبقورة
البطن ، سوداء كالحة ، ومنضدة خشبية وضع عليها مصباح غاز
(نمرة ٥) بدد ضوءه ظلمة القاعة وتسلل من الأبواب المحيطة بها إلى
الحجرات المنضية إليها . وعلق على الجدران بضغ لافتات حوت آيات
قرآنية : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس
والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا
إليه راجعون) و (الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك
الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

ووقف « سيد » فى القاعة ، وأرهف سمعه ، وتلفت يمنة ويسرة ،
يستطلع مكان جدته « أم آمنة » . ثم دفع سبابتيه فى فمه وصغره
صغيره الطويل وصاح صيحته الندائية المعتادة :

— أم آمنة .. يا ويكا .

وانتظر أن تجيبه « أم آمنة » لتدله على مكانها ولكنه لم يسمع لها
صوتا .. فأتجه إلى يمينه ودف من الباب فوجد العجوز راكعة على
حصيرة الصلاة وهى تنهى صلاتها متلفتة يمنة ويسرة قائلة فى صوت
خفيض :

— السلام عليكم .. السلام عليكم .

وأجابها « سيد » كان التحية ملقاة إليه :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، انت بتكفرى عن ذنوبك
والا إيه ؟ دى كانت ذنوب إيه دى كلها .. دانت لازم كنت شقيه أوى ؟
ونهضت العجوز متحاملة وهى تطوى الحصيرة .. ولاحت على
شفيتها ابتسامه وهى تجيبه :

— معنى يا مفضوح مش حاتبطل حكاية يا ويكا دى .. هو انا برضه
اسمى ويكا .. والصفير بالليل .. ما تعرفش انه حرام ويطلع
التعابين ؟

وكانت كلمة « مفضوح » هى اقصى ما يحوى قاموس « أم آمنة »
من الفاظ السباب ، وكانت غالبا ما توجهه إليه عندما يعنى فى المزاح
معه ، وهى تقصد به التدليل أكثر مما تقصد به السباب .
وأجاب سيد فى رنة أسف مصطنعة :

— انت زعلتى يا ستى .. حقك على .. هاتى إيدك لما أبوسها .
واقترب منها فتناول يدها ولكن العجوز ضمته إليها وانحنى حتى
مست وجنته بشفتيها وقالت ضاحكة :

— حد يزعل منك يا سيد الرجاله .. عايز تتعشى إيه ؟

— عندك إيه ؟

— عندنا طبق بصاره من خالك أم على ، وعندنا جبنه وبطيخ .

— بصاره عليها تقليه ؟

— أيوه عليها .

— أنا ما حبش التقليه .

— أشل لك التقليه على جنب .

— ولا حبش البصاره كمان .

— طب كل جبنه وبطيخ .

— ما فيش حاجه تانيه ؟

— حاجه تانيه زى إيه .. طبيخ ؟

— لا .

— أعمل لك سخينه ؟ إنده تركيه تولعلى الوابور واقعد اعملها لك ؟ .. والا ابعت أجيب لك منهم شوية دقيق واعمل لك عصيدة ؟
— عايز زتون .

— طول عمرك زى الشريك المخالف .. أقول لك يمين تقول شمال ، أقول لك أبيض تقول اسود .. خد آدى قرش تعريفه هات بيه اللى أنت عايزه .

ثم مدت يدها على صدرها فأخرجت منديلا صرت به بضعة قروش وفكته وأعطته منه قرشا فتناوله الصبى وانطلق يعدو إلى باب الدرب حتى وصل إلى شريحة البقال فصاح به :

— خذ يا عم شيحه .. هات بتلاته ملیم زتون وبلمیم كرمه وبلمیم لب .

وهم شيحه بتعبئة الزيتون عندما صاح به سيد :
— والا اقول لك .. كفايه بنكله زتون وهات بلمیم سودانى وبلمیم كرمه وبلمیم لب .

ولم يكد شيحه بيد يده لتعبئة الزيتون فى القرطاس حتى صاح به :
— اسمع يا معلم شيحه .. بكم عود القصب ؟
واشار بيده إلى لبشة قصب مستندة إلى جانب الحانوت فأجاب شيحه وهو يتنهد فى ضيق :
— بنكله .

— مافيش عود بلمیم ؟
— فيه .

— طب هات بلمیم زتون وعود قصب بلمیم وبلمیم لب وبلمیم سودانى وبلمیم كرمه .

— مافيش بلمیم زتون .

— يعنى إيه مافيش بلمیم زتون ؟

— مافيش بلمیم زتون .. يعنى مانبيعش بلمیم زتون .

— وعلشان إيه ما تبعش بلميم زتون .. ما دام بتبيع بنكله ..
لازم تبيع بلميم ؟ . اقسّم نص أبو نكله بيقى بلميم .. ما خدتش حساب
عمرك ؟

— يا بنى ما تفلأنيش .. قلت لك ما بيعش بلميم يعنى ما بيعش
بلميم ، عاجبك والا لا ؟

— طب ما تتأمرش كده .. بلاش زتون .. هات مصاصه .
وبدا شiche فى تعبئة القراطيس الصغيرة من اللب والسودانى
والكرملة والمصاصة وبراغيت الست ، ثم ناول سيد عود قصب صغير
ثلاثة أرباعه زعزوعة ، وانطلق سيد يعدو بمشترياته إلى الدار .
وصاح بجذته وهو يتقدم فى الفناء :

— ستى أم آمنه .

وكانت « أم آمنة » تجلس على شلثة على الأرض فى القاعة
الضيقة أمام الأريكة المنهارة .

وكانت مستندة بخدها إلى كفتها كمعادتها ، وكانت تبدو دائما كأنها
غريقة فى بحر من التفكير الحزين ، لا يرفعها منه سوى صوت حفيدها
سيد .. فهو وحده القادر على ادخال الطرب إلى نفسها وإشاعة
الخبور فى وجهها .

وأجابت الصبى :

— أيوه يا سيد .

— شايه جيت إيه ؟

— جيت إيه ؟

— حاخليكى تاكلى وتمصى وتقرقزى وتبدغى وتلحسى كه ده بقرش
ابيض .

— ايه .. ايه .. ايه ؟ . قول تانى اعمل ايه واعمل ايه ؟

— خدى عندك .. حاتكلى بول مسودانى .. وتمصى قصب ،

وتقرقزى لب ، وتندغى كرمه ، وتلحسى مصاصه كل ده بقرش ابيض
.. يا بلاش .

— ايه اصله ده ؟ ايه الكلام الفارغ اللى بتقوله ده ؟ انت جبت الزنون
اللى حاتمعى بيه والا لا ؟
— طبعا لا .

— امال حاتمعى ايه ؟

— عندك ايه ؟

— احنا حانعيده تاتى ، انا مش قلت لك عندى بصاره وجبنه
وبطبخ .. قلت ما جهمش ، ورحت عشان تشتري زتون ؟
— معلش حاتمعى اى حاجه .. مش مهم .. بصاره .. جبنه ..
اى حاجه .

— الهى يعطى لك .. ما كنت وفرت القرش .. والا كنت جبت
حاجه تربى عليك ، وانت عامل زى عصا عيص النقاريه .. حد فى الدنيا
يقول كده ، تروح تترك القرش فى حبة كلام فارغ ، حبة حاجات
لا راحت ولا جت .. لكن الحق على . انا برضه الغلطانه اللى طاوعتك
وايدتك القرش .

— دأ ما كانش قرش ده اللى حاتمعى تبستفنى عليه .

— قلبى عليك .

— خلاص بقى .. حصل خير .. تاخدى شوية لب .. والا مصاصه ؟

— اللى يفرقه العويل يسفه .. اشبع به انت .. اياك يقضى

كرشك .

— ماقولنا خلاص بقى ما تزعلش ، هه وادى راسك :

وهجم عليها فطبع قبلة على راسها الابيض المغطى بطرحة سوداء ،
وضحكت المعجوز .. وكان الصبى الصغير واثقا من النتيجة .. كان
يعرف انها — على حد قوله — ديته بومه .

وقالت المعجوز :

— استنى بقى .. ما تسدش نفسك بالحاجات دى قبل ما تتعشى .
— مش مهم العشا .

— مش مهم ازاي ؟ . عايز تنام على لحم بطنك .. لازم تتعشى ،
قوم هات طبق البصارة والجبنه والبطيخ من المطبخ وهات الطبلية عشان
تتعشى مع بعض .

وقبل أن يتحرك « سيد » سمع وقع أقدام أبيه تطرق أرض الفناء
.. فتوقف فى محله .. منتظرا دخوله فى شئ من اللهة .

لقد أتى مبكرا .. وهو لا يكلف نفسه مشقة العودة مبكرا من
القهوة .. إلا إذا كان قد قبض نقودا مكنته من أن يحضر معه شيئا
مثرحا .

ودخل المعلم « شوشة » مرتديا الجلباب البلدى المخطط ، واللبدة
السمراء ، والبلغة القاسى الصفراء .. وفى يده لفافة تحوى الشئ
المرح .

والقى شوشة تحيته المقتضبة :

— مساء الخير يام .

وأجابت أم أمتة فى صوتها الحنون :

— خير عليك يابنى .. أحضر لك تتعشى ؟

— اتعشيت .

ولم ينتظر سيد بقية الحديث ، بل مد يده ف تناول اللفافة من أبيه
فى صمت بعد أن أدرك بعينه الثاقبتين ما يمكن أن تحويه .

كانت لفافة من الورق الأبيض الخشن .. تناثرت عليها بقع لاسعة
شفافة .. هى آثار سمن نضح من الداخل .

« كفتة » ؟ . لا .. فالرائحة لم تنح .. انه يميز رائحة الكفتة
ولو كانت على باب الدرب .

« بسبوسة » ؟ . لا .. فهى لا تنضح مثل هذا النضحان ، إن
الورقة تكاد تكون مغرقة بالسمن .

« فطير » ؟ أجل ! أجل !

وصدق ظنه .. إذ لم يكد يتناول اللفافة من أبيه .. حتى قال :

— دول فطيرتين لك انت وسنك .. واحده بالزيت ، وواحدة

بالسمن .. والسكر ملفوف فى ورقه لوحده .. حاسب ينكب منك .

وأخذ « سيد » فى فتح الورقة ، وقد جلس على الشلطة بجوار

العجوز .. وبدت عليه الفرحه .. انه كان فى اشد اللهفة إلى الفطيرة .

بارك الله فى أبيه .. فهو دائما يحضر الشئ المطلوب فى الوقت

المناسب .

وبدا الفطير لامعا متوردا . وازدرد الصبى لعبه وهو يقول

لجدته :

— أنا حاخذ أم زيت ؟

— خذ اللى تعجبك .

— انهى أم زيت بابا ؟

— اللى فوق .

ورفع سيد الفطيرة « أم زيت » وقد فاحت منها رائحة شهية ،

وبدت تحتها « أم سمن » أشهى وأروع ، فأخذ يقارن بعين لهنى بين

الاثنين وقال لجدته محاولا كسب الوقت حتى يعطى لنفسه فرصة

الاختيار :

— تحبى أم سمن ؟

— كله كويس .. اللى يعجبك خذه .

وبدا عليه التردد ، وكان عليه أن يبت بسرعة .. فهو لا يقوى على

الانتظار كثيرا ، وأخيرا مد يده بالفطيرة العليا للعجوز قائلا :

— خدى أم زيت .. وأنا حاخذ أم سمن .. أحط لك عليهما

سكر ؟

— حط .

ورش عليها بعض السكر ومد يده بها ، ولكنه سحب يده فجأة
فى منتصف الطريق قائلاً :

— والا اقول لك .. انا حاخذ أم زيت .

وضحكت العجوز وقالت :

— رينا ما يحير مؤمن .

وأحس بشيء من الخجل لتردده وحيرته . فرفع يده بالفطيرة قائلاً
فى حزم :

— خلاص خدى دى .. انا حاخذ أم سمن .

وامسكت العجوز بالفطيرة فى يدها وتناولت منها قضمة جعلت تلوكها
ببطء فى فمها ، وانشب سيد أظافره فى فطيرته وأطبق فيها أسنانه ،
وأخذ يقضم منها بنهم وسرعة ، وعندما أتى على معظمها ولم يبق منها
سوى قطعة تبلغ الربع ، صاح بالعجوز :

— مش عايزه تدوتى الفطيرة أم سمن ؟ تاخدى حتة ، وتجيبى
حتة ؟

وكانت العجوز لم تاكل سوى قطعة صغيرة لا تزيد عن الربع ..
ولم يكن هناك شك فى أن بطنها فى الاكل كان بطناً مقصوداً ، وأنها
تستعد للخطئة التى كانت تعلم سلفاً أن حفيدها سيدبرها فى نفسه .

ومد سيد يده بربع الفطيرة التى معه ، وأخذ منها ثلاثة أرباع
الفطيرة وبدأ يقضمها .. ولحاه أبوه وهو فى طريقه إلى دورة المياه
ليتوضأ ، فصاح به مؤثباً :

— انا قلت لك ايه يا سيد ؟ مش كل واحد فطيره ؟

-- وأنا مالى .. ما هى اللى عايزه تبادل .

وضحكت الجدة وقالت لشوئمة :

— يا خويه سيه .. دا اللى فى بطنه بيشبعنى أكثر من اللى فى
بطنى .

وكانت العجوز صادقة فى قولها مخلصه .. لما أئبعتها شيء

كاللّمة التى ياكلها حفيدها .. كانت تشعر فى نفسها أنها لو أصيبت
بمراجعة فى قفرة فليس أسهل عليها من أن تقطع جسدها قطعة قطعة
كى تطعمه له .

ليس هناك فى الدنيا أحب إليها منه ، ومن أبيه .

لقد كانت كل الأسباب تدعوها لحب أبيه ، كان رجلا قويم الخلق ،
حنونا طيبا صادقا وقيما .. لا تجد به عيبا ولا هنة .. هذا ما كان
يحبها فى أبيه .. أما ما كان يحبها فيه هو ، فلا شيء .. كانت تحبه
بلا تفكير ، ولا بحث ، ولا استقصاء .. كانت تحبه كما هو ، بشقاوته
وعفرتته ، وخفة دمه ، وبكل تفاصيله ودقائقه ، وشروره وذنوبه .

وانتهى سيد من أكل الفطيرة والنصف .. وانتهت العجوز من
أكل نصف الفطيرة .. وانتهى شوشة من الوضوء ، وخلا بنفسه فى
حجرتة يؤدى غريضة الصلاة .

وبدا سيد يتعاب ، وقال لجدته :

— مش حاننام ؟

— مش حاتاكل حاجه من اللى انت جاييها دى ؟

— لا خليها للصبح .

— ولا عايز بصاره ولا جبنه ولا شقة بطيخ ؟

— لا شبعنا خلاص .

— طيب قوم عشان تغسل ايديك وتنشطف .

— إيديه نضيفه .

— والزيت بتاع الفطير ؟

— مسحته فى الجلابيه .

— أيوه عشان تيجى التعابين تشمك .. أنا مش بطلتك الوساخه

دى .. قوم أسطفك وأغير لك الجلابيه .

— يا سلام عليكى يا ستى لما تضايقتى بقى .. هو كل يوم

التشطيف ده .. زهقتينى .. دى حاجه تطلع الروح .. بقى لى كام سنه باغسل ايديه ووشى .. يعنى كان فايدته إيه ؟

— قوم فز .. هوه كل ليله لازم تقول الموال ده ، مش ممكن تتشطف من سكات ؟

ولم يجد سيد بدا من النهوض ، لا سيما بعد ان نهضت جدته متحاملة على نفسها .

وسارت المعجوز إلى دورة المياه ، دون حاجة إلى ان يقودها الصبى ، فقد كانت تسير بحاسة التوجيه فى انحاء الدار كأنها مبصرة . وصاح بها سيد وهو يتبعها :

— انسبقتينى لما اجيب اللببه .

— مغبش لزوم ، خليفها عندك .

— انا مش شايف حاجه .

— مغبش لازمه تشوف .. انا شايفه كل حاجه .. قرب هنا .

ولت المعجوز اطراف ثيابها وجلست على مقعد خشبى واطىء صغير امام صفيحة بها مياه ، وكانت دورة المياه لا تزيد على طرقتين إحداها ، رحاض وحمام والاخرى مطبخ وكان ليلهما نهار ونهارهما ليل ، فما كان الضوء يعرف مسيله إليهما إلا من نافذة عالية تطل على المنور ذات قضبان حديدية كأنها نوافذ السجون ، وكان بياض الجدران منهارا من نضح المياه ، وقد ظهر شق متعرج واضح عميق فى الجدار المواجه للباب كأنه هابط من عل نتيجة لمياه دائمة النز فى الطابق العلوى .

وصاحت المعجوز بسيد وهى تبدأ اشق عملية تقوم بها فى يومها :

— اقلع الجلابيه .

— انتبى حاتمينى ؟

— لا حاشطفك .

— حاتفسلى راسى بالصابون ؟

- أيوه .
- عشان ايه ؟ . انتى مش غاسلاها اول امبارح .. هى سوره .. كل يوم غسيل غسيل .. دى لو كانت دماغى حجر كانت باشت .
- قرب يا بنى بلاش مناكه .
- حاقرب .. بس بلاش الصابونه .
- هو الصابون بيقرصك ؟
- ما بيقرصنيش .. لكن بيخس فى عليه .
- ابقى غمض عنيك .. وهو ما يخسش .
- بغمض ، وبرضه بيخس .
- غمضهم كويس .
- بغمضهم قوى .
- خلاص يبقى مش حاخسش .
- برضه بيخس .
- قرب بقى يا خويه الله يهديك ، فلقتنى ونبحت حسى ...
- ويدا يقرن حديثه ببكاء مصطنع :
- هو إيه اصله ده ؟ .. كل يوم صابون صابون .. أنا عارف ربنا عمل الصابون دا ليه ؟ .. عشان يخس فى عنين الواحد .. ده حتى ظلم .
- ظلم .. ظلم .. بس قرب .. ناولنى إيدك .
- ومد سيد يده فاطبقت يدها وجذبتة نحوها فأجلسته قائلة فى غيظ :
- اقعد هنا .. قرب راسك من الصفيحه ..
- وقبل أن يد سيد راسه من الصفيحه لمح الصابونة موضوعة على الأرض بجوار المقعد الذى تجلس عليه فمد يده فى حذر وأمسك بها فأخفاها وراء ظهره .
- وملأت العجوز الكوز من الصفيحه ثم صبتة .. فوق رأس سيد ،
- ثم مدت يدها تتحسس الصابونة فى الموضع الذى تعودت أن تضعها

فيه بجوار المقعد ، ولكنها لم تجدها .. وظلت تتحسس برهة هنا وهناك ، ولم تلبث حتى أدركت ما حدث فأمسكت أذن الصبي بين سبابتها وإيهامها ، وقالت مهددة :

— هات الصابونه .

— صابونة إيه ؟

— هات الصابونه بالتى هى احسن .

وأجاب سيد فى عناد :

— ما شفتش صابون .

وضغطت بأصبعيها على أذنه .. نصاح :

— آى .. آى .

— هات احسن اتده لآبوك يدشدشك .. انت عارف لما يمسك

ما يخليش فيك نفس .

— خدى أهه .. اشبعى بيها .

وقبل أن تضع الصابونه على رأسه بدأ فى البكاء المصطنع وأخذت

تدعك رأسه ، وهى تقول :

— بس بقى بلاش زن .. أسكت بقى .

وبدأت تدعك وجهه فأغمض عينييه بشدة .. وبعد طول دعك

صبحت المياه على رأسه لازالة الصابون ..

وسألها فى خلال « زنه » :

— خلاص ؟ . افتح عينييه ؟

— استنى شويه .

— استنى إيه ؟

— حاغسلها لك دور تاتى .. دى عليها راقات طين .. ولا اللى

بيمشى على رأسه مش على رجليه .

— دور تاتى ؟ إيه هو الظلم ده .. هى امك كانت بتغسل لك رأسك

دورين ؟

— وأنا كنت أوسخ نفسي زيك كده ؟

وأخيرا انتهى دور الرأس وبدأ دور الساقين والذراعين وكانت المهمة أسهل كثيرا إذ لم يكن بها ما يغضبه .

وأخيرا انتهى التشطيف ، وارتدى سيد جلبابا نظيفاً ، وكان هذا هو أهم ما فى الأمر . . إذ تخلص مؤقتاً من جلبابه الممزق المرتوق الذى يحمل آثار المعركة بينه وبين « على الخشت » ثم سار بجوار العجوز إلى حجرتهما .

وكانت الشقة تتكون من ثلاث حجرات ضيقة مظلمة رطبة مرصوفة كالقاعة بالبلاط المصرانى ذى القلائل والشقوق ، فى كل منها نافذة ذات قضبان حديدية ، وكان شوشة ينام فى إحداها على فراش خشبى تعلوه مرتبة رقيقة ويوجد فى ركن الحجرة مشجب علق عليه بعض ملابس ، وفى الركن الآخر دولاى صغير وضع فيه البقية الباقية منها .

وكانت العجوز والصبى ينامان فى الحجرة المجاورة فوق مرتبة وضعت على الأرض واستبدل بالمشجب فيها حبل دق بين الجدارين فى إحدى الزوايا ونشرت عليه بضعة أثواب للعجوز والصبى ووضع فى أحد الأركان طشت وأبريق كانت تستعمله العجوز للوضوء والغسيل .

أما الحجرة الثالثة فلم تحو غير صندوق الكراكيب ، وكانت تكاد لا تفتح إلا عندما يحلو لسيد العبث فى انقاضها عله يعثر على شيء ينفعه فى لعبه .

ونظر سيد خلال باب حجرة أبيه فوجده جالسا جلسته المعتادة فوق فراشه الملاصق للنافذة متكئا بمرمقه على حافته مستنداً بذقنه إلى كفه متطلعا ببصره إلى السماء أو إلى الشريط البادى منها أعلى حافة النافذة وأعلى حافة الدور المقابلة فى الدرب الذى يظهر كأنه سقف فوق الدرب ، وكان يمسك بيسراه سيجارة يقربها من شفقيه بين أوتة

واخرى ليمتص سخانها فيملا به صدره ، ثم يدفعه في نفس طويل وزفرة حارة .

تلك كانت جلسة ابيه الدائمة كل ليلة قيل أن يتهدد في فراشه ويغمض عينيه ، وهى شديدة الشبه بجلسة جدته كلما خلت بنفسها من حيث الإطراء والوجوم والسرخان والشروذ وإمارات الحزن التى ترتسم على وجهى كل منهما .

كان كلاهما يسير في تيار الحياة فلا يكاد يتوقف به التيار حتى يرسب إلى اغوار عميقة من الحزن والتفكير .. كانا شديدي الشبه إذا ما خلا كل منهما بنفسه .. صلاة .. وإطراق .. وحزن .. وتطلع إلى السماء .. كأنما تجمع بين ذهنيهما فكرة واحدة .

ولكن سيد لم يحاول أن يبحث ما وراء ذلك ... ولا اهتم بأن يسأل عن سبب ذلك الهبوط إلى القاع إذا ما توقف بهما تيار الحياة .. لأنه لم يكن لديه وقت للتفكير في ذلك ، ولأن تيار الحياة لم يتوقف به قط .. فهو لا يكاد يكف عن الحركة .. فإذا كف جسده عن الحركة فإن ذهنه يواصل نفس الحركة .. بلى .. وكرة شراب .. وحريشة وشجرة الجوانة .. و .. و .. مما لا يتركه إلا وقد استسلم إلى الرقاد .

ورفع رأسه محولا بصره من ابيه المتطلع إلى السماء من وراء قضبان النافذة إلى جدته التى تتلمس طريقها إلى فراشها .. مناديا :

— ستى .

— هه .

— مش حاتحكلى حدوته ؟

— حاحكيك بس ...

— بس إيه ؟

— تبطل الزن لما اغسلك رأسك بالصابون ؟

— هو انتى لسه حاتفسليلى راسى بالصابون تاتى ؟

— تصدى المره الجايه .

— يا سنى يحلها ربنا لما تيجى المره الجايه .. انتى يعنى مستعجله
قوى .. على العموم .. أنا مش حاوسخ راسى أبدا عشان اريح قلبك .

— يعنى بروضك ناوى تزن ؟

— طب مش حازن .. حاتحكيلى بقى ؟

— ايوه .. كده .. لما تبقى ولد طيب وابن حلال .. وأمير ..
ونستحى من سكات ولا تتخانقش مع ولاد الجيران .. ولا توسخشى
هدومك ولا تقطعهشى أقوم أحبك واحكيك اللى انت عايزه .

« ولا تقطعهشى !! » هنا بيت القصيد .. ترى متى ستكتشف تمزيق
الجلباب ؟ طبعا عند الغسيل !! ولكن ماذا تراها ستفعل ؟ . ستناديه
« يا مفضوح » وتقرص له أذنه ؟ .. هذا أقصى ما ستفعله .. انها
متسامحة كريمة .. وهى لا شك لن تبلغ أباه .

دار بخلده كل هذا بسرعة وانتهى بطمأنه نفسه واجابها قائلا :

— حاتحكيلى إيه ؟

— اللى انت عايزه .

— قولى انت .

— أحكيك « خششبان أعبى طرشى ما بينضرشى » ؟

— لا .. انتى لسه حاكياها امبارح .

— أحكيك « يا حوريه الرغيف وراس البوريه » ؟

— لا .. دى زهقت منها .

— أقول لك يا سيدى لما انت .. حدوثه كسبره ؟

— ايوه .. قوليلها لى دى .. بقى لى زمان ما سمعتهاش .

— طب يا الله بينا .

وهبطت المعجوز إلى الفراش الأرضى وتمددت على جنبها الأيمن
وفردت ذراعها فتوسده الصبى وقبل أن تبدأ القص ضمته إلى صدرها

واخذت تتحسس رأسه وتقاطيع وجهه برفق وحنان ، وقال هو بصبر نافذ :

— يالله بقى احكى .

— كان ياما كان يا سعد يا اكرام .. ما يتم الحديث إلا بذكر
النبي عليه الصلاة والسلام .
— عليه الصلاة والسلام .
— كان فيه يا سيدى ...

وبدأت « الحدوتة » والصبى ينصت ، وأنفاسه تتصاعد فى هدوء ،
وصدره يعلو ويهبط ببطء ، ولم يطل الحديث بالعجوز حتى أحست بيد
الصبى التى أحاطت بها قد تراخت وراح هو فى سبات هادى عميق ..
يريح به جسدا أنهكه طول السير واللعب وحمل القرب والعراك .
وضمته العجوز إلى صدرها وعادت مرة أخرى تتحسسه كما يتحسس
البخيل كنزه ، وطال بها الشروء والتفكير قبل أن ييسط عليها النوم
سلطانه ، وأخيرا أغفى كل من فى البيت ، وانحصرت كل مظاهر الحياة
فيه فى أنفاس تتردد فى سكون .

كان الأب أول من استيقظ ، وكان ضوء الفجر ينساب من النوافذ
رماديا باهتا قد اختلطت ببياضه رواسب الظلمات .. ثم أخذت
الرواسب تصفو شيئا فشيئا .. حتى أضحت الخيوط الهابطة إلى
الدار بيضاء صافية .. وانتهى الأب من وضوئه وصلاته وارتدى جلباب
العمل والسطيح واللبدية ، ثم دلف إلى حجرة العجوز ونادى الصبى
بصوت رقيق :

— سيد .. سيد ..

واستيقظت العجوز قبل أن ينستيقظ الصبى وهتفت بالأب :
— ياابنى لسه بدرى أوى .. خليه ينعس شويه .

وكانت « أم آمنة » تعارض الأب فى محاولة دفع الصبى إلى العمل وفى محاولة ابلاغه مبلغ « الرجالة » أو كما يقول شوشة « توديكه » . . وكانت ترى أن هذا شيء مبكر جدا ، وأن عود الصبى لم يصلب بعد .

ولكن شوشة لم يكن يلتقى إليها يالا . . كان كلاهما يحب الصبى ، ولكن بطريقته الخاصة . . الجدة : تود ألا يفارق أحضانها ، فهي تخشى عليه من كل شيء ، وتكره له كل جهد وتريد الترفق به كل الترفق . . أما الأب . . فكان يريد أن يسبق الزمن فى خلقه وتكوينه . . يريد أن يفض عينيه ، فيراه رجلا . . وكما كانت العجوز يتمتعها أن تضمه إلى أحضانها ، كان هو يتمتع أن يرى الصغير ، وقد ارتدى السطيح وحمل القرية وسار بخطوات رزينة ثابتة يفرغها فى المكان المطلوب .

وهكذا طلبت أم آمنة من شوشة أن يتركه ينعم قليلا ولكنه لم يستمع لها ، بل استمر ينادى الصبى ولكن بلهجة أشد :
— سيد . . سيد . . اصحى يا وله .

وفتح سيد عينيه ، ولم يكذب يصير أباه ويسمع صوته ، حتى قفز واقفا بعينين مغمضتين وهو يقول :
— أبوه يابا ، حاضر أهو يابا .

كان سيد يعرف أنه يستيقظ على عمل يلذ له . . ولو كان يعرف أنه يستيقظ للذهاب إلى الكتاب ، لتمطى وتثاغب . . وتطلب المزيد من النداء والزجر والنهر . . أما لبس السطيح وحمل القرية ، والذهاب إلى السراية وسقى التمرحنة . . وما بعد ذلك من أعمال جليلة ممتعة ، فقد كان عملا يستحق أن يقفز من الفراش ، وأن يضحى من أجله بأعلى نومة .

واسرع سيد يغسل وجهه ، أو على الأصح يبل وجهه باطراف أصابعه ، ثم ارتدى السطيح ، وسار يهرول وراء أبيه ، وقبل أن يعبر الباب صاحت أم آمنة :

— ما تتغذوش بره ، انا حاطبخ لكم .

ووقف « شوشة » فى مكانه ، ثم عاد القهقري ، وأخرج حافظته وأخرج منها قطعة ذات الخمسة تروش ووضعها فى كف العجوز فى صمت .

واجابت المرأة :

— انا معايا غلوس .

— معلش ، خلى دى معاكى ، يمكن تعوزى حاجه .. تحبى أبعت لك حاجه ؟

— لا .. زكيه بتشتري اللى انا عايزاه ، مع الحاجه اللى بتشتريها . ولم تكن زكية تشتري فقط ، بل كانت ، كما سبق القول تؤدى للعجوز كل ما يمنعها بصرها الخابى من أدائه .

وأخرج الرجل وابنه يتواثب حوله ، وسار الاثنان يدفعان امامهما العربية المحملة بالقرب الفارغة ، عابرين الدرب متجهين سويا إلى كشك الصنبور فى أول درب السماكين .

ووصلا إلى الكشك .. ولكنه كان مغلقا .. فالمعلم لم يصل بعد .. وكان فى انتظاره امرأتان بصفيحتيهما .. وعبد العزيز السقا بقرينه . واوقف شوشة العربية بجوار الرصيف ، وانكأ عليها منتظرا فى صبر وغيظ مكظوم ، والتى تحية مقتضبة إلى التلة المنتظرة قائلا :

— صباح الخير .

وردوا عليه التحية ، وبدأ على عبد العزيز انه يريد تسلية نفسه بالثرثرة ، فبدأ الحديث قائلا :

— المعلم على لازم راحت عليه نومه .

واجابت إحدى المراتين :

— ويسيب مصالح الناس متعطله كده ؟ وهى دى تبقى اصول ؟

احنا وانا شغل .

وعلقت الأخرى بقولها :

— ودى لطة إيه ياختى دى ، هوا احنا قاضيين له ؟

ورغم ان شوشة كان اكثرهم غيظا ، إلا انه كان شديد السيطرة على لسانه ، فلم يفه بكلمة ضجر ، او تعليق سوء ، بل اكتفى بأن اطلق تنهيدة طويلة .

ولكن ابنه لم يكن كذلك .. لقد كان كل ما فيه طليقا متحررا ، لا سيما لسانه ، فصاح مشتركا فى الحديث .. نيابة عن أبيه :

— لازم كان سهران فى زفه .. مش مطياتى ؟

وقهقه عبد العزيز .. وضحكت المراتان .. وكنتم شوشة ضحكته ، وقال لابنه ناهرا :

— اقصر لسانك ولا تداخلى فى اللي مالكنش فيه .

— ودا كمان مالياش فيه ؟ أنا مش سقا زى زيكم ؟ هى دى مش عطله ؟ واحنا وانا مصالح ناس .. حد قال يجيبوا مطياتى يعملوه باش سقا .. ويمسكوه خفيه ؟ .. دا حقهم يمسكوه رق .. يرقصوه عشره . وقاطعه أبوه بصيحة ناهرا :

— بس يا واد بلاش قلة أدب ، قلت لك اقصر لسانك يعنى اقصر لسانك .

ولم يجد سيد بدا من الصمت على مضض ، وعاد يلعب بقدميه فى مجرى المياه المنحدر إلى البالوعة .

وبعد برهة أقبل « على دنجل » ، أحمر العينين .. منتفخ الأجفان ، مهمل الشارب ، وألقى تحية متجهة على الجميع فأجابوه بأكثر منها تجهما .. واتخذ مكانه على المقعد فى الكشك وراء الصنبور .

وملأت المراتان .. ثم ملا عبد العزيز .. وقال شوشة مخاطبا ابنه :

— قرب خد قربتك واملا .

فلما ملأ سيد قربته أردف قائلا :

— اسبقنى على السرايه .. وفتح عينيك كويس .. خلى عينك
فى راسك .

وكان تحذيرا ثقيلا لم يتعلمه سيد بسهولة .. بل اعتبره نذير سوء ،
ولكنه لم يملك إلا أن يجيب :

— حاضر .

وسار سيد بحمله الصغير ، محنى القامة ، مبتل الثوب ، تشوب
سعادته المطلقة صدى انذار ابيه وتحذيره إياه بأن يضع عقله فى
راسه .

— ماذا يقصد أبوه بأن يضع عقله فى راسه ؟ . ايعنى الا يمد
يده إلى شئ من الثمار ؟

سخافة ! . إن هذا هو بالضبط عدم وضع العقل فى الرأس ..
إنه الجنون بعينه .. أن يذهب إلى حديقة السراى ولا يمد يده إلى
ثمارها ؟ . ولو كان ينوى أن يفعل ذلك .. لكان أجدر به أن يجنب نفسه
كل هذه المشقة .. مشقة الصحيان المبكر ، وحمله القرية ، والعدو
وراءه فى الطرقات .

أجل ! إذا كان أبوه يظن انه قرير بكل هذا من أجل خاطر ميون
التمرحنة .. فهو ، ولا مؤاخذة ، مغفل كبير .

ولكنه يربأ بأبيه أن يكون كذلك ، إنه لا شك يقصد بقوله له
« خلى عقلك فى راسك » ، الا يرتكب حقا كالذى ارتكبه بالأمس ..
فلا يتسلق شجرة . ولا يكسر فرعا ، ولا يقع من الشجرة على رقبة
« عم جاب الله » فيقصها .

هذا بالطبع ما يقصده أبوه .. ومعه حق .. فمن الغباء أن يرتكب
جناية قتل من أجل جوافاية .. أو بلحاية ، أو حتى قشطاية .

يجب أن يضع عقله فى رأسه .. فلا يتهور .. بل يأخذ ما يشاء
من الثمار بالتى هى أحسن .

وهكذا أسر سيد انذار ابيه .. وازاح بذلك التفسير العبد الذى
اثقل ضميره ، واقبل على باب السراى وسعادته مطلقة لا تشويها
شنائية من خوف أو شك ، وأطل ببصره من باب السراى فلمح عم جاب
الله مغرقا فى صلاته .. وكان أكثر ما يحبب سيد فى الله هو أمره
عبيده بالصلاة .. وتحديدده لهم قبلة تربطهم باتجاه معين لا يتحولون
عنها . فلولا هذا ما استطاع أن يتسلل بسهولة من وراء « عم جاب
الله » الراكع امام القبلة ، المعطى ظهره للباب ، المنهك فى الركوع
والسجود ، والقراءة والقبلة .

وهكذا لفت سيد إلى الداخل فى سكون .. حامدا الله شاكرا عبده
المطيع جاب الله .. واتجه فى صمت وسكون إلى شجرة التمرحنة
مصوبا نحوه القرية إلى الحفرة المحيطة بها ، وترك المياه تنحدر إليها
حتى نفذ كل ما فى القرية فخلعها عنه ووضعها على الأرض وخلق السطوح
ووضعه بجوارها حتى يتحرر من قيودها وتخف حركته .

إن امامه مساحة من الوقت يستطيع أن يتمتع خلالها بالحقيقة ،
فأبوه ما زال يبال بنية القرب ، وسيمر فى طريقه على بضعة بيوت قبل
أن يصل إلى السراية .. أما عبد الله المطيع المدعو جاب الله .. فسيظل
مقيدا نفسه إلى القبلة إذ ليس هناك ما يدعو إلى حله .. فهو لم يحس
بدخوله .. وهو لا شك مطمئن ، أربعة وعشرين قيراطا .

ونظر حوله يفحص الحقيقة بعينه ليرتب فى ذهنه خطة موضوعة
للاستمتاع بها .. فرجع بصره على الفسقية ولما يزل بها بعض المياه التى
لم تتصرف بعد فى مجارى الأنهار فعزم على أن ينتهزها فرصة ويلقى
بنفسه فيها .

وشمر الجلباب حتى أرجل سرواله القصير واضعا ذيله فى

« عبه » .. ثم قفز إلى الفسقية وأخذ يعدو فيها ضاحكا ضاربا المساء بساقيه ، محدثا عاصفة من الرشاش أغرقت بقية جلبابه ، منشدا أحب الأغنيات إلى نفسه « حالى يا حالى .. بس ان مريت .. ع الدقه والفول ابو زيت » .

وهكذا استمر يعدو ويرقص ، متمما بقية الأغنية صائحا : « مر على الباشسجان وغمزنى بعلبة دخان » .

ولمح فى وقفته شجرة لوف ، تتسلق جذع إحدى النخلات وابصر بين اوراقها الخضراء العريضة ، وزهرها الأصفر كوزا كبيرا من اللوف فى متناول اليد .

ودون أن يفكر ماذا يمكن أن يصنع بالكوز قفز من الفسقية ووثب نحو النخلة ، وفى لمح البصر كان قد نزع الكوز من موضعه وأخذ يتسلى بتقشير ولوث نفسه بمائه اللزج وما عتم حتى قذف به إلى الأرض وراء النخلة .

مغل !! ما هكذا يضيع الوقت فى الحديقة ؟ . إن أباه قد نصحه بأن يضع عقله فى رأسه ، وما فعله نموذج لتصرف رأس بلا عقل .

وعاد يتلفت إلى الأشجار فوجد الأرض تحت شجرة الجوافة ملأى بالثمار .. نتناول واحدة . ثم تناول ثانية وثالثة .. وما لبث حتى أحس بالشبع .

لقد اتبع قول أبيه ، إنه لم يتسلق الشجرة ، ولم يقصف رقبة عم جاب الله .. ولكنه شبع .. فماذا يفعل بعد ذلك ؟

ليأكل بلحا .. ولكن النخلة ليس تحتها شيء .

ورفع بصره إلى أعلى فإذا بأربع سباطات حملت بالثمر الأحمر ، وقد تهدلت متشابكة حول جذع النخلة .

واخذ سيد يفكر بسرعة .

إذا وضع عقله فى رأسه كما قال أبوه . . فعليه ان ينتظر تحت النخلة حتى يمن الله عليه ببليحة أو بلحيتين تسقطهما حدأة أو غراب أو نسمة من ريح . . ومن يدرى أن الحدأة والغراب والنسمة سيهديهم الله إلى إسقاط البلح قبل حضور أبيه أو قبل انتهاء جاب الله من صلاته .

أما إذا لم يضع عقله فى رأسه فعليه ان يتسلق النخلة . . وفى هذه المرة . . إذا سقط . . ستدق عنقه هو . . بدل عنق جاب الله .
واخذ يقيس النخلة ببصره وقد أصابته حيرة شديدة .

أيصعد النخلة . . أم لا يصعدا ؟ يصعد أم لا ؟ . يصعد أم لا .

إن اللوثة ستساعده ، ولكن من يدرى أنها لن تتهاوى تحت ذراعيه . . لا . . لا . . إنه لن يغامر بتسلقها ، ولكنه مع ذلك يريد بلحا .
وبرق فى ذهنه خاطر ، يفنيه عن المخامرة وينيله مأربه .

لم لا يقوم هو مقام الغراب أو الحدأة أو النسمة ؟ . أنه يستطيع بحجر أن يسقط أضعاف ما يسقطه ثلاثتهم معا دون حاجة منه إلى تسلق النخلة ، وإخراج عقله من رأسه .

وتلفت حوله فوجد بجوارا لفسقية حجرا صغيرا .

هذا حجر مضبوط . . ان الله موفقه هذا الصباح . . صلاة عم جاب الله ، والمياه فى الفسقية ، والجوانة جاهزة تحت الشجرة ، والحجر جاهز تحت النخلة . . كل هذا توفيق من عند الله . . أو الشيطان .

وقذف بالحجر بأقصى ما لديه من قوة ، واندفع الحجر من يده مرتفعا إلى قمة النخلة ، متجنباً الجذع ، والسباطات ، والزعف ، مارا بجوار كل ذلك فى دائرة ، عبر بها قمة النخلة مندفعاً من الناحية الأخرى تجاه البيت ، تاركاً كل واجهة البيت الحجرية ، رافضاً أن يستقر إلا على

زجاج إحدى النوافذ ، وسقط الزجاج مهشما محدثا صوتا مريعا ، ونى
نفس اللحظة هب « جاب الله » من صلاته مندفعا إلى الداخل ،
ووراء المعلم شوشة حاملا قربته ، ونظر « سيد » إلى النافذة المتهاوية
فى يأس ، ونظر إلى السطيح والقربة ثم اندفع يعدو تجاه الباب هاربا
بأقصى سرعة ، وصاح به أبوه فى دهشة :

— على أين ؟

وأجابه « سيد » وهو يعدو :

— على الكتاب .

بيدى لا بيد عمرو .

الفصل الخامس

فى الكتاب

اندفع « سيد » يعدو كالمجنون فلم يتوقف إلا أمام دارهم فى درب القط ، وعدا فى الفناء مرتبيا فى أحضان جدته « أم آمنة » وهو يلهث من فرط التعب .

وصاحت به العجوز متسائلة فى دهشة وفزع :

— مالك ؟ . حصل إيه كفى الله الشر ؟

واستمر « سيد » يلهث دون أن يجيب ، وعادت أم آمنة تستحثه بسؤالها :

— مالك ؟ بطحت حد ؟

— يا ريت .

— قتلت قتيل ؟

— أبدا .. كسرت لوح قزاز فى السرايه ؟

— يا ندامه .. وايه اللى يخليك تقل عقلك وتكسر اللوح ..

انتخبطت فيه ؟

— أبدا دا فى تانى دور .. وأنا كنت فى الجنينه بسقى التمرحنه .

— وايش جاب التمرحنه للقزاز اللى فى تانى دور ؟

— اللى حصل .. أنا واقف كده تحت النخله لقيت طوبه راحت خبطه

فى الشباك دشدشته .

- ومين اللى حدف الطوبه ؟
- انا عارف بقى .. الله اعلم .
- كان فيه حد غيرك فى الجنينه ؟
- لا .. عم جاب الله كان بيصلى فى البوابة .
- يعنى انت اللى حدفتها ؟
- ما عرفتش .. انا لقيت الطوبه جت فى إيدى من غير ما احس ..
- .. حببت ابعدھا عنى .. رحت حادفھا بعيد . عليت لفوق .. لفوق ..
- عدت النخله ، ولقت ، ومالقيتش حتة تنزل عليها فى الدنيا الواسعه دى
- .. غير لوح القزاز .. اعمل لها إيه ؟
- مالهاش حق .. كان حقها نزلت تانى ترف على دماغك ..
- عشان تبطلك الشقاوه وتكسير شبابيك الناس .
- وهوا انا كان تصدى ؟
- نهايته .. ويعدين عملت إيه ؟
- ولا بعدين ولا قبلين .. حظيت دبلې فى سنانى وقتت يا فكك ،
- والا حاستنى لما آخذ العلقه ؟ . انا عارف انها حاترسى فى الآخر على
- إنى أروح الكتاب .. قلت يا واد خدھا من قصيرھا وروح من نفسك ..
- فين الصندل والطربوش واللوح الصفيح ؟ ...
- أهم مطرح ما بترميھم .. يعنى حايروحوأ فين ؟ .. انا لا بعرف
- أقرا ولا اكتب .
- انا حاططھم على الصحاره اللى فى اودة الكراكيب .
- أهم لازم هناك ما حدش شالھم .
- وقفز سيد من احضائها مندفعاً إلى الصحارة .. فلم يجد عليها
- شيئاً ، وتذكر انه فتح الصحارة عندما كان يبحث عن البنورة ، وتذكر
- ان عدة الكتاب لابد أن تكون قد سقطت من غطاء الصندوق فوقعت فى
- المسافة بين الصندوق والحائط فصعد فوق الصندوق ومد ذراعه
- يتحسس الحيز الضيق فاصطدم بالطربوش وأخرجه وقد تكور وتطبقت

جوانبه وانهارت اركانه وعلته الأتربة ، وخيمت عليه العناكب ، ثم عاد يتحسس بذراعه مرة أخرى فاصطدم باللوح الصفيح . . . أما الصندل فوجده مختفيا فى ركن الحجرة تحت إحدى القرب القديمة .

واخذ يستعدل الطربوش وينقر قرصه بأصبعه ثم يمسحه بطرف كفه ، فلما عاد إلى أصله وضعه على مؤخرة رأسه واخذ يلبس الصندل ، وأمسك اللوح بيده وصاح بجذته :

— أنا مائى .

— استنى لا تقطر .

— عندك إيه ؟ اظن حاتقولى طبق البصاره ، والجبنه والبطيخ ؟ .

لا يا ستى يفتح الله . . حد الله بينى وبين البصاره بتاعتك . . أنا مائى .

— امال حتاكل إيه ؟

— أكل اللى أكله . . معاكى فلوس ؟

— معايه . . عايز كام ؟

— هاتى قرش ساغ . . افطر بتعريفه واتغدى بتعريفه .

— آدى قرش ساغ أهو . . بس اشترى حاجه تربي عليك . . مش

تروح تبعزقه فى الكناسه اللى انت بتشتريها حمص ولب وكرمله . . الحاجه اللى اشتريتها بالليل اهى قاعده زى ما هى ما حدش داقها .

— خليها لما ارجع . . أنا مائى .

— مع السلامه . . حاسب على نفسك ، وامشى على الرصيف ،

وخذ بالك وانت بتعدى الشارع . . روح ربنا يهديك ويحبب خلقه فيك

. . روح ربنا يجعل السعد فى قدمك ويبيتيك ويهنيك . . يا سيد يابن

شوشه .

وانطلق « سيد » قبل أن يسمع بقية الدعوات . . إذ كان يحفظها

من ظهر قلب . . كما كان يحفظ دعوات السوء التى تفيض بها جعبة

خالته « الحاجة زمزم » ، وكان يسائل نفسه أحيانا : هل يسمع الله

فى عليائه مثل هذه الدعوات ؟ .. وهل يفكر فى الاستجابة إليها
أحياناً ؟ .. من يدري ؟ .. على أنه يجب أن يكون على حذر من دعوات
زمزم .. فلو فكر الله مرة فى الاستجابة إليها لأودت بالمصاب بها إلى
أسفل سافلين .

ولم يكد يتجاوز الباب حتى سمع وقع أقدام تهبط السلم ، ثم سمع
صوتا يناديه فى دهشة :

— سيد .. رايح فين ؟

وتلفت وراءه فأبصر « على الخشت » هابطاً فى طريقه إلى
الكتاب .

وتوقف فى مكانه وأجاب فى لهجة لا تخلو من مرارة :

— رايح للفقر الأزلى .. رايح للشيخ كفته بتاعكم .. الواحد
امتكر إن ربنا تاب عليه .. لكن معلش .. أهم يومين وينقضوا .
وعاد « على » يسأله فى دهشة فرحة :

— صحيح رايح الكتاب ؟

— أيوه رايح الكتاب .. إيه ؟ عجيبة ؟ . والا بعد ما شاب ودوه
الكتاب ؟ . بلاش ما روحش ؟

— ما تروحش ازاي . أنا فرحان عشان حانروح سوا .

وسار الاثنان فى الدرب وقد وضع كل منهما يده على كتف الآخر
وأمسك بالأخرى اللوح الصفيح ، وزاد على اللوح الصفيح الذى يحمله
« على » لفافة ربطت بمنديل محلاوى .

ونظر إليها « سيد » وقال متسائلاً :

— دى إيه دى يا واد يا على ؟

— اكل .

— فطار والا غدا ؟

— الاثنين .. وانت .. أمال فين الاكل بتاعك ؟

— معايا ساغ أهوه .

— يا بختك ، وحتاك إيه ؟

— حاخد طبق بليله من عند أبو دومه .

— آدى نكله .

— ويتلاته ملیم شقة وطعميه سخنه من عم سلامه .

— يا بختك .. آدى تعريفه . وإيه كمان ؟

— واتعدى بالتعريفه التانى من عند عم جراحه .

وأطرق « على » وقد بدا عليه الأسف ثم قال متنهدا :

— قولتلها تدينى ساغ وبلاش القرف اللی هی مديهولى ده ..

ما عجبهاش .. قالت لا .. خدلك حاجة تربى عليك ، وبلاش الرمره الی بتلمها من الشارع .. رمره آل ؟

— ادتك إيه ؟

وكان معروف بداهة أن « هى » هذه هى « أم على » ، وأجاب

« على » فى حلق :

— أنا عارف مديالى إيه ، لازم كفته ورز ولحمه .. وعك م الی

بيعملوه فى البيت .

وأحس « سيد » بشهيته تفتح للكفتة واللحمة وغيرها من الكبد

والمخ أو ما يسميه على « عك » ، وكان « على » يكرها لأن أباه قصاب ،

وهو مغرق فى اللحوم إلى أذنيه . أما « سيد » فكان الحال يختلف عنده اختلافا بينا .

ولكنه لم يشأ أن يظهر لهفته على ما يحمل « على » فى لفافته وعزم

على أن يتفاخر بما ينوى أن يكله رغم أنه يعلم جيدا ماذا يبيعه « عم

جراحه » من أصناف المأكولات .

قال « سيد » وهو يقلب شفتيه فى اشمزاز مصطنع :

— أخص .. كفته ولحمه ورز .. حاجة تقرف .. الله يكون فى

عونك .. أنا برضه أم آمنه حبت تعملها معايا .. لكن على مين .

دول صنف ما يخفش إلا من العين الحمره .

وعاد « على » يتهدد كأنه ينوء بأثقال من الحزن .. ونظر إلى
« سيد » بطرف عينية وبدا عليه التردد برهة ، ثم قذفه بطلبه فى صوت
وجل قائلاً :

— تشارك .

وأحس « سيد » من قول صاحبه طرباً شديداً ، ولكنه تجاهل
مقصده وسأله :

— ف إيه ؟

— فى الأكل !

— ازاي ؟

— نشترى حاجات بالساغ بتاعك سوا ، وناكل أكلى سوا ..
إيه رأيك ؟

— لا يا عم .. حد الله بينى وبينك .. أنا ما حبش العك .

— طيب يا سيد .. ابقى اعرفها .. لما يبقى معايا حاجه ما تبقاش
تيجى تقوللى هات حتة .

— انت زعلت ؟

وأجاب « على » بصوت مخفوق كأنه يوشك على البكاء :

— وازعل إيه ؟ كل واحد حر .

— طب ما تزعلش .. خلاص قبلت الشركة .

وضحك على وانفجرت أساريره وأردف سيد قائلاً :

— تحب نشترى إيه فى الفطار ؟

— كل واحد طبق بليله .. وبمدين يحلها رينا .

وكانا قد وصلا إلى ناصية « درب عجور » ولاحت لعينيها دكان

« أبو دومه » ، وقد وقف الرجل على بابها وإمامه « قروانة البليلة »
يتصاعد منها البخار ، وقد أمسك بكبشته وأخذ يقلب البليلة فى القروانة
وبين آونة وأخرى يملأ بها إحدى السلطين ويمد بها يده إلى أحد

الزبائن . وبجوار « القروانة » استقرت صينية « بسبوسة » وبجوارها سلطانية صغيرة بها سمن ، وصينية أخرى بها « بلح الشام » .

وكانت الساعة قد جاوزت السادسة والنصف ، وقد التفت حول الحائوت بعض الصبية والعمال ، وكان من بينهم « محمود زين » و « دقدق الحمى » فى طريقهما إلى الكتاب ، وما كادا يبصران « سيدا » مقبلا ، وهو يرتدى الطربوش والصندل ويحمل اللوح ، حتى بدت عليهما الفرحة وهشاله ، وصاح « زين » مرحبا به مظهرا دهشته :

— إيه ؟ سيد ؟ إيه اللى جابك ؟ يا ميت مرحبا .

والقى « سيد » التحية فى تودة بصوت كساه من الغلظ ما استطاع :

— السلام عليكموا يا رجاله .

وأجابت أصوات متفرقة من هنا وهناك :

— عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

ثم انبرى له صوت آخر يقول :

— ما سلامشى ليه ؟ انت صغير .

وقال « الحمى » مؤدبا واجبه فى الترحيب :

— أهلا .. أهلا .. دا الكتاب حائ نور .

وأردف « زين » قائلا :

— دا الكتاب من غيرك ما يسواش بصله ، ما ضحكناش ضحك

واحد من يوم ما غبت والشيخ كفته مورينا الويل .

وقبل أن يجيب سيد على حديث زين صاح بأبى دومه :

— ادينا اتنين بليله وحياة أبوك يا معلم .

وغرف « أبو دومه » البليلة فى التطبيقين .. وسلم لكل من الصبيين

طبقا . ولم يكن « سيد » ليترك الفرصة تمر دون أن ينتهزها ، فقال

بصوت مرتفع ، وفى لهجة الرجل :

— على حسابى الاتنين دول .

وضحك الرجل وأجاب يقلد لهجة سيد :

- حاضر يا معلم .. تعيش وتصرف .
- وهم « على » بأن يعلن أن المسألة شركة .. وأنه هو أيضا سيعطيه من الكفنة التي معه ، ولكنه فضل ألا يثير غضب « سيد » حتى لا يفض الشركة ، وعزم على أن يحتفل كل شيء في سبيل طبق البليلة .
- وفي خلال تناول البليلة بدأ استفسار الصبية عن سر عسودة « سيد » إلى الكتاب ، بعد أن أعلن في عزم وإصرار أنه لن يذهب إليه ، لأن أباه لا يستطيع الاستغناء عن مساعدته ، وأنه ينو أن يجلس في كشك الصنبور ويترك له العربية والترب .
- كان « زين » أول السائلين :
- ايه بقى يا سيد .. ما قولتناش إيه اللي حصل .. إيه اللي خلاك ترجع الكتاب تانى ؟
- والله ما عجبتيش الشغل .
- ازاي ؟
- اهو محصلش قسمه .
- حد زعلك ؟
- أبدا .. سوء تفاهم بسيط بينى وبين أبويه .
- وإيه السبب ؟
- ولا حاجة .. كل شيخ وله طريقته .. ما اتفقناش قلت له سلامو عليكم .. قال لى عليكم السلام .. يا جماعة الله الغنى .
- لازم فيه حاجة حصلت ؟
- وشاركهما « على الخشت » في التأكيد بقوله :
- ما تقول يا سيد .. احنا فيه بيتنا وبين بعض سر ؟
- وبدا الحاج الصبية .. ووجد « سيد » أنه لابد أن يقول شيئا فhez رأسه في شيء من الأسف ، وبدأ يحضر في ذهنه كذوبة يثير بها نفوس الزملاء ، قال :
- والله يا جماعة أصل الحكاياه مش مستاهله ..

— قول يا شيخ .. قول .

— النهارده الصبح .. قهنا احنا الاتنين زقينا العربيه ورحنا على الكشك مليت انا قربتى وتننى رايح على السرايه دخلت السرايه وفرغت القربه وجيت خارج لقيت الفسميه اللى هناك مليانه سمك .. بتشقى .. ما اهتمتش .. أنا أصلى ما احبش السمك .. لكن بصيت لقيت فى وسط السمك سمكه كبيره كده تطلع أد الواد « على » .

وصاح على فى دهشة :

— صحيح يا سيد ؟

— آمال بكذب عليك !

— وبعدين ؟

— وقفت على حرف الفسقية .. ورحت مادد إيدي ماسكها من رقبته .. قعدت تفلنص .. لكن على مين .. حبت تروح كده والا كده .. ما يمكتش .. رحت شايها من الفسقيه ، ورحت فاتح بق القربه ومدخلها فيه .

— ودخلت ؟

— ما تدخلش ليه ؟ حاتمى ؟ حطيت السمكه فى القربه وأتدورت كده عشان أعدل السطيح ، بصيت لقيتها راحت مطلعها دماغها وجاريه فى الجنيه .. جريت وراها لقيتها جت عند النخله وراحت طالعة بالقربه عليها .

— طلعت على النخله ؟

— بالقربه !! ما هو دا اللى مجئنى .. لو كانت طلعت لوحدها .. ما كانش هننى .. أنا أصلى ما حبش السمك .. لكن القربه .. أمشى من غير قربه ؟ ما يمكتش .. (ثم بدأ يلقي بحكمة أبيه) : أصل السقا الأصلي ما يقلعش السطيح والقربه أبدا .. انتم شغتم عسكرى ماشى وقالع بطلته ؟

وأجاب الصبية بصوت واحد :

- لا .
- اهو كده السقا مننا .. لازم تبقى معاه قريته .. السمكه طلعت على النخلة وأنا وراها .
- وعرفت ؟
- إلا عرفت .. حماه .
- ومسكتها ؟
- لا .. مامسكتهاش .
- ليه بقى ؟
- أنا يدوبك وصلت طرف النخلة ، لقيتها نطت من النخلة ووقتت على حرف الشباك .
- وبعدين ؟ نطيت وراها ؟
- أقول لكم الحق .. أنا أصلى ما حبش الفتش .. أنا خفت .. المسافة بعيدة بين النخلة وبين الشباك .. قلت يا واد تنط ما تنطش .. تنط ما تنطش !! لقيت نفسى كشيت .. وبعدين ؟!!! وبعدين فى القربه !! أنا أصلى اللى يهمنى القربه أصل السقا الأصيل (وعاد يكرر جملة) .
- ولكن الصبية اخذوا يستحثونه بقولهم :
- وبعدين ؟ .. عملت إيه ؟
- ولا قبلين .. النخلة مليانه بلح .
- أحمر والا سمائى ؟
- أحمر .
- فيه مرطب ؟
- ماخذتش بالى .
- هيه وبعدين ؟
- رحى مادد إيدي قاطع سباطه ، ورحى مطوح دراعى وهابد بيها السمكه .

— وتمتها ؟

— لا . . كسرت القزاز .

— والسمة ؟

— نطت على الأرض رحت ناطط فوقها ، السمة قلعت القرية
وجريت على الفسقية . . فى نطتى طب أبويا ومعاها عم جاب الله .
أبويا افكر ان أنا بالعب والا بقطع بلح ، وعم جاب الله تعد يزقق على
القزاز ، وأنا كنت زهقان وروحي طالعه من الجرى ورا السمة
ما استحملتش حد يكلمنى كلمه واحده ، رحت سايب لهم القرية
والسطيح وثى مائى .

وكان الصبية قد انتهوا من اكل البليلة ودفع « سيد » الأربعة
المليمات ، وسار الصبية فى طريقهم إلى الكتاب ، وهم يمشون « سيدا »
بوابل من الأسئلة عن السمة أم قرية ، وعن البلح الرطب والفسقية .
وأخيرا وصل الركب إلى الكتاب .



والكتاب يقع فى أحد الدروب المتفرعة من درب السماكين ،
أو على الأصح فى أحد الفجوات المسدودة التى شبنها بحرف U
القائمة على جانبى الدرب . والكتاب ذو اسمين : اسم رسمى معتد
ملتوى مكتوب على اللافتة الزرقاء الكبيرة المعلقة على بابهِ ، واسم
دارج سهل جرت به اللسان وتعودت نطقه الشفاه . . أما الاسم الأول
فعبثا تحاول قراءته من اللافتة فقد زاده الخطاط — بطريقة كتابته —
تعقيدا فوق تعقيد ، فانت ترى الحروف متشابكة ركب بعضها البعض
والنف بعضها حول البعض الآخر فهى بالتأكيد لم تكتب لتدل على اسم
الكتاب ، بل هى لغز يعجز عن حله إلا من له سابق معرفة بالحل ،
فيذا وقعت أمام اللافتة ، وانت تعرف اسم الكتاب فانك قد تستطيع

قراسته ، أما إذا نويت أن تعرف الاسم من اللفظة ، فليرحمك الله قبل أن تعرفه .

وبعد كل هذا ، أظن من الخير أن أذكر الاسم لك . حتى أكون عوناً لك لو تذهفت بك الظروف السيئة أمامه وابتحتت في قراسته .
الاسم الكريم هو .. هو .. كذا .. خوند .. لعن الله الذاكرة ..
لقد نسيني .. خذ نداخ .. إنه اسم تركي قديم أغلب ظني أنه صاحب الوقت الذي به الكتاب .

تذكرته .. أجل .. أجل .. إنه الأمير كتخدا خوندا طولباي ..
هل سمعت بهذا الأمير ؟ .. ولا أنا ، احفظوه إن أردتم ، وإن استطعتم .
تصوروا هذا الاسم مكتوباً بتلك الطريقة المعقدة ، ثم اعذروا
بعد ذلك أهل الناحية إذا ما ظلقوا اسم كتاب « الأمير كتخدا خوندا
طولباي » ثلاثاً ، اقسموا ورأسهم والف سيف ألا يسموه بغير « كتاب
الشيخ كفتة » .

أي والله اعذروهم ، فالكفتة اسم له معنى ، وهو بلا شك أطعم
من الكتخدا خوندا .. الخ .. والكفتة اسم يجري على لسانهم بسهولة -
أما الكتخدا فهو اسم لا يعرفون له معنى ولا يستطيعون له نطقاً ، وبعد
كل هذا ، أن الكتاب هو فعلاً كتاب « الشيخ كفتة » ، فهو ناظره
ومدرسه ، وهو كل شيء فيه ، أما صاحبنا الأمير كتخدا فما عاد له
وجود في الكتاب ولا على ظهر الأرض ولا يعلم إلا الله مثواه .

اجتاز الصبية الأربعة باب الكتاب ، كتاب الشيخ كفتة المفتوح على
مصراعيه ، وكان أول ما صادفوه هو « الشيخ كفتة » نفسه واقفاً على
باب حجرته يمسح بكفه على شاربيه وشفتيه بعد بصقة كبيرة ختبت
سعالاً طويلاً .

وكان « الشيخ كفتة » يرتدى جبته وقفطانه ويضع عمامته على
رأسه الكبير ووجهه المنتفخ الأجفان المتاكل الأنف من آثار الجدرى .

وكان يشرف من باب حجرته على مدخل المدرسة وساحتها ، وعلى
الفصول المحيطة بالساحة .

ولم يكد « الشيخ كفتة » يبصر « سيد » حتى تجهم وجهه وصاح
بسيد :

— انت ياواد انت .. ايه اللي جابك ؟

وأجاب « سيد » ببساطة :

— رجليه .

وزاد تجهم الشيخ وقال محتدا :

— وكنت غايب ليه ؟

— ما كانش ليه كيف يا سيدنا الشيخ .

— يعنى إيه ما كانش لك كيف ؟ هى المدرسه بالكيف ؟

— قصدى كنت عيان شويه .

— وفين أبوك ؟ .. انا مش حا اقبلك فى المدرسه من غير ما تجيب

أبوك .

— أبويا وراه شغلته .. ما يقدرش يعطله .

— أنا أصلى عارفك ولد لعبى وبطل .

— الله يسامحك .

— متردش .. أنا حاطبك المره دى .. والمره الجايه لو غبت

مش حدخلك من غير أبوك .. مفهوم ؟ .

— مفهوم يا سيدنا الشيخ .. على عينى وراسى .

— جاك خابط فى راسك .. خشن انجر .

— حاضر .

وانجه « سيد » لاحقا برفاقه وهو يدمدم :

— طيب يابن الأروبة .. الصبر طيب .. كله بطلع فى الغسيلى ..

والنبي لاطلع على جنتك البلا .. واخلص الموشع الى صاحب تحديهولى

على الصبح .

وسمع الشيخ الدمدة ، ولم بشك فى أنها سباب ، فصاح بالصبي :

— بتقول إيه يا ولد ؟ .

— بدعيلك يا سيدنا الشيخ

ثم همس لأصحابه :

— ادعوه .. ادعوه .

وأجابه أصحابه فى مثل همسه :

— الله يخرّب بيت أبوه .

— دا راجل طيب .

— الله يخرّب بيت أبوه .

ثم انطلق الأربعة يقهقهون ويتواثبون أمام « الشيخ كفتة » .. . ولم يجد الرجل بدا من الاتزواء فى حجرته .

وكانت ساحة المدرسة رحبة مربعة الأضلاع ، الضلع الأول منها يتوسطه باب الدخول والدهليز الذى يعبر بين حجرتين حجرة الناظر على اليسرة ، أما حجرة المينة فكانت كشكول يحوى مخزن المدرسة والكائنتين والإدارة والمصلّى وعم جراحه والشيخ عبد الرسول والشيخ ثابت .

أما الثلاثة الأضلاع الباقية المحيطة بالساحة ففى الضلع المواجه توجد حجرة بها « سنة ثالثة » ودورة مياه مكونة من مرحاض قذر مرطوب ملوث الجدران مشققها ومسقى (أعنى حجرة للشرب) بها حوض من الزنك قائم على سيقان خشبية ربطت به بعض أكواز من الصفيح .. وكان السقا يملأ الحوض كل صباح ويشرب منه الأطفال بالكيزان بعد أن ترسب الرمال فى قاعه أو بعد أن يرشحونها بمناديلهم بوضعها على فوهة الأكواز .

وفى الضلع القائم على يمين الداخل توجد « سنة أولى » وفى الضلع القائم على اليسار توجد « سنة ثانية » .

وكانت تتوسط الساحة نخلة تعتبر فى المدرسة بمثابة الشيطان فى الدنيا .. ولولاها ما وضعت فى « الفلكة » سيقان وما هوت « الفرقة » على إبدان .

كان الصبية ييكرن للحصول على ثمرها .. وكان الشيخ « كفتة » ييكر لضبطهم متلبسين بجريمتهم فلا يكاد حجر يتصاعد إلى النخلة حتى يكون « جرادة » قد قبض على عنق قاذفه ووضع ساقه فى الفلكة ، ويكون الشيخ كفتة رافعا يده « بالفرقة » هاويا بها على قدميه .

ولم يكن اصحابنا فى وصولهم هذا الصباح إلى المدرسة بالمبكرين ولا بالتأخرين ، وكانت الساحة قد تفرق فيها بضعة صبيان يتحادثون ويلعبون ، وكان عم جرادة قد اتخذ مكانه وسط مطعمه المتنقل تحت النخلة .

كان « عم جرادة » عماد المدرسة والقاسم المشترك الأعظم فيها .. والقدير على كل أعمالها .. كان من ناحية الشكل أشبه بالجرادة ، فهو رفيع الأطراف طويلهما ، تبدو أسنانه السوداء المدببة كأنها المنشار وهو يسير حاملا صفيحتيه المدلتين من حبلين ربطت نهايتهما فى نشابة خشبية محملة على كتفيه .

كان « عم جرادة » كمرأش يقوم بنظافة المدرسة واصلاح أدواتها وإعدادها ، وكان كمتعهد كانتين يقوم بشراء الأطعمة والحلوى وبيعها للأطفال ، وكان كضابط يقوم بعقاب التلاميذ إذا ما أخطأوا إما عقابا مباشرا بسبهم وضربهم من تلقاء نفسه ، وإما عقابا غير مباشر بتقديمهم إلى سيدنا الشيخ ، وكان كمدرس يقوم مقام الشيخ عبد الرسول والشيخ ثابت إذا ما تغيب أحدهما أو تغيبا كلاهما ، وكان كناظر يقبض المصروفات ويحل ويربط فى المدرسة إذا ما غاب الشيخ كفتة .

وأخذ الصبية يتوافدون على المدرسة زرافات ووجدانا حتى اكتظت بهم ساحة المدرسة ، وعلا الصراخ وارتفعت الضجة حتى أصبحت الساحة كأنها عش الزنابير ، ووسط هذا الخليط الصاخب اللاعب

كان « سيد » يتوسط جماعة منهم وهو يحاول أن يقف على يديه بعد أن أعطى لوحه لعلی .

ونجح « سيد » فی الوقوف على يديه والسير بضع خطوات وقد سقط جلبابه على رأسه وسقط طربوشه على الأرض وبدأ عاريا مقلوبا باللباس والفائلة . وصفق الأولاد ، واعتدل هو منتصبا على ساقيه وتناول الطربوش فوضعه على رأسه . : وتناول اللوح من « علی » وصاح متفائرا :

— ها .. حد فيكو يعرف يعملها ؟

واحجم البعض وانبرى البعض محاولا محاولات فاشلة . واخيرا وضع « علی » ذراعه فی ذراع « سيد » وسحبه من بين الجمع قائلا فی تفاخر :

— دانئت ابو السيد والاجر على الله .

وما كادا يسيران خطوة حتى قال « علی » :

— مش حاتشتري لنا حاجة ؟

— حاجة إيه ، إحنا مش لسه واككين البليله ؟ .

— تصدى تشتري حاجة من عم جواده .. أنا شايف عنده موز حلوه كويس .

— لا يا شيخ .. أنا ماحبوش .

— طب إيه رأيك فی الطعميه اللى تقدمه .. شامم ريحتها .. حاجة تفتح النفس .

واخذ « علی » شهيقا طويلا مغريا « سيدا » .. واخذ « سيد » مثله فنفذت رائحة الطعمية إلى خياشيمه وكانت الرائحة فعلا اخاذة فقال ضاحكا :

— معاك حق .. يا الله ناخذ كل واحد بنگله .. انت مش معاك مبيش ؟

— معايا .

— طيب يا الله بينا .

ووقف سيد أمام عم جرادة وقال متخذاً لهجته الرجالية :

— صباح الخير يا عم جرادة .. ازاي الحال ؟ .

ولكن « عم جرادة » لم يكن لديه الفراغ لكي يأخذ معه في الحديث ويعطى ، فقال له في إقتضاب :

— عاوز إيه ؟

— عاوز بأربعة مليم طعميه ، كل بنكله لوحده .

— مافيش طعميه لوحدها ، لازم طعميه وعيش الشقه وطعميتين

بتلاته مليم .

— مين قال كده ؟

— اللي حصل .

— لكن أنا عاوز طعميه بس .

— مافيش ، روح بقى بلاش خوته خليفنا نشوف غيرك .

وملاً الغيظ « سيدا » وبدا اليأس على وجه « على » وهو يرى « سيدا » يهم بالانصراف فقال له :

— معلش يا سيد .. اشترى وخلص .

وأجاب « سيد » هامساً :

— إذا كان معانا العيش .. اشترى طعميتين بتلاته مليم !! .

دا نصاب ، دا ابن كلب حرامى ..

— وحانعمل إيه بقى يا سيد ، مالحنّا مافيش أدامنا غيره .

ولكن سيدا جذب يده وهم بالانصراف ، فقال « على » في لهجة آسفة :

— أنا لو كان معايا فلوس .. كنت اشترت .

وأحس سيد بجرح لكبريائه من كلمة « على » ، فاستدار في حدة

وقال لعم جرادة في غيظ :

— هات شقتين .

وأمسك عم جرادة الشقتين فوضع فى كل منهما طعميتين وناولهما للصبيين .

وأمسك كل منهما بشقته ووضع « سيد » يده فى جيبه لأخراج النقود ثم أخرجها ووضعها فى جيبه الآخر وأخذ ينقلها من جيب لآخر بسرعة وأرتباك وحيرة ، وقد علا وجهه الاصفرار وهمس لعلى قائلا :
— اسمع ، أنا مثل لاقى الفلوس .

— يمكن الرجل بتاع البليلة ما اداكش الباقي ؟

— لا ، ادانى .

— افكر كويس ؟

— فاكركويس قوى .

— أمال يعنى راحوا فين ؟

وضع « سيد » كفه على جيبه كأنه قد تفكر .. وقال لعلى رافعا سبابته :

— لازم وقعوا وأنا باتشقلب .

وكان « عم جرادة » يرقب تردهما وحيرتهما ، فصاح بهما حائا :
— الفلوس .

وقال « على » مهنئا :

— استنى شويه يا عم جراده لما يدور عليهم .. الظاهر انهم وقعوا .

ولكن « جرادة » لم يتمهل بل قفز من وسط الصفائح والصواني وأطبق بكتلا يديه على الشقتين واستعادهما من بدى الصبيين صائحا :

— لما تبقوا تلاقوا الفلوس .. ابقوا تعالوا اشترىوا .

وتأبط « على » ذراع « سيد » ، وقال وقد أطرق برأسه ذليلا محسورا :

— معلش يا سيد .. تعال ندور عليهم هناك مطرح ما كنت بتتشقلب .

ووقف الإثنين يبحثان عبثاً في منطقة الشقلبية ، وأخيراً قال « سيد »
في صوت مهدد :

— أنا حاوريه .. تعال .

وجذب « على » من يده .. واتجها إلى عم جرادة ، وقال « سيد »
هامساً :

— اسمع يا على خليك واقف ورا النخلة .. وكل اللي عليك تعمله
إنك أول ما تلاقى « عم جراده » ساب مطرحه مد إيدك خذ اللي يعجبك .
— وإذا شافنى حد ؟

— ما تخافش .. مافيش حد حايشوفك .

— لكن دى سرته ؟

— سرته سرته .. مالكش دعوه انت .. ربنا يبقى يحاسبنى أنا ..
الراجل « عم جراده » بقاله خمس سنين بيسرقنا . لما نسرقه مره ..
ما افتكرش ربنا يزعل .. فاهم .. كل اللي عليك انت تقف ورا النخلة
وتأخذ اللي انت عايزه ، ومافيش حد يشوفك أبدا .

وذهب « على » فآخذ يسير متلكتا حول النخلة حتى استقر وراء
« عم جرادة » .. واتجه « سيد » إلى الحجرة المشتركة بين المدرسين
والمخزن و « عم جرادة » والكائنة أمام حجرة الناظر حتى وقف بجوار
نافذتها المطلّة على الساحة ، وأطل برأسه فلمح الشيخ عبد الرسول
والشيخ ثابت وقد جلسا على إحدى « الدكك » وقد دب كل منهما يده
في طبق فول مشترك .

وعلى حين غرة صاح « سيد » بأعلى صوت :

— حريقه .

وقفز الشيخان من مكاتهما مذعورين وصاحا في نفس واحد بأعلى
صوت :

— حريقه .

ووصلت صيحاتهما إلى « الشيخ كفتة » فاندلع من حجرته وهو

بصيح بأعلى صوت وهو لا يرى شيئا :

— حريقه .

وهاج الطلبة وماجوا واندفعوا نحو الباب يتدافعون بالمناكب والأيدي ويصبحون :

— حريقه .

واندفع « عم جرادة » بلا وعى إلى اتجاه الباب ليتبين أين الحريق . وهكذا اندفع كل من بالمدرسة وراء الحريق ، ووجد « على » نفسه « بتقدرة قادر » وقد وقف وحده أمام أصناف الأطعمة بلا رقيب ولا حسيب .

وهم أن يأخذ ما يريد ، ولكنه وجد الكل مندفعين إلى باب المدرسة في هياج وجنون ، فلم يدر إلا وهو يندفع وراءهم ويصيح هو أيضا :

— حريقه .

واحد فقط هو الذى لم يكن يجرى مع القطيع ، وهو « سيد » ، فقد انزوى في أحد الأركان ، وكانت دهشته شديدة حين رأى صاحبه الغبي يجرى وسطهم مذعورا .. وهتف لنفسه في أسي :

— يخرّب بيتك .. أنت كمان بتجرى ورا الحريقه وأنا عاملها علشانك ؟

ثم اندفع بسرعة إلى المأكولات المستقرة تحت النخلة ، وأخذ يعبىء في جيبه بسرعة ما خف وزنه وغلا ثبته .

ورويدا رويدا هذا القطيع عندما أعياهم البحث عن مكان الحريق الذى أفزعهم كل هذا الفزع .. وبدأ الناظر تحقيقه عن مصدر هذا العبث .

فشهد الجميع ومن بينهم جرادة — الذى لم يكن الناظر يشك في شهادته — أن أول من استغاث من الحريق هما الشيخ ثابت والشيخ عبد الرسول .

وحاول الشيخان عبثا أن يقنعا الشيخ « كفتة » أنهما سمعا الاستغاثة من الداخل . وأنهما كانا ضحية مؤامرة .. ولكن الشيخ اندفع في تقريعها قائلا :

— دى مسخره .. دا لعب عيال .. أنا لازم اشوف شغلى معاكم .. انتم عاملين زى تنابلة السلطان .. اكل ونوم .. والواحد منكم آخر الشهر يقبض الماهية وهو نايم .

وفى تلك اللحظة كان « سيد » و « على » قد انزويا فى حجرة الشرب ، واخذ « سيد » يخرج الطعمية من جيبه قائلا فى لهجة خليط من الفرحة والسخرية :

— خد اتسمم .. الطعمية نقتع على الجلبية واللباس ، حضرتك بتجرى ورا الحريقه ؟

— والله أنا لما لقيت المدرسه كلها بتجرى .. قلت لازم حريقه صحيح .

— معذور .. أنا كمان الفار لعب فى عبي ، وكنت حاجرى .. ولكن قلت يا واد عيب .. خليك تقيل .. خد يا عم .. وادى كمان موز من اللى كنت عايزه .. وادى شوية براغيت الست ، وادى حتتين خيار مخلل للفدا .. مبسوط يا عم .. إيه رأيك ؟

وقبل أن يبدى « على » رأيه كان « جرادة » يدق الجرس وكان الصبية يصطفون استعدادا للدخول إلى الفصول .

اصطففت الطوابير الثلاثة فى ثلاثة أضلاع ، كل طابور أمام الفصل الذى سيدخله . وفى الضلع الخالى وقفت ادارة المدرسة وهيئة التدريس وجميع المهتمين على مرافقها .

وقف الأربعة الكبار .. كفتة وعبد الرسول وثابت وجرادة وقد أمسك كل منهم باحدى أدوات الارهاب : كفتة بالفرقلة يطرقع بها على جانب فخذيه ، وثابت وعبد الرسول كل منهما بخيزرانة ، وجرادة بالفلكة يعيد ربط أحبالها جيدا .

وكان « على » يهمس فى أذن « سيد » :

— الطعميه سخنه .. أعمل فيها إيه ؟

— اثبت .. اوعى تتحرك .. لحسن ننكشف .

— حافظل مخليها لامتى ؟

— لغاية ما تخش الفصل .

— وبعدين ؟

— ناكلها .

— ازاي ؟

— اول حصه عندنا قرآن ، ورينا يسهل ويخلى الشيخ عبد الرسول

ياخد له تعميله زى عوايده ، وناكل زى ما احنا عايزين .

— لكن افرض ...

ولكنه لم يتم سؤاله فقد أسكته صوت « الشيخ كفته » يصيح

ناهرا قبل ان يبدأ خطبته الصباحية :

— الواد اللى بيتكلم ده يسكت أحسن له لحسن آجى أكسر الفرقله

على دماغه .

وكان هذا هو انذاره العام الطبيعى قبل ان يبدأ حديثه ثم بدأ

الحديث قائلا :

— اسمع يا واد يابن الكلب منك له .. بقى انا بقالى ثلاثين سنه

فى المدارس ماوردش على اللى حصل النهارده . ثلاثين سنه ماشفتش

هيجان وزيطه زى اللى حصلت دلوقت ، وعلى إيه .. على الفاضى ..

حريقه .. حريقه .. أنا بدى أعرف مين اللى عمل الفصل ده عشان

أنقصه قدامكوا هنا ... أشرحه .. أنا كنت ناوى أجلدكم كلكم ..

لكن حاسبكم المره دى .. عشان أنا عارف مين اللى يستاهل الجلد

حقيقى (ثم نظر بطرف عينيه إلى ثابت وعبد الرسول) ، ودلوقت عايزكم

تخشوا الفصول من سكات .. ياللا ..

ودارت الطوابير وبدأ أفرادها يدخلون الفصول فرادى متخذاً كل منهم مجلسه فوق التخته الخشبية .

وجلس « على » بجوار « سيد » واضعاً كل منهما لوحه الصفيح وقلمه السط على ظهر التخته ، دانعا بمحتويات جيبه فى باطنها ، ولم يتح لهما دخول « الشيخ عبد الرسول » فى أعقاب التلاميذ فرصة التمتع بشيء من محتويات الدرج ، فجلس كلاهما فى علق ولهفة يرقب فرصة غفلة من الشيخ حتى يدنع فى فيه بقرص طعمية أو بقطعة خبار .
وامسك « الشيخ عبد الرسول » بقطعة الطباشير وكتب التاريخ الهجرى ، ثم كتب فى منتصف السبورة « قرآن كريم » .

والتفت إلى التلاميذ قائلاً فى تودة :

— النهارده حانبتدى « سورة عبس » .

وهمس « على لمسد » :

— وعبس دا يبقى مين دا كمان ؟

— أنا عارف ؟ لازم يبقى واحد من أعداء النبى زى أبو لهب وأبو

جهل .. باين كده من اسمه .

ولم يقتنع « على » ورفع أصبعه إلى أعلى صائحاً :

— سيدنا الشيخ ؟

— عايز إيه يا واد ؟

— عبس دا يبقى مين ؟

— مش ضرورى تعرف .. انت عليك أنك تحفض من سككات ، ومن

غير غلبه .. غاهم والا لا .. ناقص بقى تقول لى مين تولى ومين الأعمى -

ثم وجه القول إلى التلاميذ :

— دلوقت، امسحوا السوره القديمه من على الألواح .

وكان قوله هذا بمثابة أمر بالبصق ، فقد اطلق كل منهم أكبر بصقة

جاء بها لعبابه على السورة القديمة كان بينهما ثرا ، ثم امسك بخرقه تذرّة

سوداء من كثرة ما علق بها من مسح الكتابات السابقة وأخذ فى تحريكها على صفحة اللوح بحركة دائرية سريعة ماحيا كل اثر لبقايا السورة .

وترك « الشيخ عبد الرسول » فرصة للمسح ثم بدا حديثه :

— دلوقت كل واحد منكم يكتب التاريخ فوق ويكتب فى وسط السطر قرآن كريم وتحته جزء عم .. خلاص .. اكتب بقى .. « بسم الله الرحمن الرحيم .. عبس وتولى .. أن جاءه الأعمى » .

واستمر « الشيخ عبد الرسول » فى الإملاء وهو يلوك الكلمات فى فمه كأنه يمضغها مضغا ويحرك شفثيه بمخارج الحروف فى حركات مبالغه كأنه ممثل فى سينما صامتة .

وفى خلال الإملاء همس على لمسيد فى ملل وضيق :

— لسه فاضل كثير ؟

— علمى علمك .. يعنى هوا انا كنت دخلت جوا السوره .. انا لا اعرف عبس ولا عمرى شفته .

— لكن انا بطنى نونوت .

— استنى شويه .

— والطعميه حاتبرد .

— معلهش استحمل .

وأخيرا بدأت التباشير عندما صاح الشيخ عبد الرسول « صدق الله العظيم » . وهمس « على » فى فرحة شديدة :

— يا سلام .. أهى دى أكثر حاجه بلحبها فى السوره .

وقال « الشيخ عبد الرسول » معقبا على السورة :

— دلوقت خلصنا كتابه وعليزين نبتدى الحفظ .. مش عايز واحد منكم يون والا يسكت .. يالله ابتدى .

وكان امره هذا بمثابة إطلاق للألسنة من عقلاها .. أولاً بذانا بثورة ، فقد اندفع الصبية بالصياح مرة واحدة هاتفين :

— عبس وتولى أن جاءه الأعمى .. عبس وتولى أن جاءه الأعمى .

واخذوا يكررونها وهم يحركون جذعهم الأعلى إلى الإمام وإلى الخلف فى ذبذبة سريعة أشبه بحركة بندول الساعة ، ووقف الشيخ عبد الرسول يرقبهم ، وأخذ يحرك بصره بينهم على يكتشف مكسالا لم يشارك الجمع فى ضجته وصياحه فلما اطمأن رفع عصاه وهزها فى حركة انذارية قائلا :

— مش عايز واحد صوته يوطى .. بكره حاسمها لكم كلها ..
واللى مش حالاتيه حافض .. حاطط نفسه .. أنا حاوصل لحد دورة
اليه .. عايز اسمع صوتكم من هناك .

وخرج « الشيخ عبد الرسول » ليقضى حاجته واصوات الزنابير
تطن فى أنحاء المدرسة « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » .

ولم يكد الرجل يختفى حتى بدأت الضجة تخفت وأخذ الصياح
يتضاءل ، حتى انتهى إلى سكونية نسبية لا يسمع فيها إلا أحاديث الصبية
بأصواتهم العادية وتعليقاتهم ونكاتهم .

وكان أول ما فعله « على » بعد خروج الشيخ أن هتف لصاحبه :

— هيه .. أطلع ؟

— أصبر شويه .. لحسن الرجل يرجع : « عبس وتولى أن جاءه
الأعمى » .

— خلاص مشى .. ماتخافش .

وعندما اطمأن سيد إلى ذهاب الرجل كف عن ترديد السورة ،
ومد يده فى الدرج فأخرج الطعمية وقال لعلى :

— مش معاك عيش ؟

— أبوه .. مربوط فى اللغه .

— طيب هات لقمه .. والا حفاكلها حاف ؟

— مايفيش وقت للفتح والتغل ، نكلها حاف أحسن .

— على رايك .. العيش اهو بناكله فى كل وقت .

ولمح دقدق الحمى — وكان يجلس فى أقصى الفصل — فكى الصبيان
وهما يعضغان ، فصاح بسيد :
— بتاكل إيه يا وله يا سيد ؟
— طعميه .
— هات حته .
— خلصت .
— اخص عليك .. أنا مش مديك امبارك بطاطايه ؟
ونظر إليه « سيد » فى غيظ وصاح به :
— دى ما كانتش حته بطاطايه دى اللي حاتزلفى عليها .. أنا مش
ادينك تصادها حته نبوت غفير .. كل شويه تقوللى البطاطايه ..
يلعن ابو دى بطاطايه .. لأبو اللي ياخذ منك حاجه بعد كده .. خد .
واخرج من الدرج قرص الطعميه الباقى .. ثم قذفه بقوة فى اتجاه
دقدق .
ولم يكد « سيد » يقذف القرص ، حتى انبعثت فى الفصل ضجة
مفاجئة ، واندفع الصبية فى ترديدهم الجنونى : « عيس وتولى ان
جاءه الأعمى » .
كان الشيخ عبد الرسول قد عاد ، وفى اللحظة التى وطأت قدمه
عتبة الباب كان قرص الطعمية ينطلق كالقذيفة ، عابرا الفصل من أدناه
إلى أقصاه .
ولمح الشيخ عبد الرسول القرص الطائر ، وراه يهبط فيستقر
على درج « دقدق » دون أن يعنى الضبى بأخذه .. بل تركه يتدحرج
ليسقط على الأرض ، وهو مستمر فى ترديد السورة ، والتراجع إلى
الإمام وإلى الخلف ، كأن القرص لا يعنيه .
وضرب « الشيخ عبد الرسول » بالخيزرانة على اقرب درج له ..
فكف الصبية عن الصياح ، وحملتوا فى وجهه منصتين .
وصاح الشيخ مشيرا بطرف عصاه إلى دقدق :

— هات ده .

وهز ددق رأسه كأنه لا يفهم ما يعنى الشيخ ، وعاد يصيح ناهرا :

— هات الطعميه اللى وقعت دى .

ونظر « ددق » حوله فى دهشة كأنه لا يعرف شيئا عن قرص الطعمية .. ثم مد يده فرمعه واحضره للشيخ .. وعاد الشيخ يصيح متسائلا :

— إيه ده ؟

— طعميه .

— جت منين ؟

— إيش عرفنى .

— مين حدنها عليك ؟

— بش عارف .

— أنا شفتها طابره فى الهوا ووقعت عليك .

— وأنا برضك شفتها زيك كده .

— يعنى ما تعرفشى مين حدنها ؟

— أبدا .

والتفت الرجل إلى الصبية وصاح بهم متسائلا :

— مين اللى رمى دى ؟

ولم يجب أحد .

— ما فيش حد شافه ؟

واستمر الصبية فى صمتهم .

وزاد غضب الرجل ، وازداد هديره وصاح مرعدا :

— يعنى السبا بمطر طعميه .. طيب أنا حاوريكم .. قوم اتقف

منك له .

وبدا الرجل بتفتيشهم وتفتيش أدرجهم .. ولم يكذب يقترب من « سيد » حتى توقف أمامه ثم أخذ في شمه قائلا له :

— افتح بقلك .

وشم الرجل فمه وقد بدت عليه علامات الفوز وأردف قائلا في شماته :

— افتح درجك .

ولم يكذب يلقي بنظرة على درجة حتى قبض عليه من عنقه صائحا :

— انت ما فيش غيرك .. انا عارفك كويس .. افتح إيدك .

ولم يجد « سيد » بدا من تحمل العقاب ففتح يده راضحا ، ثم ركع على ركبتيه كما أمره الشيخ مواجهها الحائط .. رافعا يديه إلى أعلى وذنه يعمل بسرعة يفكر في وسيلة للثأر من الشيخ عبد الرسول .

وحانت الفرصة سريعا عندما وجد الشيخ يقترب منه معطيا وجهه للتلاميذ موليا ظهره له فمد يده بسرعة ونزع دبوسا يشبك به زر طربوشه .. ثم وضعه عموديا في جبة الشيخ ووضع الزر في جيبه .. ثم رفع يديه كما كان .

ولم تمض لحظة حتى اتجه الشيخ إلى كرسيه ثم هبط عليه ماداً أطرافه محاولاً إراحة جسده ، ولكنه لم يكذب يستقر على الكرسي .. حتى تفز صارخا صرخة حادة مستغنيا بقوله « آي » .

وقبل أن يبدأ التحقيق كان الجرس قد قرع ، وانطلق الصبية يعدون في الفناء .

ومرت الحصة تلو الحصة حتى حلت فسحة الغداء قبل الثانية عشرة ، وجلس « سيد وعلى » على عتبة أحد الفصول وأضعين بينهما لفافة « على » ، وقد فتحها وأخرج ما بها من رز ولحم وكفتة وبلح .

وأخذا يتناولان طعامهما ، وهما يتسامران .. وبعدان العدة لما

ينويان ان ينعلاه بعد الظهر ، ومر بهما « دقدق » فصاحا به متشبثين ،
وقال « سيد » داعيا :

— تعال يا دقدق كل .

— انا رايع اشترى غدا من جراده .

— نعال يا شيخ ، الأكل كفايه ، لقمه هنيه تقضى ميه .

— طيب اما اشترى حاجه وآجى أكل معاكم .

وذهب دقدق إلى مطعم « جرادة » تحت النخلة وقد تراحم حوله
الصبية .. وأخذ الرجل يفرف من صفيحتيه التى امتلأت إحداها بالفول
النابت وماء الفول النابت .. والأخرى امتلأت باللفت وماء اللفت ،
وكانت الصفيحتان هما عباد مطعم جرادة والحاويتان الأهم اغذيته .

وبعد برهة عاد « دقدق » إلى صاحبيه ، حاملا بيديه طبق الفول
وعليه العيش وباليد الثانية طبق اللفت .

وبينما هم منهمكون فى الأكل صاح « سيد » فجأة :

— يا خبر .. دانا كنت ناسى ؟

وسأله دقدق :

— ناسى إيه ؟

— النهارده المولد .. النهارده الليلة الكبيره .

— أيوه حقيقى .. لازم نروحه .. انا شايههم ناصبين تياترو فى
الخرابه اللى ورا الجامع .. وشايف شواذر تاتيه .. ما اعرض فيها
إيه .

— حقنا نقول للشله كلها عشان نروح سوا .

— دلوقت نقول « لزين » و « عبد الله » و « سيد » .. واحنا

مروحين نفوت على « حريشه » و « زكى » .

وانتهى الصبية من الطعام ، وانتهت الفسحة وعادوا إلى فصولهم
لاتمام دراسة اليوم .. ما بين قرآن ، وحساب ، ولغة عربية .

وأخيرا انتهى اليوم الدراسى وخرج الصبية متراحمين على باب المدرسة .. وما لبثوا حتى تفرقوا فى الدروب والطرقات .. وسار « سيد وعلى » وبقية الثلة عائدين إلى درب القط وهم يتواشون فى الطريق ... وان كان « سيد » لا يفتأ يتذكر حادثة الصباح بين آونة وأخرى ، فتثقل على نفسه ، ويزداد ثقلها كلما قربت المسافة إلى البيت .. وقرب منه طيف أبيه وما ينوى أن يفعله معه .

واخذ يطمئن نفسه .. مبعدا عنها طيف عقاب قادم .

ماذا يمكن أن يفعل به أبوه ؟ ان اقصى ما كان يهدده به هو إعادته إلى الكتاب ، وقد اقدم عليه هو بنفسه دون حاجة منه إلى انتظار حكم أبيه ، والواقع أن الكتاب ليس بالشئ الكره إلى هذا الحد .. حقيقة انه سيحرم من حديقة السراية ومن البلخ والجوانة ، ولكن أى متعة دائمة فى هذه الحياة ، وإى نعمة مقبلة ؟

ولكن هل ترى الأب سيكتفى بهذا العقاب ؟ أم تراه سيضربه ؟ وحتى لو كان ينوى أن يضربه .. فليضربه .. علة تقوت ولا حد يموت .

وأخيرا وصلوا إلى الدرب ، وتفرق كل منهم إلى بيته بعد أن اتفقوا على اللقاء تحت « التوتة » ودخل على وسيد بيتها فاندفع على يصعد السلم وسار سيد فى الفناء مسترقا الخطى ..

كانت الساعة تقرب من الثالثة والنصف ، وكانت أم آمنة فى جلستها الشاردة الحزينة وقد أسندت خدها على كعها وأمسكت عصاها بيدها الأخرى ملوحة بها على الأوزتين فى حركة لا ارادية ، ولكنها لم تكد تسمع خطا الصبى المتسللة حتى انفجرت أسلريها وصاحت منادية :

— سيد ؟

— إيه يا ست .. ما ترعقش كده .. هو أبويا هنا ؟

وضحكت « أم آمنة » وقالت :

— ما تخافش .. أنا استسمحته خلاص أول ما جه .. وسامحك ..
هو فيه أطيب من قلبه .. قلبه أبيض زى حنة البفتة .. بس إياك ربنا
يهديك وتبطل الشقاوه .. أنا ما رضيتش أقول له على الجلابيه اللي
انت مقطعتها .. أنا جيت النهارده اغسلها لقيتها طلعت فى إيدى ..
انت أصلك معجون بمية عفاريت .. تعال هنا عندي .

واقترب منها وارتمى فى أحضانها فضمته فى لهفة وشوق وقالت له :
— جعان ؟ أجب لك تاكل .. والا تستنى لما ابوك يصحى ..
هو مارضاش ياكل إلا لما تيجى ونقعد ناكل سوا .. وزمانه حايصحى .
— أنا مش جعان قوى .

— كلت إيه ؟

— كلت مع على .. امه كانت مدياله كفته ورز ولحمه وبلح .

— وعملت ايه بالساغ ؟

— اشتريت بأربعة مليم بليله .

— والسته مليم ؟

— وقعوا منى وأنا بتشقلب .

— ان شالله تتفضح .. الشقلبه دى لزومها إيه .. ربنا خلقتك
عدل تتشقلب انت ليه .. بس اعمل فيك إيه ؟ . ربنا يهديك .. ويحب
خلقه فيك .

ثم استمرت فى دعائها الطويل ، فلم تنقه منه إلا على صوت طرق
بالباب .

الفصل السادس

فى المولد

كان الطارق هو شحاتة ائندى ، وقد وقف بالباب بنفس منظره الذى كان عليه بالأمس .. ينقصه الجاكّة ويزيد عليه لفافة كبيرة فى احدى الصحف القديمة قد وضعها تحت ابطه ...

وقبل أن يجيب على سؤال ام آمنة التقليدى « مين ؟ » . كان « سيد » قد ترك أحضان جدته واندفع إلى الرجل مرحبا به ترحيب صديق أو قريب ، وهو يهز يده ويقول :
— أهلا وسهلا عم شحاته .. اتفضل .

لقد أحب « سيد .. عم شحاته » لأنه كان بادی الطيبة ، سليم الطوية ، مرحا مهزارا طرويا .. كان من نوع لا يمكن إلا أن يحب .

ولكن « ام آمنة » لم يبد على وجهها كثير ترحيب ، فتد كائت الصورة التى ارتسمت فى ذهنها عن « شحاتة » (مما قصه عليها « شوشة » باختصار عن وائمة الأمس) هى صورة محتال نصاب تسبب فى خسارة « شوشة » اربعة قروش ذهبت مسدى بلا أمل فى استردادها .

وكان أول ما فعله « شحاتة » عندما اندفع إليه « سيد » مرحبا هو أن مد يده فى جيب جلبابه وأخرج منه نايًا صغيرا وأعطاه « لسيد » قائلا :

— ايه رأيك فى الصغاره دى ؟

— لمين ؟

— لك .. انا جاييها لك مخصوص .. كويسه ؟

— هاليه .

وقلب « سيد » الناي الصغير فى يده ، ثم نفخ فيه بشدة ، ولكن « شحاتة » تناوله منه واخذ ينفخ فيه برفق ويحرك عليه أصابعه مصدرا نغما لطيفا راقصا .. قائلا لسيد :

— كده .. انا حاعلك ازاي تزمز به .. امال فين أبوك ؟

— أبويه جوه .. كان مقيل شويه .. أصحيهولك ؟

— لا ماتلقوش .. أفوت عليه كمان شويه .

وهنا سمع صوت « شوشة » يصيح من الداخل :

— مين يا واد يا سيد ؟

وما لبث حتى بدا بباب الشقة ، ولم يكدر يرى « شحاتة » حتى صاح به مزحبا :

— أهلا وسهلا .. انتفضل .

واقترب « شحاتة » مصانحا « عم شوشة » وجذبه معه إلى داخل البيت ، بينما انهمك « سيد » فى الصغير بالناى .

واستقر الرجلان على الشلطة المواجهة للأريكة المنهارة . وبعد تبادل التحيات مد « شحاتة » يده إلى جيبه وأخرج منه بضعة قروش سلمها إلى « شوشة » قائلا :

— الأربعة ساغ أهم يا معلم .

— وليه التعب ده .. أنا مش قلت لك على مهلك قوى .. أنا مش مستمجل عليهم .

— كتر خيرك . أنا عمرى ما فيش دين تعبنى أد دينك أنا مش حانسى جميلك أبدا .. انت عملت جميل فى راجل ما تعرفوش ..

ولا تعرف إذا كان حابره والا لا .. انت عملت معروف .. لله .. ودا
المعروف الحقيقي .

وضحك « شوشة » قائلا :

— ولا معروف ولا حاجه يا أخى .. انت أصلك راجل طيب ورزقت
فى رجلك دى كل الحكايه .. ربنا هو اللى بيعت .. مش العبد .
ولم يجد « شوشة » بدا من أخذ النقود ، وهم « شحاتة »
بالنهب ، ولكن « شوشة » صاح به مجلسا إياه :

— على مين ؟

— نقوم نشوف شغلنا .

— والله ما انت آيم دلوقت ... أقعد اما ناكل لقمه معنا .. احنا
لسه ما تغدينائس .. أنا كنت تعبنا شويه ، وقلت أستنى « سيد »
لما يرجع بن الكتاب .

ثم صاح مناديا ابنه :

— يا سيد ، واد با سيد .

وكف سيد عن التفتخ فى النأى ودخل ملبيا نداء أبيه :

— قول لستك تعضر لنا الأكل .. أنا حاكل أنا ر « شحاتة أفندى »
.. هات الطبلية هنا .

ثم نهض إلى الفناء متجها إلى « أم آمنة » وقال فى صوت خافت :

— الراجل الغلبان بتاع امبارح جه يرد الدين .. شفتى بقى الأمر
من كده .. أنا حاخليه ياكل لقمه معايا .. مش فيه أكل كفايه ؟

— فيه يا خويا أوى .. لازم تمسك فيه .. أنا كنت كارهاه لما حكيت
لى عنه امبارح افكرته نصاب .. ظلمته .

— على العموم ابعنى « سيد » يجيب لنا حقة جبنه ورطلين بلع
مع الأكل الموجود .

— اطمئن يا خويا عندنا كل حاجه .. خيرك كثير .. الجبنه موجوده
والبلع موجود ، وزكيه نزلت عملت لنا كام طبق كشك بالكبييه ، ونلفلت

شوية رز .. خش بس انت مع الضيف ، وانا ابعت لك كل حاجه ..
اتعد في اودتك لغاية ما قوم انا اوضب لك الطبلية .

وعاد « شوشة » إلى « شحاتة » فنهض معه إلى حجرته ، وجلس
الاثنان على حافة الفراش يتسامران .
وكان ذهن « شحاتة » قد شرد في الآيات القرآنية المعلقة في
مدخل البيت .

وعاد يستعيدها في ذهنه :
« ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس
والثمرات ، ويشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله
وإنا إليه راجعون » .
« والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون » .

هذه الآيات لم توضع سدى .. ولم تعلق اعتباطا .. ان واضعها
ينشد بها الصبر ، ويريد بها أقوالا تشد أزره وتخفف عنه وقع مصاب
نزل به .

« والصابرين في البأساء والضراء » .
أجل .. أجل .. ان صاحب الدار لابد أن يكون أحدهم .. أحد
أولئك الصابرين في البأساء والضراء .. والذين ابتلوا بشيء من الخوف
والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات .

ودار الحديث بينهما عن زمزم .. وعن السقايين .. وعن « سيد »
وما فعل في الصباح .. حتى دخل « سيد » يعلن أن الأكل جاهز .
ونهض الرجلان وجلسا حول الطبلية التي رص عليها طبقان من
الكشك غرس في باطنهما بعض كرات من الكبشة وطبق من الأرز
وحزمتان من الفجل وقطعة جبنة وطبق به بلح امهات .
واتخذ « سيد » مجلسه بين الرجلين وهو يقول لأبيه :
— شفت الصفاره اللي جابها لى عم شحاته ؟

وامسك شوشة بالنای يفحصه ثم قال :

— د نای کویس .. مش خساره تدهوله يخسره ؟
واجاب شبحاته :

— ده عندى من أيام زمان .. ده اعز صديق لى ، ولما ازعل انفخ فيه يضيع زعلى ، أحسن واحد يجاوبنى وينسينى همومى .. لكن دلوقت أقدر استغنى عنه لأنى لقيت اعز منه .. كنت محافظ عليه .. عشان ما كنتش فاكرا فيه مروءة بين الناس ، لكن دلوقت غيرت رأى .
وضحك شحاته ثم أرف :
— على العموم أنا حاعلمه عليه ، واظن لما أحب اصفر فيه شويه مش حايقول لا .. والا إيه يا « سيد » ؟
— طبعا يا عمى .

واخذ الثلاثة فى التهام ما فى الأطباق .
وفى الخارج كانت أم آمنة تتناول نصف رغيف به قطعة من الجبن وهى قريبة راضية ، حامدة الله أنه سترها مع الضيف .
وانتهى الجميع من الطعام .. واحضر « سيد » الطشت والأبريق فغسلوا أيديهم ثم توضأ الرجلان لصلاة العصر ، وقاما للصلاة .
وانتهز « سيد » الفرصة ، فانطلق إلى الخارج ، وقد أخذ كيس البلى وصاح بأم آمنة قبل أن يخرج :

— أنا رايح اللعب .

— ما تتأخرش .

— لا حتأخر .. النهارده مولد الخواصى .

— يعنى حتتأخر لامتى ؟

— أنا عارف بقى .. أنا حاروح مع العيال ولما يرجعوا خارج معاهم .

— استنى لما أقول لا بوك .

— خليكى عاقله .. لما أخرج ابقى قوليله .

— بس متأخرش لبعد العشا .. يعنى اسمع أدان العشا مع
رجليك .
— طيب .

ثم أطلق صفيره الطويل مناديا « عليا » ولم يفته الصنير حتى
كان « على » واقفا بجواره ، وعدا الاثنان إلى نهاية الدرب حيث ملعبهما
بجوار السبيل .

لندع الصبيين فى لعبهما اليومى وعراكمها الطبيعى ولنعد إلى
المعلم « شوشة » و « شحاتة افندى » ، انتهى الاثنان من الصلاة وكانت
الساعة قد شارفت الخامسة .. وارتنى « شوشة » ملابس الخروج
وتهاى شحاتة للاستئذان والانصراف قائلا :

— ربنا يجعله عامر ، وربنا يقدرننا على رد جمالك .
— برضك بتقول جمالك ؟ انت رايح فين ؟
— ولا .. اهو حاتمشى لفاية القهوة يمكن ربنا يرزقها .
— طيب ما تيجى تاخذ لك تعبيره على القهوة بتاعتنا . تعرف تلعب
طاوله ؟
— اعرف اوى .

— طيب تعالى ناخذ لنا تعبيره ، ونلعب لنا دورين .. وبعدين نزق
على المولد .. نسهر عند الشيخ عبيد .. راجل أمير وطيب ، وعودنا
كل سنه يعمل لنا خاتمه فى المولد .. شوية اكل على شوية تعاليق
وتفاريح .. يا الله بينا .

وتذكر شحاتة ان الاربعة قروش التى اعطاها لشوشة هى آخر
ما يملك من حطام الدنيا .. وتذكر انه بات ليلته السابقة على الأرض ..
بعد ان باع كل ما يملك من اثاث الحجرة التى كان يقطن فيها فى شارع

الخليج .. وإن الأثاث البالى والجاكتة الممزقة قد سدت ما عليه من ديون ، وأنه أضحى بعد ذلك لا يملك سوى عدة الشغل التى ضمتها اللفافة .

كل هذا جعله يعدل عن صحبة « شوشة » حتى لا يكون عبئا عليه وحتى لا يعود فيكلفه مرة أخرى بضعة قروش لا يعرف متى يستطيع ردها .

وأخيرا قال :

— عافينى النهارده .

— عشان إيه ؟ انت مش قلت ما وراكش حاجه .. ورايح تقعد على القهوة . آهى تعده بيقعده ، يالله قوم بينا .

— واللله اللى معايا دى .. أقدر أسيبها هنا .. لغاية ما نرجع ؟

— أوى ، هات أحطها لك جوه على الصحاره ، عشان محدش يلعب فيها .

وهكذا ترك شحاتة اللفافة .. الحاوية لكل ممتلكاته فى الدنيا ، وخرج مع شوشة ، متجهين إلى المقهى فى شارع البغالة .

ووصل الاثنان إلى المقهى والشمس قد خفت حذتها ومالت إلى الغروب و « عماره » القهوجى قد رفع « التندة » وأخذ فى رش الأرض ، حول المتاعد التى قد رصت على الرصيف وهو يغدو ويروح فى خطوات سريعة وقد افتر ثفره الواسع عن ضب عيار ٢٤ ، وأخذ يصفق بيديه بين آوثة وأخرى مرحا بكل من هب ودب .. وكل من قام وقعد ، أو راح وغدا .

وانتهى « عماره » من عملية الرش وسقى بضغ قصارى العستر والريحان وحصا اللبان المرصوفة بجوار الحائط وعلى الرصيف .

وجلس « شوشة » على مقعد أمام احدى المناضد النحاسية الصغراء الموضوعة على الرصيف فى أحد الأركان ، وجلس « شحاتة » على

المقعد المواجه له .. وأقبل « عماره » مفترقا عن الثغر الذهبى ، مصفنا
ببيده طريا وهو يصيح :

— يا ميت فل .. يا ميت حلاوه .. القهوة نورت يا معلم شوشه ..
يا مرحبا بضيفنا الجديد .

وقال شحاتة موضحا اسمه :

— محسوبك شحاته .

— ومحسوبك عماره .

— عاشت الأسامى .

— انعم واكرم . خدامكم .. طلبات السيادة إليه ؟

وكان على « شوثة » أن يجيب فقال بسرعة :

— اثنين حمى .. وطاوله .

ولم يتحرك « عماره » لاحضار المطلوب ، بل استمر فى مكانه ..
ولكنه ادار جذعه الأعلى .. وعوج رقبتة تجاه القهوة .. ثم رقع كتفه
إلى صفحة وجهه ، وأغمض عينيه ، وصاح بأعلى صوته كأنه يؤدى
الأذان :

— اثنين تعميره حمى .

ثم اندفع هو بخطواته السريعة فأحضر الطاولة ووضعها على
المنضدة ، واندفع مرة أخرى ليحضر « الجوزتين » بعد أن أعطى انذارا
باعدادهما .

وبدا رواد القهوة يتوافدون الواحد بعد الآخر .. المعلم مسطرين ،
والمعلم على الحمى ، والأسطى محمود الخشت ، وزكى زين ، وغيرهم
أصدقاء شوثة وجيرانه ، وتبادل القوم التحيات الطائفة أو المصافحات
باليد ، ثم اتخذ كل منهم مكانه المختار ، منهمكا فى الحديث أو فى لعب
الطاولة أو الدمينو .

وكان المعلم « جوده » القهوجى واقفا وراء البنك النحاسى يعد
الجوز والقهوة والشاى وغيرها من الطلبات ، ولم يكن المقهى متسعا

من الداخل ، فقد كان يكاد لا يتسع إلا للبنك والوزير بجواره .. وقصرية
لبلاب تسلقت الحائط حتى وصلت إلى نافذة عالية ذات قضبان حديدية
تطل على فناء وراء المقهى ، ودكة خشبية أمامها منضدة .. هذا كل
ما يحويه داخل المقهى .. أما خارجه فقد امتد على الرصيف وفى الشارع
فى مساحة تبلغ خمسة أمثال الدكان هـ

وبدا اللعب بين الاثنين : شحاتة وشوشة ، وقد أمسك كل منهما
بطرف غابته يمتص منها نفسا بين آونة وأخرى ، ويضره موجه لحجارة
الطاولة .

وكان المتباريان من نوعين مختلفين ، فشوشة لعبت صامتة وشحاتة
لعبت لا يكف لسانه عن الحركة بين شدقيه .

ورويدا رويدا زالت رهبة شحاتة من المتهن الجديد والزلاء الجدد ،
وبدا اللعب على حد قوله « يحمى » وبدأ لسانه ينطلق مثرثرا .

ورمى الزهر وهو يصيح :

— سابق عليك النبى شيش بشى !

ولكن الزهر أظهر دوبرة ، فصاح شحاتة :

— برضك كويس .. نعمه من ربنا .

ورمى شوشة الزهر فى صمت ولعب لعبته فى صمت .

واندفع شحاتة فى الحديث لا ينتظر ردا ولا جوابا :

— أيوه كده .. دانا شحاته والأجر على الله الشهير فى الأربعاشر

مديره ، أمال ، دوبره يا بنت الكلب ، اتصلحى بقى .. أيوه كده ..

دش يا قرعه يا بنت القرعه . أمال !! ما يجيها إلا رجالها ، وراك ..

برضك وراك .. مش حاسيك أبدا .. هى إيه .. سايه .. حلوه

دى .. يا دين محمد .. أنا حالعيلك لعبه ما يلعبهاش عنتر بن شداد ،

ولا الزبير بن العوام .. شفت دى .. يا وله يا شحتوت يا حلو تسلم

ايدك .. أمال .. مش نازل من بطن أمك ماسك زهر . يا جماعه عيب

ده شحتوت والأجر على الله .. ولا كل من ركب الحصان خيال ..

ولا كل من مسك الزهر لعيب ، جواهر ياك ، اختشى على دمك يا زهر ،
 خلى عند امك دم . اخص ، يا نتن .. اتقوه ، عليك زهر هزؤ ..
 لا .. خليهام الاثنين فى خانة الجواهر .. اخص .. على الفقر الذكر
 .. يا ام هاشم نظره .. يا ام هاشم عيب .. دى مش لعبه دى ،
 طيب بلاش ام هاشم يمكن ما كانتش تعرف تلعب طاولة ، يا سيدنا
 الحسين .. عايزين دش .. اخصى ، دى لعبه دى . هابياك ..
 يا خساره رحت بلاش .. لكن معلش يا زهر ، والا عليه ، العشره
 راحت بلاش .

وكسب شوشة العشرة فى صمت وسكون ، وخسرها شحاتة فى
 ضجيج وصخب ، وفرح شوشة وإن كان لم يظهر فرحته .. فقد كان
 أكثر ما يسره كسبه فى الطاولة ، ولكنه كان حريصا دائما على إخفاء
 مشاعره سواء كانت فرحة أم حزنا .

ولم يحزن « شحاتة » على خسارته فى اللعب وإن أظهر بضجيجه
 أنه قد حزن .. لقد كان على النقيض من شوشة غضوب فى ظاهره ،
 أما فى باطنه فقد كان سعيدا راضيا .

ولم يخف على « شحاتة » أن صاحبه قد سر من الكسب ، فزاد ذلك
 من رضائه عن نفسه وأسعده أن يسبب للرجل الكريم الطيب نوعا
 من الفرحة ولو بطريق غير مباشر .

وهم الاثنان بلعب عشرة أخرى ، ولكن شحاتة لم يكد يمسك الزهر
 حتى نفرماه فجأة وسقط الزهر من يده وأخذ يحلق أمامه بذهول ،
 وهو يتبع بعنقه ذلك الشيء الذى روعه .

ودهش « شوشة » من ذهول صاحبه ، وسأله فى عجب :

— ايه الحكاية ؟ .. مالك ؟

وهتف « شحاتة » وهو يأخذ نفسا طويلا كأنه يوشك أن يغرق :

— يا قوة الله .

— إيه ؟ . فيه إيه ؟

— يا جاه النبى .

— إيه بس فيه إيه ؟

ولم يجد « شوشة » بدا من أن يستدير بمقعده ملتفتا إلى الإتجاه الذى يخلق فيه شحانة ليرى علة ارتياعه .

ولم يستطع أن يكتم ضحكة أفلتت من شفثيه .. وهتف بصاحبه مؤنبا :

— إيه ده يا سيدنا ؟

— ودى تبقى مين دى ؟

— دى عزيزه نوفل .

— عزيزه إيه ؟

— نوفل ..

— يا اخى قول عزيزه زبده .. عزيزه قشطه .. عزيزه شهد ..

عزيزه مهلبه .. آل نوفل آل !

واستمر شحانة محدقا فى الجسد الممتلىء الملتف فى الملاءة التى انحسرت عن ثوب أحمر انجليزى قد بدت منه فراعان بيضاوان ناصعتا البياض ، وكشفت فتحة صدره عن ملتقى الثديين المكتنزين المتوثبين .. وبدا الوجه أبيض مسديرا ، والشفتان ملتفتين حمراوين ، والعينان متسعيتين داعيتين غامزتين .. ثم إذا ما ولت وجهها بدا ظهرها على قلة تفاصيله أشد تفصيلا وتفسيرا واقناعا واغراء واستدعاء .

وهز شحانة رأسه كالمنتشى وهو يصفق بيديه وينادى بأعلى صوته :

— يا رفاعى مدد .. أموت فى اللبن أبو قشطه .. هز يا وز .

وضحك القوم الساهرون فى المقهى ، وأحس شوشة من مجون صاحبه وضحك القوم ، شيئا من الحرج ، فما كان ذلك مما يلائم طبيعته الجادة ومظهره المتزن المحترم .

ورغم انه فى قرارة نفسه لم يثر على « شحانة » أو يحس من عمله

غضبا عليه ، الا أنه ترك علامات التجهم تكسو وجهه حتى يوقف الرجل عند حده ، وحتى يمنعه من الاسترسال فيها بعد حديثه الغزلى كلها مرت امرأة بالمقهى .. وفوق هذا كله حتى يقنع القوم الضاحكين انه ليس شريكا فى حملة الغزل والبصيصة ، وأنه لا يقر صاحبه عليها .

ولاحظ شحاتة تجهم « شوشة » ، وأدرك ما سببه له من حرج ، فتمتم معتذرا وقد أطرق برأسه وهو يشيع الحسناء الغاربة بطرف عينية :

— عدم المؤاخذه يا معلم .. ما تأخذنيش . انا أصلى لسانى نرط شويه .. ما اعرفش بيجرالى إيه لما بشوف صنف الحريم .. طول عمري كده .. أصلى دنى أحب اللحمه .. داء يا معلم ما يسبنيش أبدا .. وكل ما قول بكره الواحد يكبر ويعقل .. ما بعقلش أبدا .. بالعكس الحكاية بتزيد ويلاتى نفسى بحبهم أكثر .. خفة عقل .. والا خفة قلب ما تعرفش .. لو تتعدنى كده طول اليوم أتفرج على نسوان ما ازعقش أبدا .. يسببولى اتبساط وغرفشه زى الخمره والحشيش .. الجنس كله يعجبني .. كله يعمر دماغى . انما اللي بيدوخنى حقيقى الصنف اللى فات .. أهو ده بقى بيطير برج من عقلى .. ما ببقاش حاسس بنفسى .. أعذرني يا معلم ، متأخذنيش ، اوعى تزعل منى ، انا برضه غلطان ، كان حقى امسك نفسى شويه قدام الناس الغرب وخصوصا ان انا عارفك راجل عاقل ما تحبش الهلس والمسخره . يا بختك بعقلك صدق من قال : أصحاب العقول فى راحة . تلعب كمان عشره ؟ .

ثم نظر حوله ليرى ما إذا كان الجمع ما زالوا فى مراقبتهم ولكنه وجد كلا منهم قد انصرف إلى ما كان عليه .. فعاد إلى زهره من كان يلعب الطاولة ، وعاد إلى حديثه من كان يسمر ، إلا واحد قد ظل معلقا به يرقبه بعينه بنظرة فاحصة متسائلة .

كان رجلا أسمر ، حاد التقاطيع ، مبروم الشارب ، مفتول العضل ، رتدى جلبابا بلديا من الصوف الأزرق ، بدا من فتحة صدره الصديري

الخطوط وقد وضع ساقا على ساق مظهرها الحذاء الأصفر ذا الرقبة
الاستك ، كاشفا عن جورب من الحرير «أبو حربة» ، وقد اتكأ بأحد
مرفقيه على منضدة أمامه ، وترك كم الجلباب المتبج يسقط عن ذراعه
فيكشف عن كم الفاتلة الفلتكوسن البمبة المشغولة بالأجور ، وقد أمال
اللاسة على أحد حاجبيه حاجبا بها نصف العصفورة الخضراء البتي وشم
بها صدغه .

وأحس « شحاتة » نقلق من مراقبة الرجل وخشية من نظراته ، وخيل
إليه أن الرجل لابد وأن يكون على صلة بالمرأة ، وأنه قد ساء منه أن
مغازلها بمثل هذ الطريقة الفاضحة . . وبدا له أن الرجل لابد سينتهى
به الأمر إلى أن ينهض فيوسعه ضربا ويعطيه درسا قاسيا في احترام
النساء .

ولم ير « شحاتة » خيرا من تجاهله والتشاغل بالحديث مع شوشة
أو لعب الطاولة وأمسك بالزهر يهزه في راحته قائلا :
— المره دى مش حاخلك تاخذ ابن واحد . حادبهاك صابيه . .
أنا أصلى حببت أجرجلك بالعشره اللي فانت .

ثم انطلق بمقهقهته مرسلا نظرة مسروقة بطرف عينيه إلى الرجل
إياه الشارب المبروم ، المفتول العضل ، فراه ما زال يرمقه بنظراته المزعجة
. . فسرت رجفة في أوصاله وراح يحدث نفسه وهو يهز الزهر في يده :
— « والله أجلك حان يا شحتوت الكلب ، أهو ده حقيقى اللي
حاجيب أجلك . . لو لهفك بونيه مش حاتاخذ غيرها وده باين عليه
صعيدى ما يعرفش عربى ، وحكاية الشرف عنده ميهه أوى . . مين
عارف يمكن التولية نطلع مراته ، والا اخته والا قرييته والا رفيقته ،
بمعنى كان لازم تنسحب من لسانك . . أهو ده تلاقيه حاجه نوفل . .
عبده نوفل . . والا رزق نوفل » .

وعاد يسترق إليه النظر . . فوجده ما زال يرمقه وهو يبرم
شاربه .

« وأخترتها ؟ باينها مش حاتم على خير أبدا .. الراجل حياكلك ..
إذا كان شوشة نجاك من ايد زمزم .. فالمره دى مايفيش حد حاينجيك
أبدا .. غير رينا .. وربنا ما افتكرش حايرضى يحشر نفسه بينك وبين
ابن الصرمة ده . يا منجى يارب .. دافيش طريقه غير « الزوغان » .
وعاد يهز الزهر ويزدرد ريقه ويقول لشوشة :
— هه .. مش حاتلعب ؟ .

وجاءه الجواب المنقذ من فم « شوشة » وهو يغلق الطاولة
ويجيبه قائلا :

— كفايه النهارده .. ياالله بنا على المولد .. الدنيا ليلت .
وهتف شحاتة فى حماس قائلا :
— ياالله بينا .

ودفع شوشة الحساب ونهض الاثنان مغادرين المقهى ، وبحركة
غير إرادية التفت « شحاتة » ليلقى نظرة أخيرة على مطارده ومراقبه
ليرى ما إذا كان مستهترا فى مطارده بنظرته الصارمة .. أم صرف عنه
نظر .

ولكن العين المحدقة كانت ما تزال تحقق ، والنظرة الصارمة الفاحصة
ما تزال تطارد وتلاحق .
وأسرع « شحاتة » فأمسك بمرمق صاحبه كالمستغيث وناداه
متسائلا :

— يا معلم شوشه ؟
— أيوه يا شحاته أفندى .
— الراجل ده بيتقى مين ؟ اللى قاعد جنب باب القهوة على إيدك
اليمين ؟
— أنهى ده ؟

— الراجل أبو دقه .. اللى عاوج الملاسه ولايس جلابيه كحلى .
اللى بيزغر لنا قوى زى اللى حياكلنا .

- تصدك .. شرف .
- اسمه .. شرف ؟
- أيوه .. مشن اللى داتق عصفوره ؟
- هوه هوه .. وده بيتقى إيه ؟
- ده ، شرف الدين .. شرف الدين الدباح .
- يا باى .. دباح .. دباح .. يا مغيث ..
- قالها شحاتة بغزع وهرول فى مشيته كالهارب .. مما جعل « شوشة » لا يمنع ضحكة انطلقت من شفتيه وهو يقول :
- حيك يا عم شحاتة ما تخافش .. الرجال ما بيدبحش ولا حاجة .
- ما خافش ازاي ؟ وهوا من ساعة ما فانت البت عزيزه ولتحت عليها بالكام كلمه اللى قولتهم وهوا ما رفعش عينه عنى ، وببزغرى كانى قتلت أبوه ... وبعدين أسالك اسمه إيه تقوللى شرف الدباح ، وبعد كده انت عايزنى ما خافش ؟ طب مد بينا مد .
- وعاد « شوشة » إلى ضحكه ، وهو الجاد الرزين ، ودهش « شحاتة » وسأله :
- هوا فيه حاجه بينه وبينها ؟ . فيه معرفه ؟ . قرابه ؟ .
- أكثر .
- أكثر يعنى إيه .. أبوها ؟ .. أمها ؟
- حاجه زى كده .
- يعنى إيه مش فاهم ؟
- ولى أمرها يا شحاته أفندى .
- يعنى إيه ولى أمرها ؟
- يعنى ولى أمرها .. ما تعرفش لما تلميذ يروح المدرسه ويكون أبوه ميت يقوموا يقولوا فين ولى أمرك ، أهو ده ولى أمرها .. يعنى

المسئول عنها .. يعنى بالعربى بيشتغلها .. مش بنس هى لوحدها ،
ودسته زيتها .

وتوقف « شحاتة » نى محله من فرط الدهش واخذ ينظر إلى
« شوشة » محمقا ، وقد تسمر فى مكانه ، ثم قال مذهولا :

— شرف الدين .. الدباح .. بيشتغل عزيزة نوقل ؟ الراجل الفحل .
ابو الشنبات المبرومه ، يشتغل الشغلانة دى ؟

.. وإيه دخل الشنبات المبرومه .. نى الحكايه دى ؟ . دى حاجه
.. ودى حاجه .

— مش معقول .. مش ممكن .

— إيه هوا اللى مش ممكن ؟

— دا باين عليه الشهاهه .. وكان بيص لى البصه يخلينى اترعش ،
وكنت فاكرا ان احنا لو طولنا شويه كان قلم كسر دماغى .

— احنا لو كذا طولنا ثنويه كان جه جنبك وحياك .. وقال لك احنا
مى الخدمه .. عندنا حاجات نضيفه لوى .. احسن من اللى فاتت .
وناطعه « شحاتة » بقوله .

— وهوا فيه احسن من اللى فاتت دى حاجه ؟

واستمر « شوشة » متمما حديثه :

— لكن الظاهر انه مالقاش فيك الرmq ، عشان كده تعدد بفحص
نيك ويدقق .. بدل ما يقوم ويتعب نفسه .. وبعدين يبجى نقبه على
شونه .

وسار شحاته بجوار شوشة ، وقد شرد ذهنه .. وان كانت مظاهر
الفرع والخوف قد غادرت وجهه .. وحلت محلها مظاهر الارتياح
والغبطة .

اذا .. فعزيزة نوقل « ماشية » ، وشرف الدين الدباح « توادها »
او السبيل إليها . ومعنى هذا ان علاما الاستحالة والخطورة قد زالا ..
واصبحت المسألة سهلة هينة ، ولم تعد « عزيزة نوقل » أملا متعذرا ،

أو صيدا طائرا .. بل هي رجاء يستطاع تحقيقه ، وعصفور يمكن أن يكون في اليد .. ولم يعد هناك ثمة خطورة من هذا الوحش المستترس المدعو « شرف الدين الدباح » بعدما تبين أنه دباح اعراضى .. وأن بينه وبين الشرف ما صنع الحداد .

وتجههم وجهه فجأة ، وعلته سحابة هم .. ان المسألة حقا ليست مستحيلة ، ولكنها كذلك ليست سهلة المنال كما يتصور فهي تحتاج إلى نقود .. نهذا « القواد » لا يمكن أن يشكك بضاعته .. بل هو لابد أن يقبض الثمن مقدما ، وهو لا يملك مليما واحدا .. وهو لا يملك ثمن أكلة قادمة .. ولا نومة مقبلة .. انه لا يملك إلا نفسه ، والصرة التي بها عدة الشغل التي تركها في بيت ثوشة .. لقد باع كل ما يملك لكي يسدد دينه على صاحبه الكريم .. فهو أول دين يحس بثقله .. كانت الديون السابقة كلها ديون غير مستحقة الدفع .. أما هذا الدين الذي دفعه عن طيب خاطر .. دون أن يطالبه صاحبه برده .. فقد حرك مشاعره ، وأيقظ ضميره فلم يصل إلى حجرته .. حتى باع كل ما بها وسدد ديونه ، ثم غادرها نظيفا خفيفا إلا من « حرة الشغل » والأربعة قروش التي دفعها إلى « ثوشة » .

والآن ، وهو صفر اليدين ، تمنح له هذه الفرصة الهائلة . وتلوح له « عزيمة نوفل » وصاحبها الدباح ، أمنية مستطاعة ورغبة محققة .. ولكن بالنقود .. يعنى .. أمنية محققة ، بشيء مستحيل ، وثمن غير كائن .

وضرب كما مكف وقال بصوت مسموع :

— عليه العوض .

والتفت إليه « ثوشة » متسائلا :

— خير ؟ إيه هو اللي عليه العوض ؟

— ولا حاجه .. الحمد لله على كل حال .

« أجل .. الحمد لله .. انها على أية حال أمل مستطاع .. ومسيرها ترزق » . وبهذا طمان شحاتة نفسه ، وعاد إلى سابق ضحكه ومرحه ، وهما يوشكان على الدخول إلى المولد .

واحس الرجلان باشتداد الزحام وازدياد الضجيج وارتفاع الطبول والدفوف والمزامير . كانت مظاهر الموكب بادية في الحى كله .. فقد انتشرت الأعلام ، وعلق البطيخ الزجاجى الملون ، ولكن المظاهر كانت تزداد تركيزا كلما ازداد المكان قربا من ضريح المحتفى بمولده .

واضطر « شوشة وشحاتة » إلى التنحى عن الطريق والتزام الرصيف عندهما بدت بشائر أحد الموكب ، وقد تعالت وسطه الأعلام الملونة ، المزركشة بالآيات والكتابات المختلفة مثل : « الله اكبر » و « لا إله إلا الله » وأسفل هذه الآيات الإلهية كان عبيد الله يتراقصون ويتواثبون ويتصايحون ويدقون الدفوف ، حتى بدا كأن الله لا يمكن الوصول إليه إلا بتخت أو بزفة .. ومر موكب عبيد الله المنتشين بذكر الله الراتقين تحت أعلام الله . وغاود « شوشة » وصاحبه السير متخذين طريقهما وسط الأجساد البشرية ، ولكنهما ما لبثا حتى توقفا مرة ثانية لزحام أشد من زحام الموكب الراقص .

كان السبب في هذه المرة ، ليس ذكر الله ، ولكنه كان ذكر البطون ، أو ذكر « الفول والعيش » .

كان حانوت « الحاج عمار » تاجر المانيفاتورة يباشر عملياته السنوية في تفريق شقق الفول النابت والعيش التي كان يندرها الحاج في كل مولد ، وكان الناس يتقاتلون حول الحانوت في سبيل الوصول إلى الشقق المليئة بالفول ، وكان أحدهم يصيح بالآخر :

— أمسك دى ، انا خدت لغاية دلوقت خمس شقق ، الحاجات دى عايزه ذراع ، لو قعدت هنا عمرك ما انت طايلى حاجه ، خش عاقر زى الباتى .

واستطاع الصاحبان تجاوز موكب الفول والعيش ولكنهما لم يسيرا
 بضع خطوات حتى اصطلما بهوكب الشيخة « زبيدة » .
 فى دكان حجب بستارة قفزة خضراء وقف رجل أشعث وبجواره
 رسم لرأس امرأة على منضدة كتب فوقها لامتة « الشيخة زبيدة ..
 المعجزة البشرية » واندفع الرجل يصيح بأعلى صوت :
 — قرب هنا .. ثوف الست العجيبة .. الشيخة زبيدة بقرش
 ابيض . الرأس اللى بتتكلم من غير جسم . يا بلاش .
 وبجواره وقف رجل آخر يقرع الطبله وثالث ينفخ فى مزمار .
 ومر الرجلان بالشيخة زبيدة ، ثم اتجها يميناً وتجاوزا رحبة متسعة
 انميت عليها « المراجيح » بكافة أنواعها ... مرجيحة الوزه ، والمروحة ،
 والمركب ، وقد أخذت تزن وتطن كأنها عشب الزنابير .
 وبعد مسيرة بضع دقائق وصلا إلى حانوت « الشيخ عبيد العطار » .
 وكان الحانوت يجاور الضريح أى فى قلب معمعة المولد .
 كان « الشيخ عبيد » قد رعى الأرائك حول مدخل الحانوت وعلق
 الأعلام والزينات ، وفى ركن منعزل غرّش بعض الحصر على الأرض
 استعدادا لحلقة الذكر .
 وحيا شوشة القوم المتناثرين على الأرائك وعلى الحصر ثم تجاوزهم
 إلى مدخل الضريح وقد تبعه شحاتة ، ودلفا من ممر ضيق قادهما إلى
 البضة وكانت لا تزيد على مجرى فى الأرض ملئ بالمياه يجلس المتوضئون
 على حافته فيتناولون منه الماء بأيديهم للوضوء وبعد أن تجرى المياه على
 أطرافهم وتقوم بواجبها فى إزالة الأتربة المعلقة بها والتأذورات المتراكمة
 عليها تعود فتتهبط مرة أخرى إلى المجرى نفسه يصاحبها ما تيسر من
 البصاق والمخاط الذى يستعمل فى وضوء من يليهم من عباد الله
 المتوضئين .
 وانتهى الرجلان من الوضوء وصليا فريضة المغرب ثم خرجا للانتظام
 فى عقد المدعويين فى ختمة الشيخ عبيد .

وجلس شحاتة على الحصير بجوار المعلم شوشة ، وقد أخذ
يتلفت يمنة ويسرة محاولا اكتشاف ما عسى أن يحصل عليه من جاسته
هذه ، ولم يبد لعينيه شئ ينبىء بخير .. لا أكل ولا نساء ولا طاولة ،
ولا أى نوع من أنواع الطرب والتسلية .. صبرا .. فربما « جرت
سنحا طير الحوادث باليمن » .

وبدا فقيه فى تلاوة القرآن ، وفى خلال التلاوة بدت ثلة اطفال
مقبلة على الحلقة ، ولم تكد تقترب حتى اندفع منها سيد ، فلما وصل
إلى أبيه همس فى أذنه :

— عايز تعريفه .

— ليه ؟

— أضيع فى المولد .

— عايز تعمل به إيه ؟

— أروح الشيخه زيده ، وأتفرج على خيال الضل وأترجع ،
واشتري كبده وكشرى .. مش كل ده عايز فلوس .. والا يعنى كده
أخرج م المولد بلا حمص ؟

ومد الأب يده إلى جيبه فى صبت فأخرج كيس النقود وأعطى منه
قرشاً لابنه ، وانطلق سيد مرة أخرى إلى صحبه بين الصبية صائحا
بهم :

— يالاه بينا على خيال الضل .

ولترك شوشة يستمع إلى القرآن ، وشحاتة محملا بعينيه فى
الفقيه ، شاردا بذهنه فى « عزيمة نوفل » ولنعد وراء سيد فى جولة
لاهية بالمولد حتى تنتهى تلاوة القرآن فى شادر الشيخ عبيد .

انطلق الصبية يتواثبون ويصرخون إلى خيمة خيال الظل ودفع كل

منهم مليها عند الباب ، وبعد لحظة كانوا يصطفون على بضع ذكك امام الستارة .

وكانت الخيمة المهلهلة قد قسمتها الستارة الديمور البيضاء قسمين قسم حوى النظارة وقسم حوى المسرح ، او اللعب ، او سبه كما شئت . . وكان كل من القسمين مضاء « بلبة جاز » ولم يكن الصبية يدرون شيئا عما يدور فى القسم الآخر وراء الستار ، ولكنهم كانوا يتوهمونه عالما صاحباً مليئاً بالحياة والحركة مختلف الاشخاص ، وكانوا يجلسون وذهنهم عامر بشتى الأوهام . . ولو تجاوز أحدهم ببصره إلى ما وراء الستار لأصيب بخيبة شديدة ولانهار ذلك العالم الموهوم المليء بالحياة والحركة .

كان يجلس وراء الستار رجل . . وهو الكائن الحى الوحيد الذى بحرك بقية الكائنات الصامتة من الورق المقوى وينفخ فيه الروح .

كان وحده رب العالم الموهوم . . هو خالقه وهو محسركه وهو منطقته ، وهو راسم مصائر مخلوقاته .

كان الرب مرتديا « فائلة ولباس » قد انهك وقتذاك فى خلق بعض المخلوقات الجديدة من الورق ولم يكذ ينتهى منها حتى دق بكعب « برطوشته » على ظهر صندوق خشبى انذارا ببده العمل .

وتشبه هذه الدقات إلى حد كبير الدقات التى تؤذن ببده النمثيل ورفع الستار ، ولكن فى مسرحنا الصغير لا ترفع الستار ، لأن رفع الستار — كما قلت — يعد كارثة فهو يكشف عن ضالة العالم الموهوم وحقارته ويظهر للنظارة ربه ذا القبيص واللباس ممسكا بيده البرطوشة يدق بها .

أجل . . كان هذا كل ما وراء الستار قبل البده فى العمل . وعلى ذلك فقد كان الستار . . ستره .

ومنذما انتهت الدقات دخل الرجل الواقف على الباب والذى جمع

النقود ، فأطفأ المصباح الكائن فى قسم النظارة . فبدأ الستار مضاء بالمصباح الكائن خلفه .

وقبل أن يبدأ التمثيل صاح سيد :

— عايزين حكاية الشيخ عبد الرسول لما سيد رقعته علقه .

وهكذا كانت الروايات تملأ من النظارة فى لحظتها ، وعلى الرب الكائن وراء الستار القادر على كل شيء .. أخرجها حسب ما يشتهون .

وظهر « الشيخ عبد الرسول » على الستار ، وكان الرب قد جلس فى الأرض وراء الحاجز الخشبى الكائن أسفل الستار حتى لا يظهر ظله على الستار وحتى يبدو الأبطال متحركين من تلقاء أنفسهم . وكان يمسك بقطعة من الورق مقصوفة على هيئة شيخ معهم يرفعها بين المصباح وبين الستارة فيقع ظلها على الستارة ، ويبدو للنظارة من الجانب الآخر كما تبدو الصور فى الشاشة البيضاء ولكن بلا تفاصيل سوى التفاصيل الخارجية للظل .

وتكلم الرب بصوت غليظ قائلا :

— أنا الشيخ عبد الرسول .. المهول .. أضرب على طول .

ثم يرفع الرب بيده الأخرى صورة طفل صغير .. ويقول بصوت رقيق :

— وأنا سيد السقا .. لايس خلقه زرقه .. وأديك دقه بدقه .

وضج الصفار بالضحك .. وصفقوا بأيديهم مشجعين الطفل الصغير صائحين :

— ولى سيد .. اديله يا سيد .. اديله فى عين زنبيله .

لنترك الصبية متحمسين للمعركة الدائرة وراء الستار .. ولنعد إلى شوشة وشحاتة ، فنجد الفقيه يوشك أن يختم قراءته ونجد شحاتة قد انتهت من جولته مع «عزيزة نوفل» فى الوهم مع انتهاء القراءة .

وهمس شحاتة فى أذن شوشة متسائلا :

— وبعد كده فيه إيه ؟

— نصلى العشا .

ونفخ شحاتة نفخة ملل ، وحدث نفسه :

— « وأخرتها ، صلاة وقرآن ، وذكر .. لا .. يفتح الله ، أنا

ما تدرش على الحكايات دى » .

ولكنه لم يملك سوى القيام وراء الجماعة المتجهة إلى الجامع ، وبعد انتهاء الصلاة عادوا مرة أخرى إلى أماكنهم ولكنه فى العودة وجد أن « العود أحمد » .. فقد فوجئ بوعاء كبير من الثريد تعلوه قطع كبيرة من اللحم المسلوق ، قد وضع على الأرض وسط الحلقة كأنها نبت بقدرة قادر من الأرض أو هبط من السماء .

وجرى ريقه .. وتمنى لو هجم فأنشرب أطافره فى اللحم وعب من الثريد .. ولكن كان عليه أن ينتظر حتى ينتظم العقد ويدعو صاحب الدعوة ضيوفه إلى الأكل فيتمنعون ويدعون شعبا ، فيعيد الدعوة ويعيدون التمتع ، حتى تكون روحه قد بلغت التراقى قبل أن ينهضوا للأكل .

ومرت الفترة العسيرة « بعم شحاتة » على خير .. وبدأ الطعام ، واندس « شحاتة » بين جمهرة الأكلين و « هبر » قطعة من اللحم تذف بها فى جوفه فلم تترك إلا فراغا يسيرا للثريد .

وأخيرا انتهى الطعام ورفعت القصعة وبدأ الاستعداد للذكر واصطف القوم جلوسا فى حلقة دائرة ، وبدأ شيخ منهم فى الانشاد والجمع . يردون عليه ، ولم يحاول « شحاتة » أن يركز ذهنه لمعرفة ماذا ينشد الشيخ ، ولم يكلف نفسه مشقة التردد مع الجمع حتى بدأ الكل يرددون بطريقة ملحنة .. « يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف .. يا لطيف » كأنهم كورس يردد أغنية ، وهنا لم تعد المسألة صعبة فاندفع معهم يردد مغنبا « يا لطيف .. يا لطيف » .

وفجأة نهض الشيخ ، فنهض القوم معه ، ثم بدأ يردد فى صوت

خفيض أخذ يرتفع شيئا فشيئا « الله حى .. الله حى » وكان التردد مصحوبا بترنج للأمام وللخلف .. وأحيانا لليمين واليسار ، ولم يكن هناك بد من أن يقلد « شحاتة » القوم فى صياحهم وترنجهم ، ولم يكن الأمر بالعسير فقد كان التردد والتقليد من السهولة بكان .

وهكذا ظل شحاتة وشوشة يترنحان ويضجبان مناديان « الله حى » .. ولم يحاول « شحاتة » أن يفكر فى المسألة كثيرا ولا أن يتناول صياحه وترنجه بالبحث والتحصيل .. ولكن عندما طال الأمر .. وكلت حنجرته . وخذلته ساقاه ، بدأ يفكر فى قوله « الله حى » ، وأخذ يسائل نفسه ماذا يريد هو وصحبه من الله .. ولم يصحبون اسمه بوصفه حى .. وهو أبسط ما يمكن أن يوصف به مخلوق .. فهم يشركونه فى الوصف مع أحقر المخلوقات الحية ، التى تملا رحاب الأرض .. وماذا يفيد من اصرارهم على وصف الله — الذى لا يمكن أن يكون غير حى — بأنه حى .. واستمرارهم على الصياح بمثل هذا الصراخ ؟

وتصبب العرق من وجهه .. ودعا الله الحى .. أن ينزل على المخابيل « نقطة » تسلبهم الحياة حتى يكتفوا عن هذا الصياح والترنج ، ونظر إلى الشيخ عبيد صاحب الدعوة وهز رأسه أسفا ، وهو يقول لنفسه :

— « يا شيخ عبيد يا ابن الحرام .. كائنك فعلت بنا معروفا .. لقد سلبت بالذكر ما أعطيت بالثريد .. أنت والحياة صنوان .. كلاكما يسلب باليد ما يعطى بالأخرى .. كلاكما يسترد النعمة بالربح المركب .. ان الثريد واللحم الذى ملأت به بطوننا قد هضمه الذكر .. فكأنه ما كان .. يا ليتنا ما أكلنا وما ذكرنا » ! .

« الله حى .. الله حى » .

— لا .. لا .. لا يمكن أن يكون حيا .. ولو كان حيا أكان يسكت عن كل هذا الصراخ ، دون أن يصيب القوم بصاعقة تسكتهم .

« الله حى .. الله حى » .

وأخترتها .. عرفنا أنه حي .. والله العظيمة حي .. يا ناس
ارحمونا .

وأخيرا .. جدا .. بدأ الترنج يخف ، والصياح يهبط .. حتى
سبت القوم تماما وهبطوا إلى الأرض .
وهمس شحاتة في أذن ثوشة :
— هه .. مش خلاص ؟

— أيوه خلاص .. بس حانصلي ركعتين .
— لا وحياة أبوك .. كفايه بقى .. أنا مش عاجز عن الصلاة
.. بس أنا صعبان على صراخ الناس دول .. كفايه اللي عملناه ده ..
يا الله بقى وحياة أبوك لحسن بعدين يدخلونا الذكر تانى .. يا الله يا معلم
الله لا يسينك .

ونهمس « ثوشة » وغادر الاثنان الحلقة وسارا في الطرقات التي
أخذ الزحام يخف عنها رويدا رويدا .
وعندما وصلا إلى تقاطع « درب عجور » توقف « شحاتة » قليلا
ومد يده مودعا وهو يقول :

— تصبح على خير يا معلم .. متشكرين خالص على السهره
اللطيفه دي .

— على فين ؟

— نروح بأه .

— أنت ساكن فين ؟

وتهمل شحاتة برهة قبل أن يجيب بضحكة قصيرة ساخرة ويقول :

— كنت ساكن في شارع الخليج .

— ودلوقت ؟

— دلوقت مانيش ساكن .. دلوقت أنا كده زى ما أنا يعنى ماليش
متعطفات أبدا .. ساكن على رجلى ، أو سارح .. زى القطط والكلاب .

— مالكتك حته تياتت فيها ؟

— كان ليه أوده وسبيتها .. عزلت منها .

— ليه ؟

— والله مش قد المقام .. البحرى بتاعها مش خالص وانا راجل

احب الطراوه فقلت أعيش فى الخلا .

— اتكلم جد يا شحاته .. إيه الحكايه ؟

— أنا بتكلم جد .. كان ليه أوضه وسبيتها النهارده .. الحال

واقف بقاله مده ، وكان متكوم على ايجار كام شهر ومديون بكام قرش ..

لكن ما كانش هاممنى ، ولا كان على بالى .. لغاية ما دايئتنى انت

بالأربعة ساغ .. فحسيت بتقل الدين .. الديون اللى فاتت كلها كانت

كوم ، ودينك كوم .. الديون اللى فاتت جتنى تلمت عليها من كتر الحاج

اصحابها ومطالبتهم بيها ، ما بقاشس تهمنى ، بقى عندى مقاومة ضدها ..

زى الرجل الحافيه لما تبقى عندها طبقه واقيسه من الزلط والحصى

والقزاز من كتر الدوس عليها .. أصل كتر المطالبه تولد التلامه ..

ولما الواحد ما بيلاقيش حد يرحمه احساسه بيعدم ولا بيقاشس عنده

دم ، وكنت مستريح على كده .. لغاية ما جيت انت وعملت فيه الفصل

بتاعك ده ، ودفعت لى الأربعة الساغ من غير ما تعرفنى ومن غير

ما تنتظر منى أن أدفع .. الله يسامحك ، انت السبب فى اللى حصل

ده .. وريئى إن فيه فى الدنيا انسانيه ورحمه وتضحية .. وان البنى

آدم ممكن انه يعمل معروف من غير ما ينتظر منه مقابل .. خليئى أحس

ان فيه قلوب رقيقه وتفوس رحيمه ، وكانت النتيجة انك ضيعت طبقه

الواقيه من التلامه والبجاحه ، وخليئى أرجع زى ما كنت .. أشعر وأتالم

وانكسف واحزن .. الله يسامحك ، زى ما بيعتنى اللى حيلتى ، وخليئى

داير من غير مأوى زى الكلاب اللى من غير أصحاب .. يعنى لو كنت

سبتنى فى ايد زمزم ، مش كنت زمانى خدت العلقه وانتبهت ، وعلى

راى المثل علقه وتفتوت وما حد يموت .. واهو كان الواحد بعد
العلقه حا يرجع يلاقى اوده تتاويه .

واحس شوشة ان الدمع قد قفز إلى مقلتيه .. وانه يراودهما
على الانسكاب .. لقد اصاب حديث للرجل منه مقتلا ، ولكنه كان يكره
البكاء فاستعان بالظلمة على اخفاء تعابير الآلم التى علت وجهه وجاهد
هسى تهر الدمع واعاده إلى منابعه .

وبعد فترة صمت قصيرة .. قال لصاحبه وهو يحاول ان يضحك :

— معلش يا شحاتة افندى حذك على ، وعلى العبوم هى ملحوقه
.. انا عندى اوده فاضيه ما حدش بينام فيها تعال بيت فيها لغاية ما ربنا
بفرجها .

— لا يا عم كفايه جمایل بقى .. انت عايز تعمل فى اكثر م اللى
عملته .. عايز تقضى على شوية النلامه والبجاجة اللى فاضلين ، والللى
اقدر اكل بيهم لقمة تصلب عودى .. لا يا عم .. حد الله بينى وبينك ..
انت غرقتنى جمایل .. وخلتنى بنى آدم ذوق حساس ، رقيق .

— إيه الكلام اللى بتقوله ده ؟ . جمایل إيه وبتاع إيه ؟ الأوده
فاضيه ، وبدال ما تروح تنام فى السكه تعال نام فيها .
— لا يا عم أنا حنام فى السكه أهسن .

— ما تبتقاش مجنون ؟

— لا .. لا .. كفايه ضايقتك طول النهار .. آجى كمان أشاركك
فى نومك .. ليه .. هو انت ابتليت بيه .

— يا راجل ما تقولش الكلام ده .. الأوده فاضيه ، والله العظيم
.. ما فيهاش غير الصحاره وشوية القرب .

— لا .. لا .. السلام عليكم .

— طيب تعالى أجرها ؟

— أنا معايش ولا نكله .

— معلش بكره ربنا يفرجها ، وتبقى تدفع الحساب ، يا الله يا أخى .. ما تعملش تكليف . دا أنت حتى حاتونسنى .

وتردد شحاتة برهة ، ولكن شوشة جذبته من يده جذبة لم تترك له فرصة الهروب وسار الاثنان متجهين إلى البيت .

كانت الساعة قد قاربت الثانية عشرة ، ودرب عجور قد أغلقت حوائيته وخفتت ضجته ، وساد السكون على دوره حتى يخيل للسائر أنه قد بات يسمع حفيف الأنفاس متصاعدة من النوافذ .

واقترب الرجلان من درب القط ودلفا فيه يخوضان وسط ظلماته المعممة وقد سار « شوشة » بالتوجيه بخطوات ثابتة وأخذ « شحاتة » ينقل قدميه فى حذر متمثلا قول الشاعر « قدر لرجلك قبل الخطو موضعها » .. وكانت التوتة تبدو فى نهاية الدرب كشبح داكن يحجب بصيص الضوء الذى يتسرب من أشعة النجوم .

ودخل الاثنان الدار ، وبدأ باب الشقة مفتوحا ، وقد لاحت من خلاله « أم آمنة » متريعة على الأرض وهى تجلس جلستها المطرقة الواجمة ، كأنها تمثال للصبر واليأس والجمود ، مسندة خدها براحتها متكئة بهرقتها على ركبته ، ولم تكد تسمع وقع الخطوات حتى رفعت رأسها كما يرفع الكلب الحارس رأسه فى تحفز وصاحت :

— مين ؟

وأجاب شوشة فى رفق :

— أنا شوشة .

ولكن الأقدام كانت أكثر من أقدام شوشة ، فعادت تسأله فى دهش :

— حد معاك ؟

— أيوه ، شحاته أفندى حاييات معنا عشان الوقت متأخر .

ونهضت المعجوز متسائلة وتحسست طريقها إلى الحجرة التى
يرقد فيها « سيد » ثم أغلقت الباب نصف اغلاقة وهى تقول :
— احضر لكم عشا ؟
وأجاب شوشة :
— كتر خيرك .. اتعشينا فى المولد .
— بالهنا والشفأ .
وأحس « شحاتة » أنه قد أزعج المرأة الآمنة الطيبة فهمس لصاحبه :
— أنا قلقتكم .. ما تسيبنى أروح .
— خش يا جدع .. الأوده فاضيه .
ودخل « شحاتة » يشق طريقه بين جلود القرب القديمة وافترش
الصحارة .. وبعد لحظة كان أهل البيت يغطون فى نومهم .

الفصل السابع

قهوة لفندية

استيقظ شحاتة في الصباح وقد غمر ضوء الشمس الحجرة وتلفت حوله وفرك عينيه ومضت برهة قبل أن يستبين معالم الحجرة ويكتشف أين هو . . وأخيرا تذكر دعوة « شوشة » له للمبيت في داره فتحامل على نفسه ونفض عنه غبار النوم ، وهبط من فوق الصحارة ووقف في منتصف الغرفة وأخذ يتقلب البصر في أرجائها .

كانت الغرفة ضيقة مشتقة الجدران ذات نافذة حديدية تطل على « منور » ترتع فيه أوزتا « أم آمنة » ومعزتها . . ولم تكن محتويات الحجرة لتزيد على الصحارة التي قضى ليلته منكشاً فوقها وعلى قطع الجلود القديمة من بقايا القرب والسطايح وبعض متخلفات لسيد من كرة شراب إلى هيكل من بوص لطائرة قديمة إلى نحلة . . الخ . . وكان يوجد غير هذا كله . . صرته العتيقة . . جامعة ممتلكاته في الدنيا .

وانصت شحاتة عليه يسمع صوت « شوشة » أو « سيد » ، ولكن الدار كانت مغرقة في صمت لا يقطعه غير صيحات متقطعة من الأوزتين بين آونة وأخرى ، وأحس بكثير من الحرج ولم يدر ماذا بفعل وخشى أن يخرج من الحجرة فيجرح حريم الدار .

واقترب ببطء من الباب محاولاً أن يصدر بقدميه صوتاً ينبئ عنه

ويحذر منه أهل البيت ، ولكن أحدا لم يأبه له أو يسأل عنه .. فوقفه بجوار الباب وطرقة بضع طرقات فلم يجده الطرق نفعا فتجاوزة إلى التصنيق بيديه حائحا :

— يا ساتر .. يا ساتر .

وأخيرا مد عنقه من فرجة الباب فوجد القاعة خالية فتقدم بساقيه ووقف يتطلع ببصره فيما حوله .. عجباً ! .. ليس هناك من مخلوق يوحد الله .. طبعاً .. لقد تأخر في نومه ، و « شوشة » قد ذهب إلى عمله ، و « سيد » ذهب إلى مدرسته .. فهما ليسا مثله نثومي الضحى .. ولكن أين أم آمنة ؟

وتقدم قليلا إلى باب الشقة وأخذ يتلفت حوله عندما سمع :

— صباح الخير يا شحاته أفندى .

وأخيرا ، ظهرت ، كانت أم آمنة منحنية تحت بير السلم تكنس الفناء .. وقد أحست به من وقع خطواته فبداتته بالتحية .

— صباح الخير يا خالة أم آمنة .

— خير عليك يا بنى .. نوم العوامى .

— الله يعافى بدنك .

— إذا كنت عايز تغسل وشك .. الطشت والابريق عندك فى المطبخ ، ودلوقت حا حضر لك الفطار حالا .

— يا ستى كتر خيرك .. ما تتعبيش نفسك .

— ودى فيها تعب إيه ؟ .. الأكل موجود وخير ربنا كثير .

— والله ما تتعبى نفسك ولا تعملى حاجة أبدا .. أنا ما تعودتش أفطر بدرى .. خليتك بعافيه .

— يا شحاته أفندى ما يصحش .. هى دى تيجى ؟ تخرج من غير ما تغير ريقك ؟

ولكن « شحاتة أفندى » كان قد تناول صرته وأسرع يعدو مهرولا .

غاراً من الجمائل والكرم وطيب الخلق .. التى صهرت ما تبقى من تلامته
وبجاحته .. وجعلته رقيقاً واهياً .. لا يستطيع المقاومة .

وانطلق الرجل بصرته إلى حال سبيله ، ولم يبق فى الدار سوى
أم آمنة .

ومرت ساعات الصباح ، وانتصف النهار ، وكلّ منهمك فى عمله
وكان « شوشة » أول من عاد إلى الدار قبل الساعة الثالثة .. وكان
يحمل لفافة فى يده وقرطاساً وحزمة فجل فى اليد الأخرى .. والتى
التحية إلى أم آمنة التى كانت تنتظر فى موضعها المعتاد أسفل بئر
السلم ، وسألها قائلاً :

— سيد ما جاش ؟

— لسه .

— وعم شحانه ؟

— برضه ما رجعتش .

— هوا خرج امتى ؟

— قرب الضحا ، وعزمت عليه يغير ريقه مارضيئش .

— أنا جايب رطلين سمك مقلى وشوية بلح أمهات .. وحاخش

أصلى واقيل شويه عقبال ما يكونوا جم ناكل كلنا سوا .

ودخل « شوشة » إلى الشقة ، بعد أن وضع ما فى يديه على
الطبلية التى تتوسط القاعة ، ومضت نصف ساعة والدار مفرقة فى
سكون لم يقطعه الا صوت صفير مألوف وأندام مندفعة إلى داخل الدار
وصيحة منادية :

— أم آمنة يا ويكا .

وتقف « سيد » باللوح الصفيح وارتمى فى حجر جدته المتلهلة

الأسارير ، المبسوطة الخراعين .. وقال لها وهو يتخلص من ذراعيها :

— فين الصغاره ؟

— أنهى صغاره ؟

- اللى اداها لى شحاته افندى .
- انا شفتها !! لازم متلقحه مطرح ما سييتها .
- انا عايزها ضرورى .. النهارده حان لعب عسكر وحراميه ..
- وحتنفعنى اوى .. ما لعبتيش أبدا عسكر وحراميه ؟
- ان شالله تتفصح .. انا برضه حابقى عسكر ؟
- طيب بلاش .. تبقى حراميه .. نيه اكل إيه ؟ . انا جعان .
- أبوك جايب سمك مقلى . وبلح امهات .
- طب ما تياالله ناكل ؟
- بس اما ييجى شحاته افندى .
- هوا راح فين ؟
- خرج م الصبح من غير ما يغير ريقه وماجاش لسه .
- ودلف سيد إلى الداخل ونفذت إلى خياشيمه رائحة السمك نهد
- يده إلى اللفافة التى نضح الزيت عليها ، ولكن قبل ان تمس يده السمك
- سمع صوت أبيه يناديه :
- سيد .
- أيوه بابا .
- استنى لما ييجى عمك شحاته افندى .
- حاضر بابا . انا بس كنت بشوف الورقه فيها إيه .
- فيها سمك .
- عال .. انا أحب السمك اوى .
- دلوقت نتغدى كلنا .
- ودخل « سيد » إلى حجرة الصحارة فاخرج كيس البلى واخذ يتسلى
- بعده ، ثم بدأ فى صبع كرة شراب ، ثم تشاغل باصلاح سن النحلة حتى
- شعر بحركة فى أمعائه فالتقى بكل ما فى يده وعدا إلى حجرة أبيه صائحا :
- آبا .. مش حناكل باه ؟ .. انا جمعت .

وكانت الساعة قد اوشكت على الرابعة ، ولم تكن أمعاء شوشة
مأكل صياحا من أمعاء ولده ، وبدأ يقول متلهلا وكأنه يحدث نفسه :
— هو ايه ؟ . مش ناوى بيحى والا إيه ؟
وأجابه « سيد » مؤكدا :
— الظاهر كده .. لأنه خد الصره بتاعته .
— إيش عرفك ؟
— عشان مش محطوطه نى الاوده .
— لازم مش ناوى يرجع .. مسكين . رينا يسهل له . راجل طيب
وغلبان .. يالله ناكل .
وأسرع « سيد » ينادى جدته ، وفتحت اللفافة وجلس الثلاثة
يتناولون الطعام حول الطبلية .
وعندما اوشكوا على الانتهاء من الطعام سمعت وقع اقدام متناقلة
تتقدم فى الفناء ، فأنصت الثلاثة وكانت أم آمنة أول من تحدثت قائلة :
— دا لازم شحاته أفندى !
وكانت لها قدرة عجيبة على تمييز وقع الأقدام .. فقد أخذت
الخطوات تقترب من الباب مترددة ، ثم انزوى صاحبها وراء الباب ولم
يبد منه للأعين المتطلعة غير ذراع يطرق الباب وصوت يقول مستأذنا :
— يا ساتر .
وكان الصوت يؤيد قدرة أم آمنة ، ويؤكد أن القادم هو شحاتة
أفندى . أما الذراع الطارق فقد كان يجزم بأن صاحبه ليس شحاتة
أفندى .
كان الذراع يرتدى كما اسود ، مما يدل على أن صاحبه يلبس
جاكete سوداء ، بينما كان شحاتة أفندى قد باع جاكته ولم يبق له من
رداء سوى الجلباب .
أما أن يكون الطارق غير شحاتة أفندى .. أو يكون شحاتة
أفندى اشترى جاكete ، وكلا الأمرين أكثر استحالة من الآخر .

ولم تطل الحيرة بالقوم ، فقد بددتها صيحة شوشة : « اتفضل » ،
ثم تفضل الطارق بالدخول ، وأثبت أنه فعلا شحاتة أفندى .
عجبا ! والف عجب !

اهذا هو شحاتة أفندى ؟

استغفر الله .. انه شحاتة بك .. شحاتة باشا .. لا يمكن ان
يقول عن هذا ؟

الم يكن شحاتة أفندى وهو جربوع ، سنكوح ، هلفوت لا يرتدى
سوى الجلباب ؟ فكيف به وهو يرتدى الآن بذلة سوداء كاملة مما يرتديه
العظماء فى المناسبات والحفلات .

كيف به وهو يرتدى ردنجات من جاكته وبنطلون وصدىرى وقميص
وياقة وكرافطة ؟

ان الرجل لاشك قد حصل على كنز !! فهو فوق ارتدائه لهذه
الحلة الفخمة .. قد اقبل محملا بالقراطيس واللفائف والخيرات .

وبدا شحاتة أفندى ينزل احماله الواحد بعد الآخر حتى وضعها
جميعا فوق الطبلية ، ولم تبق غير الصرة فى يده .

فقدف بها على الأرض ونفخ الجميع بنحية ملؤها النشوة والطرب
قائلا :

— يا ميت أنس .

وكان على الثلاثة (ومن بينهم العجوز الضريرة التى احست من
حركة القراطيس ان الرجل يحمل خيرا وغيلا) ان يبذلوا جهدا كبيرا
لاستعادة سيطرتهم على مشاعرهم وهم يرون هذه المعجزة الكبرى .

وصاح الثلاثة فى نفس واحد :

— اهلا وسهلا .. اهلا وسهلا .

وأردف « شوشة » يقول للرجل مؤنبا :

— نينك يا راجل ؟ إيه الغياب ذ ؟ .. احنا فضلنا مستيينك على

الغدا لفاية الساعة أربعة ، وبعدين عرفنا انك أخذت الصره ، تلنا لازم مش ناوى يرجع ؟

واجاب « شحاتة » ضاحكا :

— وانت بتقول فيها ؟ انا صحيح ما كنتش ناوى ارجع .. لانى كنت مستنقل نفسى كده ، وانا قاعد زى تنابلة السلطان .. أكل ونوم .. لكن ربك سترها .. الحمد لله .. دا ما ينساش عبيده أبدا .. « ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

ثم رفع كفه إلى أعلى وصاح فى دعاء :
— الستر يا رب .. مانيش عايز الا الستر .

وضحك « شوشة » وقال معقبا :

— هوا ده ستر بس ؟ ده ستر بنغنفة .. ده رزقك من غير حساب .. بعدما بيعت الجاكطة اشتريت بدله .. وبدله إيه ؟ بدلة بشوات .
وساله « شحاتة » فى دهشة :

— اشتريت بدله ؟ انتهى بدله دى اللى اشتريتها ؟
— اللى انت لابسا .

وانطلق « شحاتة » مقهقها ، وهو يقول :

— الله يسامحك .. دى بدلة الشغل .. دى العده اللى كانت ملفونه فى الصره .. لبستها وتلعت الجلابيه وصرتها مطرحها .

— دى بدلة شغل ؟ ! دا انت لازم بتشتغل فى وظيفة كبيره قوى .. بتشتغل وزير ؟ انا اعرف ان الواحد لما يلبس هدوم الشغل .. يلبس .. يلبس حاجه مقطعه مهيده تستحمل الشغل .. لكن ما شفتش حد أبدا يتفسخ بجلابيه دهور .. ويشتغل ببده جوخ .

وكان « شحاتة افندى » ما زال واقفا .. فقالت « أم أمنة » مقاطعة شوشة :

— اتعد يا شحاته افندى .. اتعد استريح عشان تاكل لك لقمه .

ورفع « شحاتة أفندى » سيقان بنطلونه بكتلتا يديه ، ثم رفع ذيل الجاكطة وهبط إلى الأرض مترعاً أمام الطبلية .

وكانت عين « سيد » لم تغادر الرجل لحظة واحدة .. فهي تنتقل خلاله فاحصة باحثة مذهوشة مذهولة .. لقد بدا « شحاتة » لأول وهلة عندما هل من الباب فخماً مهاباً ، ولكن عندما اقترب ووقع هو وحلته تحت الفحص المباشر بدت بذلته الفخمة رثة بالية .. كانت البذلة سوداء .. ومع ذلك فلم تكن سوداء سوداء ، بل سوداء خضراء مما يؤكد أنها لم تسلم من الصبغة بعد أن حال لونها ، وكانت يد الزمان قد جالت فيها وصالت ، وكانت البذلة كلها « مطوية » .. عدا الكيعان والركب فقد كانت « لميع » مقواة منتفخة يبدو بها أثر الكوع أو الركبة ، حتى ولو لم يكن بداخلها كوع ولا ركبة .. أما الياقة فلم يكن لها وجود ، بل حلت محلها ياقة من القطيفة السوداء ، وأما حجر البنطلون فكان مجوز إذ وضع على الحجر الأصلي حجر جديد .. يستر بلى القديم ويعطيه مقاومة ضد الزمن ، وكما كانت البذلة ليست سوداء سوداء كان القميص ليس أبيض أبيض ، بل أبيض أصفر إذ يحيط بالياقة المنشأة اطار أصفر من العرق الذي لم تنفع في إزالته يد الغسيل ، ويشد الياقة في عنق صاحبها « ببغاغ » أسود من النوع الذي يشبك الياقة بقطعتين من الحديد .. أشبه « بالكليس » .

أما القميص .. فلم يكن قميصاً بمعنى الكلمة .. بل كان لا يزيد عن صدر قميص وأسورتين .. تبدوان من طرف كم الجاكطة .

هذا هو ما استطاع أن يراه « سيد » من المنظر الجديد الذي طرأ على « شحاتة » .. أما بقية ملابسه فقد كانت هي هي .. نفس الطربوش النهار .. والحذاء الحائل الخالي من الرباط ، والجورب الصوفى الكاكي .

وأخذ « شحاتة » في فتح اللفائف الواحدة بعد الأخرى ، كانت

بالأولى كثرة ومبار ، وبالثانية جبنه حلوم ، وبالثالثة بلع امهات ورطل بسبوسة .

وصاح « شحاته » ، وهو يفتح القراطيس :

— كلوا .. كلوا بالهنا والشفاء .. اللى ربنا قدرنا عليه .

وأجاب « شوشة » بالنيابة عن الباقين :

— والله سبقناك يا عم شحاته .. احنا لسه مخلصين أكل دلوقت ..

اكلنا سمك .. كان يستاهلك .

— ما يمكنش لازم ناكلوا لقمة معايا ، تفتحوا نفسى ..

وكان « سيد » يتلطف على الكفتة ، وخشى أن يستمر أبوه على

التحدث بلسانه ويصر على الرفض . فتدخل لانتقاد الموقف قائلا :

— ما تزعلش يا شحاته أفندى .. انا حاكل معاك .. عشان

الفتح نفسك .

ولم ينتظر تصريحا من أحد ، فقد كانت المسألة مجرد معروف فى

« شحاته أفندى » ، وصنع المعروف لا يحتاج إلى استئذان .. وأخذ

الاثنان فى تناول الطعام « ونهضت » أم آمنة « إلى مقرها فى الفناء .

وعاد « شوشة » يسأل :

— ما قلتلناش يا شحاته أفندى إيه شغلتك دى .. اللى بيقلعوا لها

الجلابية ، ويلبسوا لها البدله ؟ .. انا كل ما أجى أسألك تتوه

الموضوع ؟

وأجاب شحاته وهو يدفع « بكفتاية » فى فمه ، ويلوكها بين شذقيه :

— شغلتي موصلاتى .

— موصلاتى ؟ !! معنى إيه موصلاتى ؟

— معنى موصلاتى .. معنى بوصل الناس .

— قصدك شيال ؟

— شيال إيه يا معلم شوشه .. أنا أقدر أشيل نفسى !! انا بمشى

كده لوحدى خفيف لطيف ظريف .

— مانيشى فاهم .. بتوصل مين ؟ وفين ؟

— بوصل اللى انتهى .. لنهايته .. موصلاتى ذهاب بس مش ذهاب
واياب .. اللى اروح معاه ما يرجعش ابدا .. اسييه وتنى راجع .
وضحك شحاتة مقهقهها .. ولكن « شوشة » لم يضحك بل غامت
على وجهه سحابة حزن وضيق ورهبة وقال فى صوت خفيض :
— انت حانوتى !

وعاد شحاتة يقهقه (فى غير مناسبة للضحك) ، وهو يقول
بخفة وبساسة أذهلت « شوشة » :

— با ريت .. واحنا نتوصل .. الحانوتى راجل معلم كبير ..
متريش ومبسوط .. زى المنشار .. عالطالع واكل ، وعالنازل واكل .
— امال تبقى إيه !

— حاجه كده زى صبى حانوتى أو مطيبتى جنازات .
— مطيبتى جنازات ؟

— أيوه أمشى كده قدام الجنازات من باب الافتخار والقيمة والنفخة
.. نفخة الاموات .. أو آخر نفخة بيتمتع بها البنى آدم المفرور .
— انت من اللى بيمشوا قدام الميتين ؟

— مافيش كلام .. يسمونا لفنديه .. واحنا ما فيناش من لفنديه
غير البدله .. الواحد منا يلبس البدله الرسمى اللى حيلته ويلبس الفوطه
الحره اللى زى فوط بتوع العرقسوس على وسطه .. ويمسك فى
ايده المنقذ أو القمقم .. ونزف المرحوم لغاية التربة .. يعنى بالعربى
تقدر تعتبرنى زى صبى العالمه .. بس هيه بتزف الذى لن يرحم ، وانا
بزف المرحوم .. هيه بتزفه لقلبة الدماغ .. وانا بزفه لراحة البال ..
بالذمة مش برضه أحسن ؟

ولكن شوشة لم يكن على استعداد لتقبل مزاح الرجل الماجن ،
بل كان يبدو راسخا تحت ائثال من الحزن .

وكان « سيد » قد انتهى من اكل آخر « كفتاية » وبدت على وجهه عدوى الفزع من رجل الاموات الذى يتشدد بذكر الموت والحانوتية ، وغير ذلك من الاشياء المروعة ، وكأنه يتحدث عن البلى والترنجيلة .
وازدرد « شوشة » ريقه واطلق تنهيدة طويلة .. واطرق براسه واجما .

وكان « شحاتة » قد انتهى من الاكل ، فغادر الثلاثة الطبلية وتناول الصرة وهو يتجه إلى حجرة الصحارة قائلا :

— أهو النهارده ربنا فرجها مره واحده .. صدق اللى قال :
« شحاتة » لما يسعد تيجى له جنازتين فى يوم . ومش بس كده ..
بكره كمان فيه جنازتين .. ياما انت كريم يارب .. أهو دلوقت اقدر صحيح اتعد معاك بقلب قوى ، وادفع اجرة الاودة .. عن اذنكم اما اغير .

ودخل الرجل يغير ملابسه ولف « شوشة » إلى حجرته مطرق الراس شاردا الذهن .

لشد ما ملئ « شوشة » بالحزن والتشاؤم .. لقد كان يرحب به ويضطرب لصحبته .. قبل ان يشم منه رائحة الموت والجنازات والقبور .. اما الآن فهو يحس منه رهبة شديدة .

والمصيبة ان الرجل بنوى ان ينزل بالحجرة بعد ان كان يصر على الا يثقل عليه ، وشوشة لن يجسر على طرده او منعه من النزول معه بعدما ابدى له تلك اللففة على اضافته .

وبعد برهة كان الرجلان قد ابدلا ثيابهما واستعدا للخروج ، وعلى باب الدار قال شحاتة :

— النهاره بقى أنا اللى عازمك .. يالله عشان أفرجك على القهوه بتاعتنا .. قهوة لفنديه .

وكان شوشة لم يزل على جزعه وتقززه من شحاتة وهو يكاد يشم منه روائح القبور ، فلم يكد يسمع دعوته حتى هز رأسه بشدة قائلا :

— مانيش لزوم يا شحاته أفندى .. أنا رايح القهوه بتاعتنا عشان
عندى شوية شغل عايز اقضيهم .

— وماله .. تقضى شغلك وبعدين نروح سوا .

— معلش .. بلاش النهارده .

— ما يمكنش .. أنا عازمك .. والا مش قد المقام ؟ . ما يصحش
.. لازم تجبر بخاطرى ، أنا برضك راجل عندى مقدره .

وكانت تلك هى الوسيلة الوحيدة التى يمكن بها التأثير على
« شوشة » .. وكان ذلك هو أدق وتر يمكن الضرب عليه ، فقد كان
شوشة يكره أن يخلد إنسانا أو يترفع عن إنسان ، فلم يكذب يسمع قول
شحاتة حتى أجاب على الفور :

— أبدا .. أبدا .. أنا مقصدشى .. داحنا اللى مش قد المقام ..
ياالله بينا .

— أبوه كده ما تكسرش بخاطرى .. دانت حانتبسط قوى ...

ولكن « شوشة » كان واثقا أنه لن « ينبسط » مطلقا وكيف يتأتى
« الانبساط » فى قهوة الجنازات بين مشيعى الاموات ؟

ومع ذلك فقد كان لابد من الذهاب ولابد من احتمال السهرة وصاحبها
مها كانت الظروف .

وسار الاثنان فى الطريق وجرى الحديث بينهما فاترا متقطعا نقد
كان « شوشة » شديد الوجوم شديد الشرود حتى وكأنه هو نفسه
يشيع جنازة .

وأخيرا وصلا إلى قهوة لفندية بالقرب من باب الشعرية فى شارع
الخليج المصرى وكانت تقع فى ركن مرطوب أسفل بيت خرب مهدم ولم
يكن هناك ما يميزها عن بقية المقاهى ولا ما يدل على طبيعة روادها
وزبائنهم اللهم إلا ذلك الحائوت المجاور لها والذي لا يفصلها عنه
إلا باب البيت والذي كتب عليه « الحاج سرور أبو الفرج مقاول عموم

أشغال الجنازات ، مستعد لتوريد ما يلزم من جميع مستلزمات الجنازات من أفندية وفراشة ومزيكة وخلافه » .

كان هذا الحانوت هو الدليل الوحيد على طبيعة المقهى ، أما فيما عدا ذلك فما كان هناك أى شىء يوحي بالموت .. أو تستدل منه على أن المقهى إنما هو مخزن لفندية المعدين لعمل مواكب الجنازات .

كانت أبواب المقهى الخشبية تفتح عن رحبة ضيقة رصت فى أحد أركانها الأدوات الخاصة بالمقهى كالكنك والفناجين والجوزات والشيشات ، وفى أعلى الواجهة فتحة بسعة الباب مغلقة بقضبان حديدية متوازية .. أما المناضد والمقاعد والأرائك فقد وضعت داخل الرحبة وخارجها ، وبجوار الواجهة وجدت بعض أصص حوت أحداها صبارة والباقى حوت خليطا من الريحان والعتر والبردقوش وفى نهاية الأصص وفى الناحية الأقرب لباب البيت الذى يفصل المقهى عن حانوت المقاول كانت توجد صفيحة ملأى بالطين غرست عليها لبلابة تسلقت على بضعة خيوط امتدت بين الباب وبين واجهة المقهى .

دخل الرجلان المقهى ويشوشة غير قليل من الدهش فقد كانت فى ذهنه صورة موحشة للمقهى ورواده وكان يتوهمه مكانا معتما كئيبا معقرا يخيم عليه الصمت وتجوس خلاله الأشباح وترص به التوابيت وشواهد القبور .. فإذا ما نطق به ناطق كان حديثه أنينا وصياحه ولولة .

ولكنه ما كاد يلقى عليه نظرة حتى أخذ .. كان المكان على ضيقه مكتظا ، لا بالأشباح ولا بالتوابيت ، بل بالزبائن الضاحكين الصاخبين ولم تكن تملأ منه أصوات ولولة بل ترن ضحكات خالصة لا تشويها شائبة هم ولا حزن ، وكانت تقرر فيه تشاطات الطاولات وتتجاوب النكات وتترامى الشتائم المرحية .

كان المكان محفل أنس ومجمع مرح وطرب ، ولم يكن يخلف قط عن أى متهى صاحب ضاح إلا فى ظاهرة واحدة هى طابع رواده وأشكالهم

.. كانوا كلهم من عينة واحدة وشبه واحد بحيث لا يستطيع الناظر إليهم ان يميز أحدهم عن الآخر من أول وهلة .

كانوا كلهم صورا طبق الأصل من « شحاتة أفندى » ... هيكل عجوز متداعى يلفه جلباب من الدهور المخطط وجاكته قديمة ، وطربوش منهار الأركان ، وحذاء أجرب بلا رباط وجورب منزلق من المساق الرفيعة الجرداء متساقط على الحذاء .

كانوا كلهم كذلك .. نفس الرأس الأشعث .. والوجه المغضن المعروق والذقن التى تناثرت عليها الشعيرات البيض فلا هى ملتحية ولا هى حليقة .

وسأل شحاتة صاحبه وقد وقف الاثنان فى مدخل المقهى يتلبان البصر فى أرجائه :

— تحب تتعدنين ؟

— تعال نقعد فى الركن اللى هناك ده اللى جنب اللبلاية .

— أمرك .

وجلس الاثنان على المقعدين الخاليين بجوار اللبلاية حول منضدة على قارعة الطريق ، وقال شحاتة فى لهجة ملؤها الأريحية والكرم :

— تشرب إيه بقى يا عم ؟

— اى حاجه .. هات لنا قهوه .

— قوه بس ؟ ودى تيجى .

ثم صفق بيديه وصاح بلا كلفة كانه فى بيته :

— يا محمود .. اتنين قهوه مضبوط واتنين حمى على كيفك .. وهات

كمان طاولة .

وانبعثت من وسط المقهى صيحة منغمة طويلة تطوى فى جوانبها كلمة « حاضر » ، ورفع شوشة حاجبيه فى دهش وقال وهو يهز راسه هزات بطيئة :

— عجيبه ؟

— إيه دى اللى عجيبه ؟

— أنا كنت فاكّر ان أنا حاجى اتعد فى وسط محزنه .

— محزنه . ليه كفى الله الشر ؟

— أهو قلت يكونوا طالعين جنازه ، والا جاين من جنازه .

— طالعين جنازه والا جاين من جنازه ؟ ودى حاجه تحزن ..

دى حاجه تبسط .. دى حاجه تفرفش .. الظاهر انك ما عندكش فكره أبدا .

— فكره عن إيه ؟

— عن شغلنا .. انت عارف المثل اللى بيقول مصائب قوم عند قوم

فوائد .. أهى دى الفوائد .. الجنازات عند الناس مصائب لكن عندنا فوائد .

— يا ستار يا رب !

— يا ستار على إيه ؟ . وهوا لولا جنازة النهارده كنت كلت أكلة

الكفته اللى بشتيها بقالى سنه ، وهوا اللى كان حاجرالى من زمزم لولاك مش من تحت راس وقف الحال وقلة الجنازات .

— لكن ده موت .. موت .. عارف موت يعنى إيه !

— عازقه يا سى شوشه .. عازفه كويس .. هوا أنا لى شغله

غيره .. طول النهار رايح جاى فيه .. رايح فين .. رايح القريه ..

جاى منين .. جاى من القريه .. وبعد كده تقوللى عارف الموت يعنى

إيه ؟ أنا حاقول لك يعنى إيه .. حافهمولك كويس .. وأفهمك قيمة

البنى آدم إيه .. عشان ما تبقاش موهوم قوى كده .. وتبص لى زى ما اكون مبتلى .

وفى هذه اللحظة أقبل الساتى ويده الطاولة فوضعها أمامها وعاد

يحمل إليهما صينية القهوة .. ووضع الفناجين وسكب ما فى الكنكة ثم حياهما وانصرف .

ورشف شحاتة من فنجانه أول رشفة ، ثم اعتدل فى مجلسه كمن
ينوى حديثا طويلا . . وغادرت وجهه سيماء المزاح التى كانت ترتسم
عليه ، وبدأ حديثه لشوشة يفهمه معنى الموت وقيمة ابن آدم .



قال شحاتة : إن وجه الأرض متغير ، وإن مركبات هذا الوجه
من مختلف الكائنات محدود وجودها بفترة معينة ، لها بداية ونهاية . .
ففترة الوجود تبدأ بالخلق وتنتهى بالفناء ، وتمر بمراحل الجدة والقدم
والانعدام ، وابن آدم لا يزيد عن أن يكون أحد مركبات وجه الأرض ،
فوجوده عليها محدود بفترة معينة ، حكمه فى ذلك حكم هذا المقعد
الذى نجلس عليه ، وهذه القطعة الرابضة أسفل المنضدة ، وهذه اللبابة
المتفرعة على الجدار . . انه لا بد بعد الجدة أن يصيبه القدم والانهيار
والانعدام ، ثم ينتهى ويغادر وجه الأرض لينبت سواه ويأخذ مكانه فى
الوجه المتغير . هذه ظاهرة لا جدال فيها ولا مناقشة . ولذا كان حريا
بالإنسان أن ينتهى كما ينتهى هذا المقعد أو هذا الجلباب ، وأن يغادر
محله الذى على وجه الأرض فى هدوء كما يغادر هذا الجلباب البالى فكذا
سطح الأرض لا يطيق الإنسان البالى ، وكما يمزق الجلباب وهو جديد
قبل أن على فيخلعه الانسان . . كذا تخلع الأرض بعض سكانها وهم
جدد إذا ما أصابهم التدر بمزق جعلهم غير لائقين بوجه الأرض .

ولكن الانسان يمتاز عن بقية مركبات وجه الأرض بالفور ، فهو
يأبى أن يقارن نفسه بغيره من الكائنات التى توجد لفترة محدودة ، تبدأ
بالخلق وتنتهى بالفناء . . ويأبى الا أن يعتبر نفسه كائنا غير فان وغير
قابل للانعدام ولذا فهو يفرع من أن تكون له نهاية . فإذا ما وجد
نفسه مكرها عليها غير مستطيع عنها فكاكها ، ووجد أن جسده الملموس
والشئ الذى يدلل على كيانه ، قد فنى . . أبى إلا أن يفرض بقاء الشئ
غير الملموس والذى لا يدرى كنهه ولا يستطيع تحديده الا وهو الروح ؟

وهو فى سبيل ذلك يحقر الجسد ويقلل من شأنه ويعظم من ذلك الشئ،
الذى يتوهم بقاءه وخلوده .

وهو يقول ان الانسان باقى بروحه .. ما قيمة الروح فى ذاتها
بلا جسد ؟ . ان كيان الانسان وتصرفه ومشاعره ورغباته وملذاته وآلامه
.. منعكسة من الجسد ، هو يشتهى لأن جسده يشتهى ، وهو ينعم
بالملاذات لأن جسده يرغبها ، وهو يعشق لأن جزءا من جسده أبصر جزءا
من جسد آخر .. غمن الغباء أن يحاول جعل الروح شيئا مستقلا عن
الجسد ، ومن الغباء أن يتصور بقاءها بعد فناء الجسد .. فكما لا يستطيع
أن يبقى بلا روح ، كذا لا يمكن أن يكون للروح وجود بلا جسد .

إن الإنسان روح فى جسد .. فكيف يستطيع مخلوق أن يتصور
روحه بلا معالم ولا ملامح ، ولا مميزات ، ولا رغبات ، ولا لذات ،
ولا آلام ؟ . ما فائدة الروح الباقية إذا كانت لا تريد على هبة هواء
لا شكل لها ولا لون ولا رائحة .. ولا .. ولا .. ولا شيء أبدا ؟

هذه الروح الباقية ما قيمتها ؟ وما احساسها وما عملها ؟ ان قدرة
الروح فى الأرض كائنة فى الجسد ، مسيرة لخدمته ، فهى شئ تابع
للجسد ، ولا قيمة لطاقتها إذا لم توجه لتحريك هذا الجسد .. ولتمكنه
من أداء وظيفته .. لينال رغباته ومتعاته .

انها اشبه بالقوة المحركة للقاطرة او لآلة آلة .. حقيقة انه ليس
هناك قيمة للآلة بغير القوة المحركة .. ولكن هل هناك قيمة للقوة المحركة
فى حد ذاتها .. إذا لم تجد الآلة التى تحركها ؟

ما قيمة أن تبقى الروح بعد فناء الجسد .. أو بعد فناء الشئ
الأصلى المكون للمخلوق الأدمى ؟

ولكن الإنسان المغرور يكره ان يقارن نفسه بالكلب أو بالمقعد أو بأى
مخلوق من المخلوقات ذوات المد المحددة فى البقاء على وجه الأرض .
وهو لذلك يكره الموت ويأبى قبوله كنهاية محتمة ويأبى إلا احاطته
بأوهام كريمة .. ويرفض تَعُوده ، وترويض نفسه عليه ..

انها مسألة ترويض وتعويد لا أكثر ولا أقل .

وانتهى « شحاتة » من رشف فتجانه ، وكان الساقى قد أحضر التعميرتين ، فتناول احدهما ، وتناول « شوشة » الأخرى .. وأخذ الاثنان فى جذب الأتفاس من خلال الميسم ، وعاود « شحاتة » حديثه و « شوشة » انصاته .

قال الرجل لصاحبه :

— خذنى أنا وانت مثلين لما أقول .. أنت تفزع من حديث الموت وتروع من سيرته .. لقد رأيتك تنفر منى وتنتظر إلى كائى عفريت أو شبح .. كل هذا لأنك لم تروض نفسك على عملية الموت ، ولا تعودت مظاهره ، كل شيء يحدث على ظهر الأرض يهون بالتعود .. لقد كنت مثلك منذ بضعة أعوام قبل ان أندمج فى مهنتى .. كان شعر رأسى يقف عندما أسمع صواتا ، وكنت أرتجف إذا ما طرقت أذننى ولولة .. وكنت إذا رأيت نعشا يسير خشعت وطأطأت وقرأت الفاتحة وترحمت .. أما القبور فقد كنت أخشى رؤيتها ، أما الأموات فما جسرت على أن أقترب من ميت قط . فماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد سرت فى الجنازة الأولى مطاطىء الرأس ، متجهم الوجه ، وعندما وصلنا إلى المقابر وأخذوا يوارون الجثة فى القبر ، وعلت أصوات الرجال والنساء بالنحيب ، انتحبت معهم كأن الميت قريبى .. واندفعت فى النحيب حتى كاد يغمى على ..

وضحك منى الزملاء واتخذونى موضع تسلية وفكاهة ، واكدوا لى أنى يجب أن أتناول أجرا مضاعفا وأسير وراء الجنازة ، لآنى بين الأمئديه « لقطه » ، ولكنى فى الجنازه الثانية كنت أقل تأثرا .. وفى الثالثة والرابعة لم يكن هناك تأثر قط .

كنت أسير فى الجنازة كائى فى نزهة .. وكان نحيب الناحبين يصل إلى أذننى كائنه صفير القطار ، أو مأمة المعيز . وعندما كنت أصل

إلى المقابر .. كنت أجلس على شواهد القبور ، واضمعا ساقا على ساق ، وأنا الذى كنت لا أجسر على الاقتراب منها .
لماذا ؟ انها اكوام من الحجارة رصت على الأرض .
وأكثر من هذا ، لقد بدأت اتعود النزول إلى داخل المقبرة نفسه ..
اتصدق هذا ؟ لقد فعلت هذا لانى عزمت على أن أهزم فى نفسى كل خوف من الموت أو رهبة له كثنىء مروع . عزمت على أن اكشفه تماما ، وأن اصل فى كشف خباياه إلى أعماق الأغوار .

لقد تطوعت لحمل أحد الأموات إلى داخل المقبرة .. ولا اكتمك ان الأمر كان يحتاج منى إلى شىء من الجراءة فقد ارتجفت عندما مست يدى لحبه البارد وجلده الباسى .. ولكن بعد لحظات ذهب عنى الخوف ، ولم يزد شعورى عن شعورك عندما تحمل فخذة خروف أو أوزة مذبوحة .
ليس كلاهما جسد ميت من لحم وعظم ؟

وهكذا تعودت أن أنزل مع الأموات إلى المقابر .. انها مسألة بسيطة جدا .. فالمقبرة لا تريد على كونها قبو تحت الأرض ، تنائرت العظام فى ناخية منها ، وفى الناحية الأخرى جيف لم يقدم عليها العهد حتى تضحى رميا .

ولا تسئل عن الفائدة التى جنيتهما من ذلك !!

لقد أصبحت رجلا شجاعا .. بل أصبحت أشجع رجل فى العالم .
لقد بت أحتقر الموت وأحتقر أكثر منه .. الاتسان .
الانسان حقير يا صاحبنى إلى أقصى حدود الحقارة .. والعجب !!
انه حقير ومغرور .. وغروره يعنى عينيه عن حقارته .

انظر إلى الناحية الأخرى من الشارع .. أترى هذا الشىء الملقى هناك الذى يعف عليه الذباب .. انها جيفة كلب ميت منتفخ الجسد ..
انظر إليها جيدا .. لا تشمئز كثيرا ، واسمع حكايتى التى سأقصها عليك :

كنت أسير ذات يوم فى أحد الطرقات فرأيت الطريق تد اخلى ،

والناس مزدحمة على الأرصفة : وقد صفت الجنود على الجانبين ،
وسألت عن الخبر ، فعلمت أن كبيرا سير ، وأن الطريق قد أخلى له ،
حتى لا يعرقل سير موكبهِ رائح ولا غاد ، وحتى لا يشاركه الطريق مار
من البشر يفسد فخامته وابهته ، وبعد لحظة أقبل الموكب ، خيل مطهمة
وجند مدججون وحراس مزركشون وعربات مزينة مزخرفة . . ومر
الكبير ، وهو يرغل في أبهى مظاهر العظمة والروعة ، وأخذت من مرآه ،
وبدا لى كأنه قد هبط من السماء ، وأنه من المستحيل أن يكون بشرا
مثلا ، بوجهه الأبيض المتورد وحلته الجوخ المزركشة بالقصب ، وقد
حفت به كوكبة من الفرسان برماحهم وسيوفهم .

وأحسست بالضالة والانكماش . . واحتقرت نفسى احتقارا شديدا .
ومرت بضعة أشهر ، ثم سمعت أن الكبير قد مات . . ووقفت أرقب
جنائزته ، وبدأ يمر موكبها رائعا فخما . . لا يقل فخامة عن موكبهِ ، وهو
حى . . كانت فصائل الفرسان والجنود يتقدمون النعش بملابسهم الزاهية
الملونة تتخللهم الموسيقى العازفة الصادحة ، وهى ترن على جانبى
الطريق فتحدث صدى مروعا ، وبدأ النعش محمولا على مدفع ضخ
ملفوف فى علم أخضر ، تجره الجياد السود الضخام . . وتحلت مقدمته
بصنوف النياشين والمداليات .

وتلا ذلك حشد زاخر من المشيعين يتقدمهم الرجال الرسميون
بحلهم السود المزركشة ، ثم تلت بعد ذلك وفود لا حصر لها .
وأخذت من روعة الموكب . . وقلت لنفسى . . تبارك الذى خلق . .
« علو فى الحياة ، وفى المات » . . وعظمة حتى بعد أن قضى .

مرتين كان فيهما الرجل الكبير رافلا فى أبهى مظاهر الإبهة والفخامة
. . تحف به مواكب الحراس والجنود . . مظهرة أروع صورة لعظمة
الإنسان وسلطانه مما يجعل النفس تتضائل بجوارها .

ثم رايته فى المرة الثالثة !!

انظر إلى جيفة الكلب المنتفخة النتنة الملقاة أمامك .

لقد كان كذلك .. لا يفترق عنها قييد أنملة .

لقد تصادف أن مات قريب له بعد ذلك ، وكان أقل منه قدرا مما سح
لى بأن اشترك فى زفافه حاملا قممى لابسا حلتى وفوطتى ، ودين
الرجل فى نفس مقبرة الكبير وتطوعت لحمل جثته داخل المقبرة ، وهبطت
إلى المقبرة .

وهناك وجدت الآخر .. بلا مخامة ولا ابهة .. ملقى كالقريبة الملقى
التي تحملها على ظهره أو كالخروف المذبوح الذى نفخه الجزار إعدادا
لسلخه .. بلا حراس ولا جنود ، ولا موسيقى ولا مواكب .. اللهم
إلا مواكب الدود .. دود عادى لا يلبس التشريفة ولا يمسك رمحا
ولا سيوفا .. دود بسيط كذلك الذى يحف بجثتك وجثتى وجثة هذا
الكلب .

ولم أتمالك نفسى من ابتسامة ساخرة .

أرايت أحقر من الإنسان أو أشد غرورا ؟

إياك أن ترهب إنسانا لظهره ومنصبه .. إياك أن تروع بتلك
الألقاب وتلك الثياب .. انها مهما ضخمت فلن تحوى فى طياتها سوى
بشر ، ومهما ضخم البشر .. فمآله إلى جيفة ننتنة .. كهذا الكلب .

ليفتر ما شاء له الغرور ، وليتكبر ولبتعاطم وينعجرف . ليفعل كل
شئ .. كل ما عليك أن تعطيه موعدا أقصاه بعد أعوام .. لتلقاه
فى مقبرة وانظر كيف يبدو .. أسأله عن القابه وعن ثيابه وعن حراسه
وهن أمواله وعن سلطانه وعن جبروته وعن قوته ثم انظر بماذا يجيبك .
إذا أجابك بأكثر مما يجيبك ذلك الكلب .. فابصق فى وجهه ..
وفى وجهى .

كلها أعوام .. والأعوام تمر على الزمن الطويل كالدقائق ، ثم تلتى
صاحب العزة وصاحب السعادة وصاحب الرقعة ، وصاحب أقخم لقب
من الألقاب البشرية على الأرض ممدد الأطراف منفوخ البطن لا يحميه من

عادية الدود قانون ولا يصون ذاته الكريمة التى لا تمس صائن ، ولا يلقى
جثته الممرغة فى التراب الشرفة للمقبرة .. واق ولا حام .
ليس هناك أحتر من البشر ولا أغفل . أهنك أشد غفلة من مخلوق
يفغل عن نهايته ؟

أهنك أكثر غفلة من مخلوق يوقن من نهايته ولا يعتبر بها ؟
هذا هو الموت يا صاحبي ، وهؤلاء هم البشر .
نهاية طبيعية .. لمخلوقات غير طبيعية .

وانتهى « شحاتة » من حديثه وسرعان ما زالت عنه مظاهر الجذ
ثم اطلق ضحكة عالية وقال لشوشة :
— ايه بقى رايك يا عم فى المحاضرة دى .. صدقت والا لسه ؟ .
وانبعتت من صدر « شوشة » تنهيدة حارة ولم يجب فأردف
« شحاتة » مقما :

— أنا عارف ان ما فيش فايده .. ما فيش فايده .. إلا إذا شفت
بنفسك واتعودت بنفسك .. أنا برضك لو كالى واحد حلف لى على اليه
تجهد على الكلام اللى قولتهولك ده قبل ما اجر به ماكنتش صدقته .. على
العبوم كل اللى عايزه انك ما تتضررش من عشرين والقعدة معايا ..
لانى ابتديت أحبك ، ونفسى أنا نفضل أصحاب على طول ، لكن إذا
كنت انت ما تتضررش تتخلص من ضيقك منى ومن يومك من الجنازات
والموت .. فانا ملحش أضايقك ولا اتقل عليك .. وأنا من النهارده
أرجع معاك وأخذ الهدوم بقايتى ...
وقفز الدمع فجأة إلى عيني « شوشة » وبذل جهدا كبيرا لاعادته إلى
موضعه ، ولان كان « شحاتة » قد لمح أحمرار عينيهِ .
وبعد أن تخلص من دمه قال :
— يا شحاتة افندى .. انت زى ما جيتنى أنا حبيتك .. أنا بقالى

مده مشى لاقى صاحب استريح له ، وافضفض له . والبنى آدم من غير صاحب ما يسواش بصله .. البنى آدم أكثر ما يحتاج له فى حياته صاحب ، وأنا حاسس انك صاحب حقيقى ، وزى ما انت مش عايز تفرط فيه أنا مش حافط فيك .. أنا بيتى بيتك ، وأهلى أهلك .. خليك قاعد معنا على طول .

وعندما طفرت الدموع إلى مقلتى « شحاتة » لم يحاول ان يعيدها بل تركها تنساب فى اخايد وجهه المغضن .

وأخيرا نهض الرجلان مفادين المقهى متجهين إلى البيت . وفى الطريق توقف شحاتة أمام مقلة الحسينية وابتاع خيطا من الفسول السودانى واللبن والحمص ثم سأل شوشة :

— حانشتري عشا إيه ؟

— ما فيش لزوم .. العشا موجود .. فيه جنبه وفيه بلح وفيه البسبوسة وفيه غسل اسود . مافيش لزوم للطرطه .
— طب نشترى حاجه لسيد .

— كفايه اللبن والفسول .. هو حايذهب .

ووصلا إلى البيت وكانت أم آمنة تقوم بعملية تشطيف سيد ، وكان صراخه التقليدى يعلو محتجا على استعمال الصابون .

ووقف « شحاتة أفندى » فى القاعة وهو يصيح بسيد مستفسرا :

— مالك يابو السيد ؟

— بتغسل لى راسى بالصابون .

— وإيه يعنى ؟ ودى حاجه تستاهل الصريخ دا كله ؟

— طيب تعالى أنت كده ورينا شطارتك .. خليها تغسل لك راسك

بالصابون وشوف حاتصرخ والا لا .

— لا يا عم . حد الله بينى وبينها .. أنا بقالى ثلاثين سنه ما غسلتس.

راسى لا بميه ولا بصابون .

— طيب أمال عامل حدق ليه ؟

- لما كنت صغير قدك كنت يستحيل .. لكن دلوت كبرت ..
- عقبال ما تكبر انت كمان وتتمتع بالوساخه .
- وانتهت ام آمنة من تشطيف سيد ، وذهبت إلى حجرتها للصلاة ،
- وعدا سيد إلى شحاتة في حجرة الصحارة قائلا له :
- انت خلاص حاتسكن هنا ؟
- ان شاء الله .. لو ماتضايقوش منا .
- نتضايق ازاي ؟ احنا ديكي الساعة لما يسكن معانا شحاته
- افندي بحاله ؟
- عشت يابو السيد .. عشت .
- بسر اسمع بقى .. فيه حاجات عايزها منك .
- إيه هي .
- اول حاجه تعلمنى الصغاره .. عشان طول النهار باتنخ فيها ..
- مانيش عارف .
- بس كده .. خليها على الله .
- تانى حاجه .. عايزك كل يوم تسمع لى السوره .
- سورة إيه ؟
- السوره اللى علينا فى الكتاب .. انت ما انتساش حافض
- القرآن ؟
- والله مش قوى .
- ليه مارحتش كتاب وانت صغير ؟
- رحت .
- طيب ما حفضوكش القرآن ؟
- حفضونى ونسيته .
- معلش .. على العموم السوره مكتويه فى اللوح .. وكل
- اللى عليك انك تسمعها لى من اللوح .
- بسيطه .. فيه إيه تانى ؟

— تعرف تعمل طيارات .
— طيارات ورق ؟
— امال يعنى حاتعمل طيارات حريبه ؟
— والله كنت زمان بعمل .. وافكر برضه ان انا اقدر اعمل
دلوقت .

— طيب عايزك تعمل لى طياره .
— عندك الورق والغاب ؟
— عندى الغاب ، وهات لى انت الورق .
— حاضر .. فيه حاجه كمان ؟
— تعرف تعمل كوره شراب ؟
— واعم كوره شراب .
— وتلعب بالنحله ؟
— والعب بالبيضة والحجر .. كل اللى انت عايزه حاعملهولك
يابو السيد .. ما تحملش هم ابدا .
— يا سلام يا شحاته افندى .
ثم صاح هاتفا بأعلى صوت :
— يعيش شحاته افندى .. يعيش شحاته افندى .
وكانت « ام آمنة » قد انتهت من الصلاة وصاحت بسيد :
— هات الاكل اللى جوا من المطبخ رصه على الطبلية يا سيد ..
عشان ابوك وعك شحاته ياكلوا .
— وانتى مش حاتكلى معنا ؟
— أنا كلت .

ورص الطعام وانتهى الثلاثة من تناوله وآوى شوشة إلى حجرته
فجلس بجوار النافذة جلسته الصامته الحزينة رانيا يبصره إلى النجوم
المظلة من سقف الدرب .. وجلس شحاتة ممسكا بالناي وقال :

— هه .. نیندی ؟

— آیوه .

— انا حاصفر لك حته سهل .. وبعدين حاعلمك ازای تصفرها .

ثم بدأ يصفر لحنا بسيطا لم يكده يسمعه سيد حتى صاح فرحا :

— عارفه .. مثن ده .. « خد البزه واسكت .. خد البزه

ونام » ؟

— أهو هوه .

واستمر الرجل في الصغير وسيد ينشد معه صائحا :

خد البزه واسكت خد البزه ونام

امك السيده وأبوك الإمام

ثم كف « شحاتة » عن الصغير وبدأ في الشرح قائلا :

— شوف بقى يا سيدى ، هات ايدك اليمين .. خلى صباعك الكبير

تحت الصفارة وافرد صوابك الأربعة وحطهم على الخروم اللى في

الآخر .. آیوه كده .. وكمان ايدك الشمال .. خلى صباعك الكبير

على الخرم اللى تحت الصفاره والتلات صوابع اللى بعديه حطهم على

الخروم اللى ناحية بقتك .. ودلوقت عايز تنفخ .. شيل صباعك الثانى

وبعدين الأول .. حطهم الاتنين وشغل التالت والرابع .. آیوه كده ،

ثانى انفخ .. شيل الأول ، والثانى .

واستمر شحاتة في درسه حتى استطاع سيد أن يصفر المقطع

الأول من اللحن فقال الأستاذ :

— بس .. الليله دى كفايه كده .. بعد جمعه .. حتبقي أحسن

زمار في مصر .. ولا البزرى .. ودلوقت بقى هات اللوح لما اسمعك

السوره .

واحضر « سيد » اللوح الصفيح واعطاه لشحاتة قائلا :

— آخر سورة خدناها هي سورة عبس .

— ومال خطك وحش كده ليه .. زى نغبشة الفراخ ؟

- ده وحش ؟
- أنا مش عارف اقرا منه حاجه ابدأ .
- لازم مبتعرفش تقرا .. تلاقيك نسيت القرايه .. زى ما نسيت القرآن !
- يا واد بلاش نقوره .
- آمال مش عارف تقرا خطى ازاي ؟ مع انه احسن خط فى الكتاب كله ؟
- طب قول بلاش غلبه .. ابتد .
- وجلس « سيد » متريعا على الارض ، واعتدل فى مجلسه ، ثم بدا يهتر للأمام وللخلف مرددا :
- عبس وتولى أن جاءه الأعمى .
- واعترض « شحاتة » قائلا :
- وهو يعنى عبس دى .. ما تتقالش إلا إذا اتتهزيت قوى كده ؟
- آه .. زى ما علمونا .
- طيب كمل .
- وعاد « سيد » إلى الترنح مرددا :
- عبس وتولى أن جاءه الأعمى .
- وبدا أن الكلمة التالية قد غابت عن ذهنه ، فقد أخذ يردد الجملة بضع مرات ، ثم خرج عن السورة محاولا التخلص من ما يؤرق النسيان بسؤاله « شحاتة » قائلا :
- الا على فكره يا عم شحاته .. يبقى مين عبس ده ؟
- عبس ؟
- أيوه عبس .
- ما يبقاش حد .
- يعنى إيه ما يبقاش حد ؟ يطلع من الكفار والا من المسلمين ؟
- لا من الكفار ، ولا من المسلمين .

— آمال يبقى ايه ؟

— هوا حد قتال لك ان عبس ده راجل ؟

— آمال ست ؟

— يا بنى آدم .. عبس .. يعنى كثر .. تولى .. يعنى انصرف ..

الاستاذ ماقالكش كده ؟

— لا .

— آمال قال لك ايه ؟

— ولا حاجه ابدا ، بيخلينا نحفض كده من غير سؤال . خدنا جزء عم كله .. من غير ماحنا فاهمين ولا كلمه ، واهو كلام بنقوله عمالين زى البغبغات .

— طيب يا سيدى انا حافهمك ، حكاية عبس وتولى دى .. كان فيه واحد من الصحابة اظن ان اسمه ابن ام مكتوم .

— ابن ايه ؟

— ام مكتوم .. اسمه كده .

— ماله ابن ام مكتوم ده ؟

— ده كان راجل اعمى ، فراح يوم للنبي عليه الصلاة والسلام ، فلقاه مشغول مع جماعه من الكبار .. الى عليهم القيمه بتوع قریش ، وعمال يهدى فيهم ، فراح حاشر نفسه وسطهم وقطع عليه الكلام ، وقال له « علمنى مما علمك الله » وتعد يزن عليه ، والرسول مش سائل فيه ومشغول بالجماعه التانيين ، فنزلت الآية دى على سيدنا محمد تقول له انه ما كانش حقه يعبس ويكشر ويسيب الراجل الاعمى الغلبان لانه عايز يتعظ ، ويمكن الموعظة تقيده .. اهى دى كل الحكايه . طبعاً ما كنتش عارف عنها حاجه وعشان كده لازم بتحفض غصب عنك .. وانت متأذى ؟

— بحفض لخوفى من الفلكه والمترعة .

— يا خسارة القرآن بين الجهله .. القرآن دا « يا سيد » كلام
 حلو .. بس لازم يتفهم .. ده معجزة .. دا ماقيش حاجة فى الدنيا
 تخلىنى انطرب اد سماع القرآن والاتصات له . انت لو فهمته حاتحفظه
 من نفسك .. شايف الآيه المتعلقه على الحيط دى .. اقراها كده .
 وبدا « سيد » القراءة ، وكانت الآيه مكتوبة بالخط الثلث المتشابكة
 حروفه ، فلقى « سيد » صعوبة فى قراءتها وأخذ يردد فى ببطه :

— ولنبلو .. ولنبلو .

ثم صاح فى يأس :

— احنا ما خدناش الخط المشبك ده .

— ولا حاتخدوه .. دا شغل خطاطين .. بيكتبوا حاجات عشان
 الزينة مش عشان القرايه .. انا حاقراك انا .. (ولنبلونكم بشئ من
 الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين
 الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) .
 يعنى ان ربنا بيبتحننا بالخوف والجوع وضياع الأموال وهلاك الأنفس
 والأولاد فبشرى للصابرين الى لما تصيبهم مصيبة قالوا ان احنا ملك
 لربنا ، واننا راجعين له .. شايف الآيه دى وشايف حلاوتها .. فيه
 حاجة تصبر المخلوق المصاب أكثر من كده .. وشوف الآيه التانيه :
 (والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا
 وأولئك هم المتقون) .

يعنى الى يصبروا على الفقر والمرص وعلى الضنك والأذى هم دول
 المتقين الصادقين .. فيه تكريم للمصاب أكثر من كده ! وفيه تشجيع على
 الإيمان واحتمال المكاره والصبر والجلد أكثر من كده ! دى حاجة تخلى
 الواحد يتمنى المصيبة عشان يصبر عليها .

وهز « شحاتة » رأسه فى تأثر ، وهو ينظر إلى « سيد » ليرى
 مدى تأثير قوله عليه .. ولكن الصبى فاجاه بسؤاله :
 — لما ما يكونش لها ديل بتقلب ليه ؟

ودهش الرجل أيما دهشة فقد ظن أن الصبى منهمك فى الانصات إليه .

ولم يملك إلا أن يسأله فى دهشة :

— من غير ديل ؟

— أيوه .. بتقلب ليه ؟

— هى إيه دى ؟

— الطيارة .

— آه .

وتبين أن ذهن الصبى كان شاردًا طول الوقت فى الطيارة ،
وأنه لم يع شيئًا من درس التفسير الذى لقنه إياه . ولم يجد بدا من إجابته
بقوله :

— حشان الديل يحفظ التوازن بتاعها .

— توازن ؟

— أيوه .. يعنى ما يخلش جنب اتقل من جنب .. تبقى زى

الميزان لما تكون الكفتين مصاد بعض .

— طيب وليه تضرب بالراس ؟

— هى إيه دى ؟

— برضه الطيارة .

— والله حكاية ضرب الراس دى معرفهاش .. ده علم جديد ،

اصل على أياها ما كانتش تضرب بالراس أبدا .. كانت طيارات مؤدبه

.. ومع كل انت زعلان ليه .. لما تضربك بالراس ابقي اضربها انت

بالراس .

— هوا إيه أصله ؟ هى حا تضربنى أنا بالراس ؟

— أمال حاتضربنى أنا ؟

— لا .. حاتضرب الهوا .

— طيب يا سيدى ضربه .. انتة يعنى صعبان عليك الهوا ..

خليهم يصطفلوا مع بعض .. ما هو تلاقى الهواء يرضه لازم عمل فيها
حاجه .. يعنى هى حاتضربه كده من الباب للطاق .

— ما هى لو ضربت بالراس .. حاتقع على الأرض وتنكسر .

— بقى تستاهل .. عشان تحرم تضرب بالراس .

ثم أمسك « شحاتة » باللوح الصفيح وهز رأسه قائلا :

— الحقيقة لهم حق يحفضوكم صم ، دول عشان يحفضوكم بالتفسير
ويخشوا معاكم فى حكايات عن الطيارة ، وضربها بالراس ، لازم
حايخدوا لهم أد ميت سنه لما يخلصوا جزء « عم » .. سمع يا خويا سمع
.. قول الله يعينك .. خلينا نقوم ننام لحسن ورايا بكره ثلاث زفف ..
قول يا سى سيد .. « عبس وتولى » .

وجلس الصبى جلسته المتربعة ، ونصب هامته ، ثم أخذ فى
الترنح للأمام وللخلف قائلا :

(عبس وتولى .. أن جاءه الأعمى .. وما يدريك لعله يزكى) .

الفصل الثامن

استعداد لمركة

مرت الأيام و « شحاتة » ينزل فى شقة « شوشة » ويقطن حجرة الصحارة ، وشارك الأمرة فى أكلها ومقرها حتى بات كأنه عضو فيها وأنه ساكن أصيل يعيش معهم من عشرات السنين ، فقد ألفوه والنهم حتى لم يعودوا يتصورون أنهم كانوا يعيشون من غيره .

ولا شك أن وقف الحال الذى كان قد أصاب « شحاتة » فى الفترة الأخيرة قد ولى عنه تهما ، وأن الدنيا — أو على الأصح الآخرة — قد اتبلت عليه ، وأغدقت عليه من أمواتها الجم الكثير ، وأن الله قد أصاب الناس بوباء أو بفترة ، وأن عزرائيل قد نشط من أجل « شحاتة أمندى » نشاطا عظيما ، وأندفع بين الخلق يطيح برقابهم ويقصف أعمارهم .. فكان « شحاتة » يخرج من الدار بصرتة ويظل غائبا طول اليوم ، فلا يعود إلا فى آخره مرتديا بدلة الشغل منهك الجسد متعب الساتين من فرط المشى والتشجيع .

وبدت مظاهر العز والنغمة على « شحاتة » جلية واضحة ، وكانت أول تلك المظاهر هو نفحة شوشة « ربالا » كأجر للحجرة التى يقطنها وابتاعه لنفسه جاكته « نصف عمر » من سوق الكانتو بدا فيها محترما مهابا .. ثم اغداقه القروش على « سيد » واغداقه المأكولات والحلوى على أهل الدار فى كل غدوة وروحة .

وفى ذات يوم خرج قبيل المغرب مع « شوشة » قاصدين المقهى الذى تعود ان يجلس عليه شوشة ، وكان شحاتة يرتدى جاكته الجديدة أو نصف الجديدة وقد كوى طربوشه وغسل جلبابه ومسح حذاه الإجرب ابتاع له رباطا اغلق به فاه ورتق الثقوب التى به بما تيسر من اللوز ورفع الجورب المتساقط وشدّه على ساقه بقطعتى دويّاه .

بوجه عام كان شكل الرجل مقبولا ، لا سبها وقد حلق ذقنه ، ولم يعد هناك اثر لطبقة الشعيرات البيضاء المتناثرة على صفحة وجهه والشبيبة بغزل البنات المفروك .

وصل الرجلان إلى المقهى واتخذا مكانهما فى الركن الذى تعود ان يجلس فيه « شوشة » ، وفرقا بضع تحيات هنا وهناك ، وكان « شحاتة » قد أصبح شخصية معروفة فى المقهى .

ورآه أحد الجالسين فهمس لصاحبه :

— الرجل ده بيشتغل إيه ؟

— من بتوع القمامة اللي بيعشوا قدام الجنازات .

— يا ساتر يا رب .. اللهم أبعدنا .

والتفت أذن « شحاتة » الحادة السمع حديث الرجلين نصاح مقهتها :

— أظن .. أنا بمشيش فى جنازات الهلافيت أبدا .

وعبس الرجل ، ولكن رواد القهوة اندفعوا فى الضحك .

ووجه شحاتة القول إلى شوشة متسائلا :

— فيك من عشره طاولة ؟

— أوى .

— بس خلى بالك . أنا ناوى أضحضحك ، أنا النهارده غايق لك

توى .

— أدها وأدود .. تطلب إيه ؟

— هات لنا قهوه وتعبيره .

وصفق شوثة بيديه فأقبل الساقى وأعطاه الأوامر بالطلبات فصاح
بنادبا بها بطريقته الغنائية ، وكان شحاتة يتلفت حوله فاحصا وجوه
الوجودين كأنه يبحث عن شخص معين وأخيرا أمسك بذراع صاحبه
وسأله فى لهفة :

— اسمع .. مش ده صاحبك ؟

— صاحبى مين ؟

— صاحبك الدباح .

— قصدك شرف الدين ؟

— أيوه .

والتفت شوثة الى الناحية التى يشير إليها شحاتة فوجد شرف الدين
جالسا على مقعده ، واضعا ساقا على ساق ممسكا بيده « فردة شارب »
بزيده برما وبالأخرى مبسم الشيشة فقال شوثة :

— أهو هوه .

ثم استدرك قائلا :

— لكن مش صاحبى ولا حاجه .

وضحك شحاتة قائلا بخبث :

— طب ومالك بتبترى منه كده ليه ؟ هو معره ... يا سيدى ياريت

يكون صاحبى أنا .

ثم رفع يديه إلى السماء داعيا :

— اللهم اجعلنا من يركاك يا سيدى شرف الدين يا دباح .. نظره

يا سيدى شرف نظره .

والتفت إلى شوثة مردفا :

— أنا أصلى ما قدرش حد فى الدنيا قد الجماعه دول . كفايه انه

من ريحة عزيزه نوفل ، دا زى سيدنا رضوان .. فى ايده مفاتيح

الجنه .. هو يقدم لنا حوريات الارض .. ورضوان يقدم لنا حوريات

السماء ، واحد بياخذ أجره منا والثانى أجره على الله .

وأطرق شوشة برهة براسه قبل أن يجيب قائلاً :

— يا عم حد الله بينى وبينهم .. أنا كافي نفسى شرهم .. أنا أكبر دعوه بدعيها فى صلاتى « اللهم اكفنى شر رغبات نفسى » . هوا فيه حاجة بتذل الإنسان وتستعبده أد رغباته ، رغبته فى النسا بتذله وبتخليه يجرى وراهم ويسترضيهم . ورغبته فى المال بتذله لجمعه والحرص عليه ، ورغبته فى الأكل بتذله لبطنه . هوا فيه درع يعين الإنسان على الحياة .. قد الزهد .. هو فيه أقوى فى الحياة من انسان غلب رغبته وقتل مطالب جسده .. ده يبقى الإنسان الحر اللى يقدر يدوس على الحياة بجزمته ...

— وليه ده كله يا سى شوشه ؟ تدوس الحياه بجزمتك ليه ؟ هى عملت فيك حاجة ؟ وهوا لما تبقى مالكش ولا رغبة وتزهد فى كل حاجة .. تعيش ليه . وإيه فائدة أنك تبقى حر إذا كنت مانتاش عايز حاجة .. ما تسيب الدنيا احسن .. الدنيا ما فيهاش حاجة تستاهل العيشه غير شوية الرغبات اللى أنت عايز تزهد فيها .. ما فيهاش غير ساعة حظ .. فإذا كنت مانتاش عايز ساعة الحظ .. يبقى موتك احسن .

وضحك شوشة وقال :

— ماهو اصل الواحد ما يلاقىهاش بالساهل .. بيدوخ لفاية ما يطولها يا سى شحاتة .

— ماهى دى لذتها .. هى دى الدنيا .. إنك تجرى ورا حاجة عايزها .. يوم ما يكونش لك حاجة تموزها ، وتجرى وراها .. يعنى مت .. لما تلقى كل حاجة جاهزه قدامك .. بعد مدة بسيطة الواحد حايزها .. هوا فيه حاجة بترها الواحد من مرانه غير انها قدامه يلاقىها وقت ماهو عايز .. لكن لو كان بينطلها من شبابيك وبيترقع علقه ، ويتدشش قبل ما يطولها .. ما كائنش زهق منها ابدا .. على العموم

سيك من ده كله .. خلينا فى المفيد .. قول لى .. الجدع الدباح
ده .. الواحد يتعرف بيه ازاي ؟

— ولا حاجه .. قوم كده خده بالحضن .

— أنا باتكلم جد .. ايه الطريقه اللي تعرفنا بيه ؟

— ولا حاجه اصبر عليه هوا حاجيلك لحد عندك .. أصل له
بصيره نافذه ، نظرتة ما تقعش الأرض .. يشمشم زى الكلاب ..
دلوقت يعرف انك انت صيده ويجيلك لغاية هنا .. هوا المره اللي فاتت
لو كان لقي فيك الرمق كان عتتك .. لكن اصله لقاك وقبع خالص .
— والمره دى .. فيه امل ؟

— قوى .. فيك الرمق خالص .. يالله نبتدى .

وفتح شوشة الطاولة ، ويدأ فى رص الحجارة . ثم رمى بالزهر :

— شيش جوهار .. لعب .

ولكن شحاتة لم يلعب .. فقال له :

— ما تلعب .. مستنى إيه .. الزهر قدامك .

ولكن « شحاتة » لم يمد يده إلى الزهر ، ورفع « شوشة » بصره
ليرى ما أصاب صاحبه ، فوجده فاغرا فاه ، محمقا بعينه فى الرصيف
للآخر .. ولم يلبث حتى انطلقت منه صيحة مدوية قال فيها .
— يا حلو ..

ثم رفع عقيرته بالغناء منشدا :

— « ما كانش كده طبعك يا غزال .. والنبي أنا مقدر على دى
الحال » .. أنا قتيل الهوى .. أنا صريع الغرام .. « يالى جرحت القلب
داويه .. غيرك أنا معرفش طبيب » ، « كادنى الهوى وصبحت عليل ..
زى النسيم فى روض الحسن » أموت فى العسل النحل .. أموت
فى الشهد المروق .. يا خلق يا هوه .

وصاح به « شوشة » زاجرا ، محاولا رده عن إحداثه تلك

الضجة :

— يا جدد العيب ما تفرجش علينا الناس .

— العيب .. العيب والقمر سايب سماه ، وبيتمشي على الرصيف
اللى قدامى .. ليه ؟ ما عنديش نظر .. انطسيت فى عنيه ؟

ثم اندفع ثانية فى غزله الصاخب صااحا منشدا :

— « بشارك يا قلبى آدى اللى كنت به موعود

زارك حبيبك وطاب أنسك على موعود »

يا ميت حلاوه .. يا ميت فل .. يا ميت مسا .. يا سيدى بنمسي !
وهكذا ظل سيل الغزل يندفع من فمه بلا توقف ، حتى اختلت
« عزيزة نوفل » عن ناظره ، وعاد إلى وعيه فأمسك بالزهر وقذف به
فى نشوة معتذرا لشوشة بقوله :

— ما تأخديش يا معلم .. أنا أصلى ما ببقاش فى وعيى ، بنوه
.. أنا بابقى فى عالم تانى .. أنا عارف ان ده عيب ومايصحش .. لكن
ما بقدرش .. اعذرني .. أوعى تزعل منى يا معلم شوشه .

— معلش .. حصل خير .. العيب .

— جوهار ياك .. حلوه دى .. أهو أنا حابسك فى خانة ألياك ..
ومش سانسك .. ولو بالجلبل البلدى ، دى أصلها لعبة حريفه .. ولا اتغن
شنب يعرف يلعبها .. دى أصلها ...

ولكن قطع عليه استرساله فى الحديث صوت أجش صاح من
ورائه بقوله :

— سلامو عليكم .

وتلفت « شحاتة » ليرى صاحب التحية .. فإذا به « شرف الدين »
فتهللت أساريره وهتف مرحبا :

— أهلا وسهلا .. عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .. اتفضل
يا معلم دباح .. يا الف مرحب .. هات لك كرسى واتعد .. احنا حانخلص
بسرعة .. أنا حاديهوله مارس وأخلص ، شايف قافشه فى خانة ألياك

ازای ، قافشه بکلبش ! اهلا وسهلا ، اهلا وسهلا .. انستنا يا معلم ..
شرفتنا .

— الله يشرف مقدارك .

— ازيك كده ؟

— الله يحفظك .

وجذب شرف الدين كرسيا وجلس يرقب اللاعبين وهما يتبادلان
الزهر ، وأخيرا انتهى اللعب وأغلق شحانة الطاولة وهو يقول :
— أظن كفايه كده ؟ ازای الحال يا معلم شرف ؟
— رضا .. الحمد لله .

ولا شك أن المعلم « شوشة » قد أحس حرجا من جلوس صاحبنا
الدباح بجواره ، فقد بدأت الأعين ترمقهم خلصة ، وبدا له أنه قد يؤخذ
بتهمة هو منها براء ، فأخذ يتعلمل في مجلسه ثم ما لبث أن نهض قائلا :
— عن اذنكم يا جماعه .. لحظه واحده .. اما اقول للمعلم خشت
على موضوع كنت عايزه منه .

وأجاب الاثنان في نفس واحد :

— اتفضل .

فلقد كان كلاهما يحس نفس الحرج الذي أحسه المعلم شوشة ،
ولم يكن يعرف أحدهما كيف يفتح الموضوع الذي يدور برأس كل منهما ..
ولكنه لم يكده ينصرف ويخلو كل منهما إلى الآخر حتى كشف كل منهما قناع
الحياء عن وجهه :

قال شرف وهو يفرك يديه ويتنحنح :

— عندنا حاجات طيبه أوى يا سيدنا لفندى .. عندنا ولاد ناس
طيبين .

— ناس طيبين إيه يا سي شرف ؟ . احنا حانخطب .. أنا محبش
الناس الطيبين أبدا .. مره اتجوزت بنت ناس طيبين .. كانت زى

لوح التلج .. صدت نفسي عن الدنيا .. لا يا عم .. حد الله بينى وبين
الناس الطيبين .

— طيب بلاش الناس الطيبين .. أنا عندي جماعه يعجبوك قوى .
— فين ؟

— فى درب كبييه .

— عارفهم .. مش أدكده .

— طيب فيه جماعه على كيفك فى عطفة سطيح .

— برضك عارفهم .

— طيب الجماعه اللي فى حارة المهلبيه ؟

— مش فى بيت شباره ؟ عارفها .

— طيب وإيه اللي مخليك تاعد هنا ؟ .. ماتقوم تشتغل معايا ...

وضحك « شحاتة » وقال :

— بقى اسمع يا سى شرف .. خلينا نتكلم دغرى من غير لف ..

أنا بالعربى .. عايز اللي فانت دلوقت من هنا .

وهز شرف رأسه هزات بطيئة وقال فى تمعن :

— قصدك .. عزيزه نوبل ؟ .

— أيوه .. هى مافيش غيرها .

— دى غاليه عليك .

— يعنى بكلم ؟

— خمسين قرش .

— خمسين قرش ؟ ! فى الليله ؟

— لا مؤيد .. مش قولتلك شيل على قدك .

— خمسين قرش حته واحده !! يعنى ليله .. بخمس أموات .

— خمس إيه ؟

— ده حساب ما تعرفوش .. حساب بيتى وبين نفسي (وخفض

صوته قليلا كأنها يحدث نفسه) .. خمسين قرش يعوز لهم خمس

جنازات لا وشك ولا ضهرک . یعنی الواحد عشان يتنعش ليله ..
 لازم ينكد على خمس عيلات .. الحكايه عايزه شوية همه من عزرائيل
 .. لازم يشد حيله شويه معانا .. ويقصف لنا خمس ست سبع اعمار ..
 عشان خاطر « ست عزيزة » .. على العموم هي تستاهل .. انا
 نفسي مستعد أموت في دبابيب رجلها (ثم رفع صوته موجه الكلام إلى
 شرف) خمسين قرش ، خمسين قرش .

— ما فيش ناقص ملیم .

— ما تهزها شويه .. اعمل لنا اكرام شويه .

— الأسعار محدده .

— طيب خلاص انتهينا .. معادنا امتی ؟

— الليله الجايه .

— حانتقابل فين ؟

— هنا في المغربيه .. حاستفك لغاية ما تيجي ويعدين آخذك

ونروح على البيت .

— أوعى تتأخر .

— أتأخر ازاي ؟ من خامسه حاكون مستنیک ، استيننا ؟

— استيننا .

— ايدك ع العربون .

— عربون إيه ؟ بكرة ؟ بكرة يحلها الحلال واديلك المبلغ كله .

— إيدك ع العربون .

ومد « شحاتة » يده فأخرج كيس نقوده ثم أخرج منه قطعة بعشرة

قروش وقال :

— خد أدى بريزه .

— مش كفايه .

— ما معيش غيرها اللي حيلتي .. خدھا واحمد ربنا .

وأخذ شرف القطعة الفضية ووضعها فى جيبه وفى تلك اللحظة
أقبل « شوشة » ، فنهض الرجل مودعا وأنصرف .
وجلس الرجلان يتحدثان برهة ، ثم ما لبثا حتى نهضا عائدين إلى
البيت .

وصلا إلى البيت وتناولوا العشاء ، وجلس « شحاتة » يتسامر برهة
مع « سيد » ، ثم قام كل منهم إلى مضجعه .

وعندما جلس « شوشة » على فراشه يرنو ببصره من خلال
النافذة إلى النجوم المتلألئة فى رقعة السماء السوداء سمع طرقا خفيفا
على الباب ، وأبصر « شحاتة » يدلف من الباب ساريا كالشبح ولح فى
يده نايه الذى أهدها لسيد .

وجلس « شحاتة » على طرف الفراش بجوار « شوشة » وبعد
لحظة صمت قال فى صوت خافت :

— عايز أقول لك كلمتين يا معلم .. تسمح بيهم ؟

— اتفضل يا شحاته أفندى .

— أنا خايف أكون زعلتك النهارده ، وخايف أكون نزلت من عينك ،

أنا كنت باعمل اللى أنا عايزه ماكنش بيهمنى .. كنت بغلط وماحسش انى
غلطان لآتى ما كنتش بشوف الصبح .. ما كانتش عندى مستوى مقارنه ..
كنت فاكرا انى بعمل الشىء الطبيعى ، لكن لما شفتك حسيت ان فيه
حاجه اسمها الصبح .. وحسيت ان اللى بعمله مش صبح . لكن اعمل
إيه .. بعد ستين سنه عمر ، مقدرش أغير نفسى فى يوم وليله ..
ومافتكرش ان أنا حاعرف أغير نفسى .. وحتى متهيألى ان لازم يبقى
فيه فى الدنيا ناس زى .. عشان اللى زيك بيان .. مش المثل قال
« وبضدها تتميز الأشياء » لازم يكون فيه خطايا عشان يكون فيه غفران ،
ولازم يكون فيه غلط عشان يكون فيه صبح ، ولازم يكون فيه وحش
عشان يكون فيه حلو .. وإلا لو كانت كل حاجه كويسه وحلوه وصبغ ،
كانت الدنيا تبقى مايهه ، مالهائش طعم ولا كان حد عرف الكواسه

والحلاوه والصح ، أعذرني يا معلم « شوشة » واغفر لى ذنوبى ،
لأن لولا سواد ذنوبى ماكانتش بان بياض طهرک .

ومد شوشة يده وربت على كتف شحاتة قائلا فى رفق :

— انت راجل أمير .. كل واحد له ذنوبه ، وهوا مين اللى مالوش
ذنوب .. الكمال لله وحده .. المهم انك متذيش حد قد ما تقدر ..
ربنا يهدينا كلنا ويفوت عمرنا القصير على خير .

— كتر خبرك يا معلم .. ربنا يريح قلبك زى ما ريحت قلبى .. تحب
أصفر لك ع الناي شويه ؟
— أيوه ، سمعنا .

ووضع « شحاتة » طرف الناي بين شفتيه ، وبدأ الصفير ، وعلا
اللحن خفيضا كالهمس ، ثم بدأ يعلو طويلا حزينا يسرى فى سكون
الليل كأنه البكاء والأنين ، واستمر الرجل يعزف حتى أحس بيد « شوشة »
توضع على كتفه ، وسمع صوته المختلق المتحرج يهمس به :
— كفايه .. كفايه كده يا عم شحاته .

ورفع بصره إليه فلحح الدمعتين تتلألآن فى مقلتيه ، ثم تجريان
على خديه .

فى هذه المرة لم يقو الرجل على إعادتهما إلى منابعهما ، لقد كان
اللحن أقوى من إرادته .

وأشار « شوشة » إلى صدره ، واضعا يده على موضع القلب
وعاد يهمس :

— المصيبة هنا ، المصيبة فى الاحساس اللى ما يخدمشى أبدا ..
تصبح على خير يا شحاته أفندى .

— وانت من أهله يا معلم شوشه .

وعاد « شحاتة » إلى مضجعه فوق الصحاره وساد السكون الدار ،
وأغرق كل فى نيمض أحلامه .

استبقت « شحاتة » كعادته ، وكانت الشمس قد نفذت من النوافذ

نافثرشت أرض الدار ، وكان « شوشة » وابنه قد ذهب كل إلى شأنه ، و « أم آمنة » جلست فى الفناء متشاغلة بعجن بعض النخالة واعدادها للأوزتين .

وارتدى الرجل جاكته وحذاءه وطربوشه ، وتناول صرته التى حوت حلة الشغل ، وودع « أم آمنة » وغادر الدار . وعندما تجاوز درب القط ودلف يساره فى درب عجور . . لم يكد يسير بضغ خطوات حتى تمهل أمام جزاراة « الخشت » وترددت خطواته برهة ، وهو يتأمل الدواب المعلقة من سيقانها ، والتى تقطر الدماء من أعناقها ، وتتناثر الأختام الحمراء على لحمها الأبيض ، ثم بدا كمن حزم أمره ، ونوى شيئا خطيرا ، وتقدم إلى الدكان بخطوات ثابتة ، غير هيابة . . وكان « الخشت » قد وقف بجلبابه الأبيض الملوث بالدماء . . وجسده السمين المربرب ، وطاقيته الشبيكة . . وقد أخذ يهوى بالشاطور على « الأرمة » مهشما إحدى العظام .

وكان التعارف قد حدث بين الرجلين فى المقهى فتقدم « شحاتة » إلى الرجل وصاح به محييا :

— صباح الخير يا معلم خشت .

— صباح النور . . أهلا وسهلا .

— وحياة أبوك أنا عايز رطل من بيت الكلاوى بتلو .

— عنيه الاتنين .

ووضع الرجل الشاطور جانبا . . ثم تناول من أحد الخطاطيف قطعة كبيرة من اللحم قائلا :

— أنا حاديلك حته من الفخده على كفيك . . بيت الكلاوى ما تنفعش . . كلها عضم .

— زى بعضه يا معلم . . كله كويس .

وانتهى « الخشت » من الميزان بعد أن وضع فى كفته قطعة كبيرة من الورق الأصفر وأغرقها بألياه لكى يثقل وزنها ، وعندما انتهى من لف

اللم اقتررب منه « شحاتة » ، وقال بصوت خفيض ، وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى :

— أنا عايزك توضب لى بقى شوية مخاصى على شوية مواسير على حنة كلوه .. توضيبه من إياها دى ؟

وضحك « المعلم خشت » وصفق بيديه طريا ، وقال فى حماس كأنما هو الذى سيفيد من التوضيبية :

— سيبنى انت بقى خلينى أعمل لك التوضيبه على كيفى .. أنا حاخليك تدعى لى .. حارجك عشرين سنه لورا ، وحاقول لك كمان على وصفه ماتقولهاش لعدوك .. حاجه مجريه .. ماتخييش أبدا .

وأخذ الرجل يقطع من هنا خصية ، ومن هنا كلوه وجمع بعض العظام المليئة بالأنخاع وقطعة من ذيل الخروف ثم لف كل ذلك فى ورقة وأعطاه « لشحاتة » قائلا :

— شوف بقى يا عم ، تاخذ الحاجات دى وتحطهم فى حله وتنك تغليهم لما يسلى دهنهم من غير ما تزود الميه . لغاية الشوربه ما تبقى مش شوربه .. تبقى عصيده .. حاجه كده مش سايطه ، وتكون محضر شوية تحابيش تاخذهم معاها يخلوك بمب .

— كتر خيرك يا معلم .. ما اعدمكش أبدا .

وأمسك « شحاتة » باللفانيتين وبدا عليه التردد ، ثم قال فى شيء من الخجل :

— الفلوس حاديهلك وأنا راجع من الشغل .. ممكن ؟

— ممكن أوى .. يا سلام يا شحاته أفندى .. بلاش فلوس خالص .. دا حنا جيران .

— الله يخليك .. السلام عليكم .

— عليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

وعاد « شحاتة » إلى الدار ثانية ، وفوجئت « أم آمنة » بسماع وقع اقدامه فتساءلت فى قلق :

— إيه اللى رجعتك يا شحنته افندى .. كفى الله الشر .. نسبت
حاجه ؟

— لا مافيش حاجه .. أنا بس جايب رطل لحمه تطبخيه لنا على
الفدا .

— ولزومه إيه التعب ده .. شوشه ماهو مدينى الفلوس ، وبيجيب
معاها الحاجه ، وهو راجع .

— معلش ده حاجه بسيطه يمكن تحبى تعملى شوية خضار
والا حاجه .

— كتر خيرك .. دايبا تاعب نفسك كده .

— مافيش تعب ولا حاجه .. خدى .

ثم ناولها اللفافة الاولى واعقبها باللفافة الثانية قائلا :

— دى اللحمه ، ودى شوية مواسير على شوية ثنائيش عايزك
تسليقيهم لى لأن عندى روماتزم فى ضهرى وواحد وصف لى الوصفه
دى عشان تصلب ضهرى .. بس عايزها تطفى قوى وما تزوديهاش فيه
.. يعنى يدوبك تطلعى منهم فتجان شوربه .

ولم تعلق « أم آمنة » على الوصفه التى اكدها « شحاتة » بل ركزت
كل اهتمامها فى مسألة ظهره الموجوع فصاحت فى فزع :

— ضهرك ببوجعك ؟ سلامتك .. الف بعد الشر عنك .. لازم
استهويت .. تلاتيك نمت والشباك مفتوح . الليله دى لازم تقفله
وتحبش على القزاز المكسور بحتة ورق ، واحسن طريقته تضيق البرد ،
ان أعمل لك كام قدره تشد الهواء اللى فيك .. أنا حابست « لزيكه » ..

ووجد « شحاتة » أن « أم آمنة » قد ابتعدت جدا عن الموضوع
الاصلى .. فلم يجد بدا من مقاطعتها لاعادتها إليه فقال :

— لا .. لا .. مافيش لزوم .. الحكاياه بسيطه قوى . بس اسلنى
لى شوية العضم دول هم يطيبونى .. أنا واخذ على الحكاياه دى من
زمان .

ولكن « أم آمنة » قالت محتجة :

— عضم إيه يا شحاته أفندى دا اللى يخففك ؟

— بس اعملهم انت ومالكيش دعوه .

— حاضر يا خويه .. ان شاء الله تيجى تلاقيهم جاهزين على الفدا .

— كتر خيرك .

وعندما اطمأن « شحاته أفندى » على مصير المخاصى والكلوى ،

واتسع أم آمنة بعدم ضرورة القدرة .. تناول صرته وغادر الدار مستحثا
الخطا إلى « قهوة لفنديه » .

ووصل إلى المقهى فوجد النشاط على أشده و « الأفندية » راثحين

فادين بين حاثوت الحاج سرور والمقهى فأدرك أن هناك « جنازة حارة » ،
وأنه قد تأخر عن الوصول فقد صاح به المعلم سرور عندما وقع عليه
بصره :

— ما تمد شويه يا سى شحاته ، والا خلاص بقيت مستغنى ؟

— مستغنى ازاي بقى .. دا أنا مش فى عرض جنازه واحده ..

أنا قتيل خمس جنازات .. معذور فيهم قوى .. الحقيقة تستاهل .

— إيه هى اللى تستاهل دى ؟

— مره زى اللوز .

— طب مد .. أدى اللى انتت فالح فيه .. تنك غرقان فى النسوان

لفابة ما يجيبوا أجلك .. ان شاء الله حاثوت قتيل مره ، وبكره
أنكرك .

— وأنا فى ديك الساعة لما أموت قتيل الهوى ؟ ياريت .

وأسرع « شحاته » فنزع جلبابه ثم ارتدى حلته ولف القوطة

الحمراء حول وسطه وتناول الجمرة التى تعود أن يحملها وصاح ببقية
الزملاء :

— ايه يا جماعة .. ملتياالله بينا .. هى الجنازه نين ؟

ورد الحاج سرور :

— حاتقوم من مصر عتيقه للمجاورين .

— يا نهار أبوه اسود .. يعنى مالفائش قرافه اقرب من كده ؟
هى ترب الامام مالها ؟ وحشه ؟

— اللى حصل يا سى شحاته .. مدافنه ومدافن اهله فى المجاورين .

— ولما هوا عارف انه حايدفن فى المجاورين ببسكن فى مصر عتيقه
ليه ؟ . ما يسكنش فى الدراسة والا فى الحسين والا حتى فى الكحكيين
والا درب الآخر والا الجماليه .. ضاقت به الدنيا عشان يعيش فى
مصر عتيقه ويموت فى المجاورين ؟

وكان ترام (نمره ٥) قد اقبل فصاح الحاج سرور فى عجلة :

— طب يالله يالله .. يالله يا جماعه عشان نلحق .. الساعه تسعه
دلوقت ولازم نكون هناك عشرة .

وهرول الافنديه ببجامرهم ومناقدهم والموسيقيون بمزاميرهم وطبولهم
فاحتلوا عربة الترام وقد تعالت صيحاتهم ونكاتهم كانهم العوالم ذاهبات
إلى زفة عروس .

وجلس شحاتة على مقعد الترام ، وكانت جلسته بجوار « الشيخ
سيد الخولى » ، ولا شك انها كانت جلسة مقصودة ، فقد أخذ شحاتة
يكثر من التحيات العاطرة على « الشيخ سيد » ، والشيخ يتلقاها ببرود ،
فلا يسمع لها فى نفسه رنيناً كأنها النقود الزائفة ، والواقع ان « الشيخ
سيد » كان لا يسمع فى نفسه رنيناً لآى شىء ، فقد كان من نوع ناعس
الطرف مسبل العينين ، كأنه رائح أبداً فى سبات عميق ، وكانت تله
طبقة سميكة من اللاشعورية قمينة بأن تصد عن باطنه كل أنواع المؤثرات
الخارجية فلا تثير فى نفسه أية مشاعر لا بالفرح ولا بالحزن ولا بالغضب
.. كان الرجل يجلس ويتحرك ويتكلم كأنه فى غيبوبة .

وعندما انتهى شحاتة من سيل التحيات التى أغدقها على « الشيخ
سيد » التائه .. مال عليه بجسده وهمس فى أذنه :

— ما معكش حته يا شيخ سيد ؟

ويبدو كأن هذا هو السؤال الوحيد الذى استطاع النفاذ إلى وعى « الشيخ سيد » واخترق نطاق الجمود الذى حصن به نفسه فقد ارتجتفت بفنا الرجل ، ثم قال دون أن يوجه بصره إلى محدثه فكأنها يجيب نفسه : — هو انت ما تفرغلكتش طلبات ؟ .. انت مش لسه واخذ حته اول ابراح ؟

— أصلى معذور فيها أوى النهارده .

وتتمم « الشيخ سيد » ببعض كلمات الاستياء ، ثم مد يده ندفعها فى صدره من خلال البدلة والقميص وأخرج من جيب الصديري المخطط لنافاة قذرة أخذ فى فتحها ببطء وتؤدة وأخرج منها قطعة صلبة فى حجم البندقة وفى لون الشيكولاتة الباهتة ثم قسمها بأصابعه مستعبلا ظفر ابهامه .. وكان القسمان متساويين تقريبا فامسك بأحدهما وحاول تجزئته فعجز عن ذلك بأصابعه فرفع القطعة إلى أسنانه .

وصاح شحاعة فى ضيق وغیظ مكتوم :

— متجيبها يا أخى ، حاتكسر فيها إيه ؟ هى مستحمله كسر .

— يا باى على عينك الفارغه .. خد .. حار ونار فى جبتك .

ثم دفع إليه بالقطعة ، فتناولها شحاعة ووضعها فى جيب صديريه ، وعندما اطمأن إلى استقرار القطعة فى جيبه تهللت أساريره ، ثم عاود سيل التحيات يغرق به الشيخ سيد ، فلما انتهت الدفعة الثانية من التحيات عاد يميل بجسده مرة أخرى وهمس بنفس الطريقة الأولى :

— الاقيش معاك ملوه ؟

وكان يثقل الشيخ سيد فى هذه المرة على أشده ، فقد رفع حاجبيه فى دهش وفتح عينيه بأقصى ما تستطيع عضلات جفنيه ثم زوى ما بين حاجبيه وهتف متسائلا :

— انت إيه حكايك ؟ .. انت رايح جنازه .. والا رايح فرح ؟ ..

عندك عزومه والا إيه ؟ .

— أناح .. عندى سهره بيتانى .

— مع مين ؟ .

— مع مين ؟ .. مع قالب زيده .. مع طبق قشطه .. مع صباع

موز .. مع صنية كفافه بالفزدي .. مع ...

— طب بس بس .. انسد .. ما انت اصلك دنى ورهرام ..

خد .. ادى اللصه اهى .

ومد يده مرة أخرى فى جيب صديريه فأخرج علبة صفيح صغيرة مستديرة أشبه بعلبة النشوق ثم أخرج علبة كبريت جذب منها عودا وفتح العلبة الصفيح فإذا بها مادة سوداء أشبه بهرمم الاكتيول وهم بوضع عود الكبريت داخلها ليرفع بطرنه بعض ما بها ولكن شحاتة أوقفه بقوله :

— ايه اللى حاتمليه ده ؟

ونظر إليه الشيخ سيد — او مخزن المخدرات المتحرك — بطرف

عينيه شذرا وقال فى برود :

— مش عايز ملوه ؟ .

— هى كل اللى فى العلبة ما تجيش ملوه .. هات يا شيخ بلا تربطه

.. انت مالك اليومين دول حاتموت ع الدنيا .. هات يا شيخ العلبة

هات .. بلاش شغل لحوسه .

وكان الشيخ سيد أكسل من أن يدخل معه فى مناقشة ، وكان

يفضل خسارة العلبة على مشقة الرفض فدفع إليه بالعلبة فى ملل وعاد إلى غيبوبته .

ووضع شحاتة العلبة بجوار الفص فى جيبه ، ويدت عليه علائم

الارتياح وهمس لنفسه :

— ما فاضلش غير الزيب ؟ .

وكان الترام قد وصل إلى « عمر شاه » وبدأ فى عبور ميدان السيدة

متجها إلى المصح ، وعندما وصل إلى أبو الريش صاح الحاج سرور :

— يا الله يا جماعه .. احنا حاتنزل هنا وبعدين نخرم من عند سيدى
الطيبى نبقى اُدام بيت المرحوم .
وأجاب « شحاتة » معلقا :
— مرحوم ؟ . هوا دا حاشوف الرحمة بعينه بعد ما يخبطننا المشوار
بن مصر عتيقه للمجاورين .
وارتجف الشيخ سيد ثم قال معلقا وهو ما زال فى غيبوبته :
— وهو حاخس عليه إيه ؟ مش نايم مستريح فى الخشب لو كان
الواحد منهم يروح التربه ماشى على رجليه .. كان سكن جنب القرافة ..
لكن الحق مش عليهم .. الحق على اللى يشيلهم .
وهبط الجميع من الترام ، وساروا فى زرافاتهم المتهاكة المتحاملة
مخرقة شارع الطيبى متجهة إلى فم الخليج .
وطال بهم السير ولما بيد للجنابة بوادر بشائر ، وصاح شحاتة
فى ضيق :
— آمال بسلامته فمين ؟ . مش باين له اثر .
وأجاب الحاج سرور :
— اهو قرب .
— ماباينش . اللى لاحد منا سمع صوات ، هو ميت وحدانى ؟
— وحدانى ازاي ! . دا راجل صاحب عيله وله مركز ، ده متريش
أوى .
— يعنى حايدفعوا فيه كويس ؟
— طبعا .
— اهو دا المهم ، دى جنازته باربع جنازات ، على العموم الله
يرحمه ما دام حاينفعنا .
ووصل الموكب إلى فم الخليج ، وتوقف الحاج سرور برهة يتلفت
يمنة ويسرة وصاح أحدهم :
— هو اسم الشارع إيه ؟ .

— أظن شارع اللموناته .

— طيب ما نسل .

وتقدم الحاج سرور من امرأة تباع الفول النابت جالسة أسفل شجرة
وسالها :

— تعرفيش يا خاله شارع اللموناته فين ؟

— شارع إيه ؟

— اللموناته .

— مافيش هنا شارع بالاسم ده .

وهم سرور بالانصراف وتحرك الجميع فى اعقابهم ، ولكن المرأة
استرجعته متسائلة :

— مافيش هنا غير شارع السكر والليمون .

وهتف سرور صائحاً فى فرحة :

— أهو هو .. هو السكر والليمون .

— وهو شارع السكر والليمون بيتقى شارع اللموناته ؟

— أعال بيتقى إيه .. شارع الزيت الخروج .. هو السكر والليمون

حاييتقى إيه غير الليموناته ؟

وحدث الموكب الخطأ إلى شارع السكر والليمون ولم يكذب يقترب

من الشارع حتى وصلت إلى مسامعهم بواحد الصراخ والمويل .

وصاح « سرور » فى فرح :

— أهو هوا ده مافيش غيره .. يا الله يا جماعة نظموا نفسكم ، اسمع

باريس « عبيد » .. خذ المزيكه وخليك قدام باب البيت عشان تبقي جنب

الخشب .. وانتم اترصوا على الرصيف .. يا الله يا جماعة اعملو لكم

همه ووزعوا نفسكم .. مش عايزين ضحك بقى ولا كلام .. خلاص احنا

دخلنا ع الشغل .

وبدا « الشغل » واضحاً بسراده الذى اتودع فيه المشيعون

والصراخ المدوى فى أرجاء الشارع ، والنعش الفارغ المجهز لحمل

الميت ، والخروف المنتظر أمام باب البيت ، والحنوتى والمفسل
والفراشين ، والصخب والضجيج .

وسرعان ما انتظم موكب الأفندية والموسيقين فى مواضعهم ، ولم
يكن هناك شك — من طريقة انتظامهم — فى أنهم محنكون مدربون ..
نقد اتخذ كل منهم موضعه بلا ضجة ولا شوشرة ، وانقلب حالهم من
ججون وهذر إلى صمت واطراق ، وغادرت ملامح الفرحة سيماهم ،
وعلتها دلائل حزن عميق .. كان الميت قد أصابهم بفجعة ما بعدها
فجعة .

وهز الحاج « سرور » رأسه وصاح فى حزن واسى :
— دنيا !!

وكان هذا بداية حوار محفوظ يبدؤه « الحاج سرور » بهذه الكلمة
وينتم الحوار لطم الأفندية ، وكان المفروض أن يجيب « شحاتة » بقوله :
« إنا لله وإنا إليه راجعون » .. ولكن « شحاتة » كان غائب الذهن تماما ،
نقد شرد ذهنه فى أمور هى أبعد ما تكون عن الموقف الذى هو فيه :

كان السبب المباشر فى أبعاد ذهنه هو الخروف نقد نظر إليه
نظرة فاحصة ، وأخذ يسائل نفسه : « أترى هذا الخروف مخصيا ؟
لا يظن فهو يبدو هزيلا أعجف ! » .

من باتى له بالمخاض ليرسلها إلى « أم آمنة » لنضيفها إلى بقية
البهريز ؟ . ترى هل ستستطيع المرأة الضريرة أن تقوم بما طلبه منها ؟
أكثر ما يخشاه أن يفور القدر ويراق البهريز على الأرض .. حقا انها
تصبح كارثة .. كان يجب أن يكون أكثر حيطة وحذرا فبقوم هو نفسه
بطهو المخاض والكلاوى .. ربنا يستر .

وكان « الحاج سرور » قد استغيب رد « شحاتة » فأخذ يحدق فيه
شزرا ، ولكن « شحاتة » كان فى عالم آخر .. عالم المخاض فصاح
مجيبا على نفسه :

— إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم تبعته بقية الأصوات تنساب من هنا وهناك قائلا :

— يا خفى الألفاظ ، اللف بنا مما نخاف .

— لك الأمر .. يا ولى الأمر .

— هيه .. مين كان يصدق !

— رحمتك يارب .

— حد واخذ منها حاجة !

ومكذا ظل الأتندية يتبادلون الحوار بلهجة ملؤها الحسرة ، و « شحاتة أفندى » ما زال منطلقا فى شروده ، وكان قد وصل فى تلك اللحظة إلى العطار الذى سيبتاع منه الوصفة . إنه سيحتاج إلى بعض من جوزة الطيب وعود قرح يجب أن يحصل عليهما قبل العودة إلى الدار ، أما الزبيب فيستطيع أن يشككه من الخواجه « مانولى » الخامورجى ، يجب أن يعمل حساب النقد جيدا ، انه يريد أربعين قرشا بقية حساب شرف الدين النصاب بن النصاب .. ويريد خمسة قروش للبطارة وبقية التحابيش .. أما اللحمه فيؤجل دفع ثمنها بضعة أيام ، ان الخشت رجل طيب يستطيع الانتظار . ويجب أن يكون فى جيبه على الأقل خمسة قروش فيكون كل ما يحتاجه خمسين قرشا ليس فى جيبه منها مليم واحد ، ولكنه سيحصل على مبلغ طيب من هذه الجنازة ، فالميت يبدو على سعة .

وهنا فتط تذكر الميت ، وساعد على تذكره انطلاق الأصوات على أقصاها وظهور حركة استعداد ، ثم بروز خشبة الميت من الباب ، وطرح الخروف أرضا ، وهبوط القصاب على جسده يحز عنقه ، ويريق دماءه أمام النعش .

واعتدل الأتندية فى أماكنهم وبينهم « شحاتة » ، ثم بدأت الموسيقى تصدح بأنغامها النائمة الحزينة وسارت الجنازة ، أو كما يسميها

« شحاتة » — الزفة — وبعد بضع خطوات عاد مرة أخرى إلى انكاره الأصلية نائيا بذهنه تماما عن الجنازة وما فيها .

عزيزة نوفل !! من يصدق انها ستكون معه بعد بضع ساعات . . أجل ، انه سيذهب للقاء « شرف الدين » الساعة الخامسة ، ويذهب معه نى التو ، لن ينتظر معه لحظة واحدة ، فهو فى غاية الشوق . . ولكن ماذا إذا لم يحضر الرجل ؟ هنا تكون الكارثة بعد كل هذا الصرف والاستعداد ، وبعد كل هذه المخاضى والكلاوى والزيب والمنزول والحشيش وجوزة الطيب وعود القرح . . بعد كل هذا لا يحضر . . حقا إنها تكون مصيبة كبرى . . كان يجب عليه أن يأخذ منه عنوان البيت حتى يذهب هو وحده ان لم يحضر الرجل ، ما أغياه وأقصر نظره ! هب ان الرجل نصاب محتال وانه أخذ نص الريال لنفسه . . ألم يكن يجب عليه من باب الاحتياط أن يأخذ العنوان ، ولكن ما قيمة العنوان ؟ ألم يكن يستطيع الرجل إذا كان فى نيته الاحتيال أن يعطيه عنواننا خطأ ، لا ، لا انه يبدو عليه انه رجل جد ، هذه الشوارب البرومة « والمظهر المثلئ بالشهامة لا يعقل أن يكون محتالاً »

وتذكر « شحاتة » كيف بدا له « شرف » أول مرة . . وكيف أخافه بنظره ، فارتسمت على وجهه ضحكة سرعان ما أزالها عندما تذكر انه يسير فى جنازة .

ومرة أخرى عاد إلى الجنازة ليجد نفسه يسير مع الموكب فى نهاية شارع السد بالقرب من جامع السيدة ويجد الموكب يتوقف للصلاة على الفقيد فى الجامع .

ووقف شحاتة بالقرب من الجامع ينتظر خروج النعش .

ما زال امامه مرحلة كبيرة من السير . . انها جنازة مضاعفة ، انها ستتعبه كثيرا ، بينما هو فى أشد الحاجة إلى الراحة حتى يستعد لسهرة الليلة . كان يجب أن يرفض الجنازة ولكن من أين يحصل

على النقود ؟ لعنة الله على هذه الحياة لا شيء يمكن الحصول عليه فيها بسهولة .. كل شيء له ثمن من العرق والجهد .

وخرج النعش من الجامع ، ورمقه شحاتة بنظرة غيظ وهتف به :
 طبعاً ، تستطيع أن تذهب على هذا الحال إلى جرجا ، ماذا يهمك ما دمت محمولا على الأعناق ؟ ماذا عساك ستدفع لنا بعد هذا المشوار ؟ لو دفعت خمسين قرشا فسأدعو لك بالرحمة والغفران .. خمسون قرشا هي أقصى ما أحتاج إليه ، فهي تغطي جميع المصاريف ، ويبقى خمسة للبقيشة ، لو رأيت « عزيزة نونل » لما استكثرت عليها المبلغ ولكنك مسكين لن تستطيع أن تراها .. هذا العن ما في الموت ، انه سيحرمنا من التمتع بـ « عزيزة نونل » وأمثالها ، لو رأيت صدرها وهو يترجرج وراء الملاءة ، ولو رأيت ردفها وهما تتبادلان الصعود والنزول الواحدة بعد الأخرى كأنهما أرجوحة الأوزة لما استكثرت الخمسين قرشا .

وكان الموكب قد وصل إلى القلعة .. والعرق قد أخذ يتصبب من المشيعين والأفندية والموسيقيين .. ومن كل من ضمتهم الجنازة ، كان الجميع قد أعياهم الجهد عدا واحدا هو الميت المستقر في مضجعه مستريحا أربعة وعشرين قيراطا .

وأخرج شحاتة منديلا محللوا أخذ يجفف به عرقه ، وهو يناجي الميت بقوله — مبسوط ؟ — ماذا كان عليك لو دفنت في الإمام ! مالها قرائمة الإمام ؟ ! أكان لابد وأن تدفن بجوار أهلك في المجاورين .. ماذا تظنك ملاق هناك ؟ أتظنك ستراهم وتشبع فيهم عناقاً وتقبيلاً ؟ !

وعبر النعش القلعة واتجه إلى المجاورين ، وأخذ الطريق يضيق وقربت المسافة بين صفى الأفندية حتى استطاعوا الحديث وأخذوا يتبادلون الشكوى من طول المسافة والسباب في الميت .

ولكن واحدا منهم لم ينبس ببنت شفة ، فقد كان يسير مسبل العينين .. ناعس الطرف .. مغرقا في غيبوبته .. وهو « الشيخ سيد

الذولى » ، أو كما يسميه شحاتة : مخزن المخدرات المتنقل ، أو كما يسميه البعض الآخر : « الشيخ سيد كيف » .

كان الرجل يسير صامتا مطرقا غير شاعر بما حوله حتى أحس بالتعب فجأة فوقف فى مكانه ورفع حاجبيه فى دهش وصاح بمن حوله :

— هو إيه أصله ده ، احنا ما وصلناش لسه ؟

وصاح به شحاتة :

— لسه يا شيخ سيد لسه ، مشى ما تعطلش الجنازه .

— أمشى ازاي . احنا حانوصله لغاية التربه .. والا لغاية

السمما ؟

وجذبه أحدهم من يده وهو يصيح به :

— معلش يا شيخ سيد ، المسافه قريت .

— والله ما مشى ولا خطوه .. هى مقاوله ؟

— مشى ما يصحش ! عيب .

— مايفش حاجه اسمها عيب ، إذا ماكانش عاجبه ينزل بمشى واتا

اتعد مطرحه .. هو إيه ؟ استكراد ؟

ولم يجد الأفندية بدا من أن يدفعوه أمامهم .. فوجد نفسه مضطرا

إلى السير مرغما وهو يجز جزا ، فعلا صوته بالشكايه :

— يا جماعه حرام عليكم .. أنا رجليه بقبقت ، إيه أصله ده ..

هى عافيه ؟

ولكن الجميع استمروا فى جذبه بالقوة ، فاضطر إلى الولولة ،

وعلا صوته باكيا :

— آى .. يانا آه يانا .. آه .. آه .

وسالت دموعه منهمة من عينيه .

وفوجئ المشيعون وراء النعش بصوت البكاء يعلو من أمام النعش ،

واضطرب الحاج سرور لأول وهلة ، ولكنه ما لبث حتى هز رأسه فى

اسى وقال :

— الله يكون فى عونك يا شيخ سيد .. أصله كان يعرف المرحوم ،
كان صاحبه الروح بالروح .

وأخذ الأفندية يحاولون اسكات الشيخ سيد بقولهم :

— شيخ سيد .. كفايه بقى يا شيخ سيد .. عيب ما يصحش .
انت راجل .

ولكن « الشيخ سيد » صاح بأعلى صوت :

— أنا مش راجل ، بس سيئونى .. على الطلاق بالتلاته ما أنا
ماشى ، سيب ايدى منه له .

— خلاص ، خلاص ، ادحنا وصلنا ، وهدى نفسك بقى بلاش عياط
وفضايح قدام الناس .

وكانت الجنازة فعلا قد وصلت إلى المدفن .. وتمهل الأفندية حتى
وقفوا أمام باب خشبى قد فتح على مصراعيه ، وأخذ أحد السقاين
يرش أمامه بقرية على ظهره ، وبدا من خلال الباب شاهد قبر قد فتحت
أمامه فتحة كبيرة مستطيلة تؤدي إلى السلم الموصل إلى المقبرة فى
باطن الأرض وقد رصت بجوارها الحجارة الطويلة التى تغطى الفتحة .

ودلف القوم بالنعش إلى الداخل ، وقد التفت القوم حوله ، وعلا
نحيبهم واشتد تأثرهم .. وكان « شحاتة » ينظر إلى الجسد المسجى ،
وهو يقول فى نفسه :

— دوختنا الله يدوذك .

وكان الشيخ « سيد » يكفكف دمعته ، وهو يقول :

— لو كنت طولت ثوبه .. كنت حاخلى نهار أبوك زى بعضه ،
ولكن ربنا ستر .

وبينما القوم منهمكون فى انزال الميت إلى داخل القبر ، وقد بلغ
تأثرهم أشده ، تسرب من ورائهم بضعة أنفار كأنهم الفيران المذعورة
واخذوا يهرولون ، حتى اتخذوا أماكنهم أمام القبر ، ثم اقتربوا الأرض
متربعين ، وانطلقت السننهم بقراءة لا تكاد تفهم .

ولم يكذب ينتظم عقد المقرئين ، حتى انساب رجل آخر يدفع القوم
بمنكبه ومرفقيه ، واصيب « شحاتة » منه بضربة فصاح به فى حق :

— ما تحاسب . الله يخرب بيتك . مستعجل على إيه ؟ ! هيه فته ؟

وكان منظر المقرئين الخمسة وطريقتهم فى القراءة عجبا ، كان كل
منهم مخلوقا فريدا فى ذاته .. كان أولهم يلبس عمامة بلا شال ، وجبة
مترية مرقعة كالحة ، وكان به حول شديد يجعل إحدى عينيه فى أقصى
المقبرة ، والأخرى فى الجانب الآخر .. أما الثانى فقد اكل الجدرى
وجبه حتى بدا منقرا كالغريال ، وكان يرتدى طريوشا بلا زر ، وجلبابا
من الدمور ، وكان حافى القدمين .. أما الثالث فكان أعمى يقوده صبي ،
وقد دخل يهرول وإياه وسط المشيعين حتى أجلسه أمام القبر .. أما
الرابع فهو عجوز ملء وجهه الأسمر بالأخاديد ، وقد أمسك فى يده
عكازا ضخما ، ووضع على رأسه شيئا أشبه بالطرطور .. أما الخامس
فكان عبدا أسود .. يشارك الآخرين فى التذارة والبهيلة .

أما طريقتهم فى القراءة فقد كانت سريعة عجلى اذ كانوا يلهثون
وينهجون كأن وراءهم سياطا تتعجلهم ، وكان أحدهم يقول الآية ، ثم
يصمت ليلتقط أنفاسه فبكلها له الآخر ، وهكذا كانوا يقرعون بالتداول
فتلاحق الكلمات على أصواتهم النشاز .

ونظر « شحاتة » إليهم فى غيظ وقال :

— بقى دى قرايه دى .

واجابه « الحاج سرور » :

— يا أخى أهو كله اكل عيش .

وصدق « شحاتة » على قوله بهزة من رأسه .. أجل .. معه
حق ، كله اكل عيش .. لشد ما اختلفت وجهات النظر إلى هذا الميت ،
ولشد ما تناقض اعتبار الناس لموته .. رآه البعض كارثة ، ورآه البعض
اكل عيش .. كل شئ فى هذه الحياة لا قيمة له فى حد ذاته ..

ان قيمته فى وجهة النظر إليه ، هو من إحدى الوجهات نعمة ، ومن الأخرى نقمة .. هو من ناحية مأساة ، ومن الأخرى فكاهاة .

وانتهى انزال الميت ، ورصت الحجارة فوق الفتحة ، وأغلقت المقبرة . ونظر القوم بعضهم إلى بعض نظرة اسى وحسرة كأنما قد ودعوا شيئاً خالداً .

ونظر الأفندية بعضهم إلى بعض وكأنهم يقولون :

— لنا عودة .. اما على الاقدام أو على الاعناق .

عاد الأفندية إلى مقاهم ، وكانت الساعة قد بلغت الثانية ، وجلس « الحاج سرور » يحاسبهم .. وعندما جاء دور « شحاتة » اتخذ مجلسه بجوار « الحاج سرور » ، وقد أخذ يفرك يديه ، ووضع على شفتيه أعرض ابتسامة .

وكان « سرور » يعرف ما وراء هذه الحركات من خسائر مهد يده بسرعة وأخرج ريبالا ووضعته فى يد « شحاتة » .. وقال وهو يودعه :

— يا لله يا عم وربنا عرض اكتافك .

— طب بس صبرك شويه يا حاج .. أنا أصلى عايز ...

— ولا ملیم أكثر من كده .. قوم بقى .. واحمد ربك .. ده بتاع خمس جنازات .

— أيوه أنا عارف ، بس عايز أقول لك ان أنا مزنوق قوى ، وعايز سلفه .

— سلفه ؟ .. انت فلكرنى قاعد على بنك ، مش كفايه الفلوس اللى لهفتها .

— يا حاج احنا مالناش بركه الا انت .. يعنى لما الواحد يتعذر حايروح لين غيرك ؟ وانت ابونا وانت امنا !

ولان قلب « الحاج سرور » فقال متصنعا الجذ والغضب :

- عايز كام ؟ قول !
- عايز ثلاثين قرش .
- عايز إيه ؟
- ثلاثين قرش ..
- ياخى جك ثلاثين عفريت لما يركبوك .
- الله يحفظك .
- ليه ؟ . تعمل بيهم إيه ؟ . تفتح بهم دكان ؟
- لا .. حاقتح بيهم عكا .
- وتسدهم ازاي ؟
- يا أخى ربنا يفرجها بكام جنازه سقع زى بقاعة النهارده ، واحد كده يكون ساكن فى اسكندريه ويندفن فى اسوان .. هوا يعنى بعیده على ربنا والا بعیده على الأموات ؟
- اسمع .. باختصار .. انا معيش فلوس .. خد ده وقوم ماتورنيش وشك .
- ثم دفع فى يده بقطعة من ذات عشرة القروش ، ولكن « شحاتة » ردها متصنعا الغضب قائلا :
- إيه ده ؟ .. خد يا شيخ .. انا باشحت منك ؟
- اسمع آدى كمان نص ريال ، واذا ما كانش عاجبك .. انفلق .
- ورأى « شحاتة » علامات الجذ على وجه « سرور » فأخذ الريال ووضعه فوق الريال الآخر وقال للرجل :
- برضك تشكر .. ربنا يخليك لنا .
- ثم غادره وهو يقول لنفسه :
- لسه نص ريال .. ناخذه من الشيخ سيد .. يمكن ربنا يهديه .
- واتجه شحاتة إلى الشيخ سيد واقترب منه قائلا بمنتهى الرفق :
- ازى رجليك يا شيخ سيد ؟
- زفت .

— الله يجازيه .. زى ما دوخنا معاه .

ورفع « الشيخ سيد » يده إلى السماء مستمطرا الرحمات على الميت قائلا :

— الله يسامحه .

واندفع فى ترديد الدعوات ، ولكن « شحاتة » لم يكن لديه وقت لمسايرته إلى النهاية ، فقاطعه قائلا وهو يميل عليه بطريقته المعروفة عند الاقتراض :

— معاكش نص ريال سلف .

ولكن الشيخ سيد ادعى عدم السماع واستمر فى دعواته فصاح شحاتة به :

— شيخ سيد .. معاك نص ريال سلف .

— ابعد عنى يا جدع انت ، مامعيش حاجه أنا ما بسلفش .

— أنا مزنوق قوى يا شيخ سيد .

— مزنوق فى إيه ؟

— فى واحده .

— فى واحده ؟

— افكرت حاتقولى فى تسديد دين والا فى أجرة بيت ، والا فى كلام فارغ من اللى بتقوله .. خد آدى النص ريال أهوه .. عشان تعرف ان الصدق منجى .

— كتر خيرك يا شيخ سيد . طول عمرك راجل شهم .

— بس اسمع .. الصدق ده .. ما ينجيش الا مره واحده ..

يعنى مره تانيه .. تقول الصدق تقول الكذب ، مش حاديك نكله .. مفهوم ؟

— مفهوم أوى .

وأخذ شحاتة نصف الريال ووضعه مع الأربعين قرشا . وانطلق
من المقهى وهو يشعر بأقصى آيات السعادة .

وفى طريقه إلى البيت مر بحانوت الشيخ عبيد العطار ، ودخل إلى
الحانوت وبعد أن أغرق صاحبه بالتحيات اقترب منه وهمس فى أذنه
نائلا :

— عايز بنص فرنك جوزة الطيب وحتة عود قرح . وشوية تحبيشات
على كيفك . . أنت سيد العارفين عايز توضييه زى اللى بتوضيها
لنفسك .

وضحك الشيخ عبيد وقال :

— هو أحنا بقى ينفع فينا وصفات ؟ . خلاص يا شحاتة افندى
خلصنا .

وأخذ الشيخ عبيد يحضر شيئا من هنا وشيئا من هناك ويدق هذا
ويصحن ذاك ، ثم عمل لفافتين أعطاهما لشحاتة وهو يقول :

— شوف . . دى تغليها وتشرب ميتها ، ودى تعمل منها بلابيع
وتاكلها ، واوعى تقول عليها لعدوك .

وتناول « شحاتة » اللفافتين وهم باخراج النقود ولكن الشيخ عبيد
صاح به :

— خلى يا شحاته افندى . . هى دى تيجى . . دى هديه منى . .
حاجه بسيطه ما تستاهلش . . بس ابقى تعالى قوللى عملت إيه .
— كتر خيرك . . طول عمرك راجل كريم . . السلام عليكم . .
— وعليكم السلام ورحمة الله .

وحمل « شحاتة » اللفافتين واتجه إلى البيت محملا بكل ادوات
القتال التى سيخوض بها معركة الليل .

الفصل التاسع

قتيل الهوى

وصل « شحاتة » إلى البيت .. فوجد « أم آمنة » فى مجلسها ،
ولم يكن « ثوشة » و « سيد » قد وصلا إلى الدار بعد .. ولم تك
المجوز الضريرة تسمع وقع أقدامه حتى صاحت :

— ازاي ضهرك يا شحاته افندى ؟

— ضهرى .. ماله ضهرى ؟

— يوه .. ياخويه مش بتقول انه بيوجعك ، وطلبت منى اسلق
شوية الحاجات اللى انت جاييهم عشان يصلبوه . .

— أيواله .. أصل الشغل بينسى الواحد كل حاجه . حتى العيا ،
والله لسه برضك بينتقح على .

— طب يا خويه ما تخش تستريح لك شويه ، والله ما كان حقتك
خرجت النهارده خالص .. العيا يحب الراحة .

— لكن اللقمة تحب التعب .

— الله يكون فى عونك .. أنا عملت لك الحاجه ألى انت عايزها ،
وزكبه جابت لى شويه بهارات وساعدتنى فى الطبخ .. الهى يعدلها
لك يا بنتى يا زكيه .

— هيه فين الثوريه ؟

— مخطوطه فى السلطنه جوا المطبخ .. حاتاكل دلوقت والا
تستناهم ؟

— انا حاشرب الشوريه واخس اتمد .. اصلى تعبان شويه ...

— طيب اما اقوم احضرها لك .

— ولا تقومى ولا تتعبى نفسك .. خليكى زى ما انت . انا
حاشس اشرب الشوريه وخلص .

— طيب بس خدلك شويه رز وشويه بدنجان مكهور دانا عامله
بسبك وزى الزيده .

— حاضر .. حاخذ شويه بس خليكى مستريحه .

ودخل « شحاته » إلى المطبخ وكان اول ما فعله هو أن رفع سلطنة
البهريز إلى شفتيه وأفرغ ما بها فى جوفه ثم أتى على كل ما بها من مخابى
وكلاوى ، ثم غرف بعد ذلك طبقا من البانجان وطبقا من الأرز فأفرغهما
فى لحظات فى باطنه .. كل ذلك فى عجلة كأنه يأكل آخر زاده ..
أو كأنه يملأ آلة بالوقود استعدادا لعمل شاق .. ثم ما لبث أن أوقد
وابور الغاز وبحث فى أرجاء المطبخ عن الهاون وأخذ يصحن فيه بعض
ما أحضر من العطار ثم قدحه على الوابور فى طاسة وضع بها بعض
السمن ، ثم أخذ بعد ذلك يأكل ما فى الطاسة وما فى اللفافة حتى أتى
عليها ، وأخيرا عاد إلى حجرته بعد أن صنع فنجانا من القهوة ، وجلس
على الصحارة ثم أخرج العلبة الصغير من جيبه وأخرج ما بها يعود من
الكبريت ، وأذابه فى فنجان القهوة .

وعندما انتهى « شحاته » من احتساء الفنجان أخرج من جيبه علبة
الدخان ودفتر سجائر فنزع منه ورقة ورص بها الدخان ثم أخرج القطعة
التي منحها له الشيخ سيد فكسر نصفها وفتته مع الدخان ووضع

النصف الآخر فى جيبه قائلا فى نفسه « خللى دى تنفع فى الزنقه »
ثم لف السيجارة وجلس يدخنها بتمعن واستمتع وهو ينفخ دخانها فى
الهواء وما لبث أن استلقى على الصحارة وراح فى غفوة .

أقبل « شوشة » على البيت وكان أول ما فعل هو سؤاله على
« شحاتة » .. فأنباته « أم آمنة » أنه حضر وتناول الغداء وأنه آوى
إلى مضجعه ليسترىح من ألم بظهره .

وتوضأ « شوشة » وصلى وما لبث حتى حضر ابنه من الكتاب فتناول
الاثنان الغداء مع العجوز وقد خيم على الثلاثة صمت عميق ، ولاحظت
« أم آمنة » هذا الاغراق فى الصمت ، فقالت متضاحكة :

— خدنا على زينة شحاته أفندى .. الاكله مابقتش تحلى من
غيره .

— أيوالله .. كان زمانه عمال يضحك ويأرا .. ربنا ياخذ بيده .
وانتهى الثلاثة من الأكل ودخل « شوشة » إلى حجرته وانطلق
« سيد » إلى صحبه تحت التوتة بجوار السبيل ، وجلست « أم آمنة »
مطرقة فى أسفل السلم .

وانتصفت الساعة الرابعة وتبها « شوشة » للخروج ولما يستيقظ
« شحاتة » بعد .

قال شوشة كأنما يحدث نفسه :
— مالوش عاده يتأخر كده .. لازم تعبان حقيقى .. أما أخش
أشوفه .

ودخل شوشة الحجرة مسترقا الخطأ حتى لا يحدث ضجة تقلق
الرجل ووقف بجوار الصحارة التى رقد عليها وكان قد تعود أن يكور
نفسه وأضعا ركبتيه قرب نقره لقصر الصحارة ، وكان فى رقدته معطيا
وجهه للحائط .

وهتف شوشة مناديا الرجل فى صوت رقيق :

— شحاته .. شحاته ..

ولكن الرجل لم يستيقظ فمد يده وأخذ يربت على ظهره برفق
تأثلا :

— شحاتة .. انت حاسس بتعب ؟

ولم يجب الرجل ، وأحس « شوشة » فى جسده برودة غير طبيعية
فمد يده يتحسس جبينه فسرت إليه قشعريرة ، ولاحظ بالرجل سكوتا
عن التنفس ، وما لبث حتى أدرك أن ما أمامه ، هو مجرد جسد ..
بلا روح ولا نفس ولا حياة .

أجل ، لقد مات مشيع الجنازات ، والساخر من الاموات .
وذعر « شوشة » ذعرا شديدا .. فقد كانت المسألة مفاجأة كبرى
.. وكان آخر ما يخطر له على بال .. أن يجد الرجل ميتا .

ومضت لحظة والرجل واجم فى مكانه من وقع المفاجأة لا يدري ماذا
يفعل ، وأخيرا بدأ يفيق لنفسه فكان أول ما فعل هو أن هروا إلى
أم آمنة فصاح بها فى صوت يخنقه البكاء :

— أم آمنة .

— نعم يا ابنى .

— شحاته أفندى مات .

وشهقت المرأة وصاحت فى فزع :

— مات .. يا ندامه .. مات ازاي .. دا لسه كان واقف قدامى
على رجليه .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون .
ثم استغرقت فى الإجهاش بالبكاء .

وعاد « شوشة » إلى حجرته فانتزع ملاءة بيضاء وسار متاثلا
إلى حجرة شحاتة .. ففرش الملاءة فوق الجثة ، ونفذت إلى أنفه رائحة
التدخين . فوقف يفكر قليلا ثم ما لبث أن اقترب من الجسد وأخذ نى

تفتيشه وأخرج النقود فوضعها فى جيبه وقذف بالقطعة التى تبقت من التدخين إلى المرحاض وهو يقول فى تأثر :

— يعنى كان عليك من ده بايه .. الله يرحمك .. انت اللى قضيت على نفسك .

وانتشر النبا بين اهل الدار ، ثم فى الدرب ، وبدأ الجيران يتوافدون على الدار للمساعدة أو للاستطلاع أو للعزاء .

وعندما اقبل الليل استأجر « شوشة » كلويا فوضعه على باب البيت وصف بضعة مقاعد فى الفناء وأمام الدار وتطوع فقيه من سكان الدرب بالقراءة ، وكان « سيد » وصحبه يجلسون على حجر السبيل وقد أصابهم الوجوم وخيم عليهم الصمت وأخذ كل منهم يقوم بواجب العزاء نحو « سيد » الذى بدا عليه الذهول والفزع .. فقد كانت المرة الأولى أن يشاهد ميتا ، وكان لا يكاد يصدق أن شحاتة قد ذهب حقا إلى غير رجعة ، وأنه لن يراه بعد ذلك .

وأخيرا انفض المأتم وانصرف المعزون وانطفأ الكلوب وساد السكون الدار وأوى « سيد » إلى مضجعه بين أحضان « أم آمنة » وجلس « شوشة » على فراشه يرنو إلى النجوم المسهدة وخيل إليه أنه يسمع فى سكون الليل صوت الناي الحزين وأحس بالدموع تخنقه فأجهش بالبكاء .

وأخيرا وبعد أن أفرغ مدامه هز رأسه فى حسرة وأسى وقال لنفسه :

— كل شئ إلى نهاية .. كلنا نعرف ذلك ، ولكن المصيبة أننا لا نعرف متى النهاية .. ولو عرفناها لكنا فى استقبالها أكثر شجاعة . ان الحياة حقيرة ، ولكننا من نفس معدنها .. كيف نعرض عنها ونحن أشد حقارة .. يا مشيع الموتى ما كان اتدرك على كشف الأحياء .. تالله ما سمعت أصدق من قولك : ليس هناك أحقر من البشر ولا أغفل .

أهناك أشد غفلة من مخلوق يغفل عن نهايته ؟ . أهناك أكثر غفلة من مخلوق يوقن من نهايته ولا يهيىء نفسه لها ؟ . رحمة الله عليك .. فقد كنت على حكمتك أشد البشر غفلة .

وأضى « شوشة » ليلته وهو جالس فى مضجعه يرتقب النجوم ، شارداً الذهن .. منقبض النفس .. يكاد يحس بشبح الموت يجثم فى كل ركن من أركان الدار ، ويشم ريحه فى كل نسمة تطوف بأركانها .. ويسمع صوته فى كل قطرة تموء أو كلب يعوى .
الموت .. الموت .. الموت .

ماله بعبث بنا كل هذا العبث ؟ ! ماله لا ينتفض فيريحنا من عناء الانتظار !! ماله يتركنا حيارى خالين نحس به ولا نراه ، نوقن من وجوده .. ولا نوقن من حنوته !! ماله يبدو كالشبح أو الوهم .. وهو حقيقة واقعة !! ماله يقبل متخفياً مستترا فلا نراه إلا وقد أطبق علينا ، وهو أبعد ما نتوقع !

أيها الموت .. أنت نذل جبان .. لا تأخذ إلا على غرة .. تبدو بعيداً نائياً .. وأنت كامن وراء تلك السكين أو هذه العصا ، أو أسفل هذه النافذة ، أو فى تلك اللقمة .

أظهر لنا أيها الموت ، فإئنا لا نخشاك .. ولكننا نخشى مفاجأتك .. نخشى نذالك وجبنك ، نخشى طرقتك البهلوانية ووسائلك المسرحية .

تعال أيها الموت وأرحنا من مخاوفات الحياة .. أنت نومة لا أكثر ولا أقل .. أنت لا شيء .. سوى فاصل بين احساس ولا احساس .. أقبل علينا فأنت منجينا حتى من خوفنا منك .. فمن بعدك السلامة منك ومن وهمك ، ومن خشية انتظارك .. أقبل فليس مثلك شفاء للنفس الواعية المدركة بحقيقة الخليقة العارفة بزيف قيمتها وتناهة حصيلتها .

أيها الموت .. أقبل .. ولكلك أنذل من أن تجيب إذا ما دعاك

داع .. انك لا تقبل إلا بلا دعوة .. تقبل حيث لا تطلب .. وتعرض
عند الحاجة إليك .

وبدا نور الفجر يتسلل من الظلمات ، و « شوشة » ما زال فى
موضعه ، مفتوح العينين ، شارد الذهن ، ولم يكد يسمع أذان الفجر
حتى نهض من مكانه متاثلاً ، فتوضأ وصلى . ثم ذهب إلى « أم آمنة »
فوجدتها جالسة فى الحجرة بجوار سيد ، وعندما سمعت وقع
خطوات شوشة رفعت رأسها متسائلة :

— يابنى صاحى ليه من النجهم ؟

— أنا ما شفتش النوم :

— ولا انا . حاسه انه حايقوم ويضحك زى عوايده . كان راجل

أمير .. الله يرحمه .

— الله يرحمنا جميعا .. انا خارج عثمان أجيب الخشبه والمغسل

والكفن .. انا وصيت عليهم من امبارح .. أما أروح استعجلهم ..
عثمان نخلص من الدفنه ، ونشوف أشغالنا .

— هوا انت حاتلاقى حد صحى ؟

— انا قايل لهم ان انا حاجلهم بدرى .

— طيب يابنى البركه فيك .. ربنا بيعد عنك السوء .

وخرج شوشة يتلمس طريقه فى الضوء الباهت ، ولم يغب عن
الدار أكثر من نصف ساعة عاد بعدها ومعه ثلاثة رجال أخذ اثنان فى
تفصيل الميت ولنه فى الكفن ، وكان شوشة يشعر فى أول الامر بخشية
من الدخول فى حجرة الميت ومن لمس الجثة .. ولكنه تذكر قول صاحبها
عن الأموات ، وعن احتقاره للموت ، واستخفافه بالجثث .

الم يقتل له ان شعوره عند الإمساك بميت لا يزيد على شعوره

عندما يحمل فخذة خروف أو اوزة منبوحة ؟ ألم يقل له ان كليهما جسد ميت من لحم وعظم ؟

وهكذا أزال شوشة من نفسه الخوف والوهم وجلس مع الرجلين يساعدهما فى التفصيل واللف فى الاكفان حتى انتهت المهمة .. ثم حملوه فوضعوه داخل النعش ، وكان قرص الشمس قد بدأ يظهر ، وقد نزل المعلم خشت من الدور العلوى لأداء الواجب وتشجيع الجنازة ، ووقف فى فناء البيت ، وهو يهز رأسه أسفا ، ويستعطر النعيد الرحمة وهو يقول :

— يا جماعة الرجل كان عندى امبارح صاغ سليم .. كان زى البلب .. نصبح النهارده نشيع جنازته ، اخص عليها دنيا غروره بنت كلب .

وانتهى اعداد الجنازة بسرغة ، وحمل الرجال الثلاثة النعش واستعدوا للسير ، وتلفت شوشة حوله فلم يجد سوى واحد هو المعلم خشت ، وهز رأسه أسفا ، وجاهد ليقاوم نوبة من البسكاء أمسكت بتلابيبه .. وحدث نفسه فى أسى :

— أهذه جنازة مشيع الجنازات ؟ أبعد كل هذه الزفف التى اشترك فيها يحمل إلى مثواه بلا ناع ولا باك ولا حفل ولا موكب ؟ . أبعد طول تزيينه لجنازات الغير بالمناد والمجامر ، تخرج جنازته خاوية خالية ؟

وهم حاملو النعش بالمسير عندما خطرت بباله فكرة طارئة هتف على أثرها بالرجال « تفوا » ، ثم قفز إلى داخل الدار ، وبخل إلى حجرة الصحارة ، وأمسك بصرة « شحاتة » ففكها وأخرج منها عدة الشفل كما كان يسميها صاحبها .. وأمسك بالبدلة بيد مرتجفة ، ثم وضع ساقيه فى البنطلون ، وحشر الجلباب داخله ، ثم ارتدى الجاكته بسرعة فوق الجلباب ووضع الطربوش على رأسه ، ولف الفوطة الحمراء المخططة حول وسطه ، وأمسك بالمجبرة فى يده ، وأندفع مهرولا إلى الخارج .

وكان « سيد » قد استيقظ ، فبهت وهو يرى أباه فى هذا المنظر
العجيب وصاح متسائلا :

— إيه ده بابا ؟

— ولا حاجة .. روح انت الكتاب بتاعك ، أنا رايع أوصل شحاته
أفندى .

وخرج شوشة إلى الطريق بمنظره هذا فذهل المعلم خشت والرجال
الثلاثة الذين حملوا النعش ، وقال « شوشة » مفسرا عمله :

— لا مؤاخذه يا جماعه لازم نكرم الراجل شويه .. دا طول عمره
واخذ على الجنازات الأبهة .. وطباخ السم بيدوقه .. ياللا بينا .

وتحركت الجنازة المكونة من الرجال الستة : «شوشة» بالبدلة
السوداء والمجرة يسير فى الامام ، والرجال الثلاثة يحملون النعش
و « الخشت » يسير وراءه .. وسادسهم « شحاتة » مسجى داخل
النعش .. ولم تكد الجنازة تعبر درب القط حتى برز من إحدى الحارات
« حسين القرداتى » بالرق فى يده والمعزة والقرد .. فلم يكد يرى
« شوشة » والجنازة حتى سمر فى مكانه وصاح :

— إيه ده ؟ إيه اللى جرا يا معلم شوشة ؟

— البقية فى حياتك .

— فى مين ؟

— شحاتة أفندى مات .

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. إنا لله وإنا إليه راجعون .

وهجم حسين على النعش فأزاح أحد حامليه .. وحل محله فى
حمل النعش وهو يقول :

— عنك أجرنى .

وعاودت الجنازة سيرها .. وقد زاد فيها مشيعان .. المعزة ،
والقرد .

وسار الموكب الجنائزى فى « درب عجور » .. وظل المشيعون

يزدادون واحدا بعد واحد كلما مر بجار ، أو صديق ، فلم يبلغ مقابر باب النصر حتى كان يسير وراء النعش جمع كثير من أهل الحى .

وكان شوشة قد أوصى اللحد ليلة أمس بأن يعد المقبرة لاستلام زائر جديد ، فلم تكد تشرف الجنازة على مقبرة المعلم شوشة حتى كانت قد فغرت فاماها ، وبدأ جوفها المظلم معدا لاستلام الضيف المقبل .

وسرت فى جسد « شوشة » قشعريرة ، وهو يرى الفتحة المظلمة ، وعأوده خوفه المتأصل من القبور والموتى .. وهم بالتراجع والابتعاد .. ولكنه تذكر الحديث الذى أسره إليه شحاتة فى الليلة السابقة .. وخيل إليه أنه يعاود همسه قائلا :

— « لقد بدأت أتعود النزول إلى داخل المقبرة نفسها .. لقد فعلت هذا .. لأنى عزمتم أن أهزم فى نفسى كل خوف من الموت ، أو رهبة له كشيء مروع .. وهكذا تعودت أن أنزل الأموات إلى المقابر .. وأصبحت بذلك رجلا شجاعا .. بل أصبحت أشجع رجل فى العالم ؛ لقد بت أحتقر الموت .. وأحتقر أكثر منه .. الإنسان » .

وأحس أنه يود هو الآخر لو هزم فى نفسه رهبة الموت وكشفه على حقيقته ، وتعوده كمسألة عادية متكررة الوقوع .

وبعد مستميتة أقبل على النعش ، فرفع غطاءه ، وصاح باللحد :

— هه .. كل حاجه جاهزه ؟

— أيوه يا معلم .. عنك انت .

— شيل معايا شيل .

ودفع بكتا يديه إلى داخل النعش فأمسك بالجثة من كتفها .. وسرت إليه من برودتها رجفة هزته من أخمصه إلى قمته ، ولكنه همس لنفسه « لا تخش شيئا .. انها لحمة ميت .. انها كتحخذة الخروف أو كالأوزة المذبوحة » .

وزاد أطباقه بأصابعه على كتفى الجثة .. كالت معركة بينه وبين رهبة الموت .. ولقد صمم على الانتصار .

ايها الموت .. انت تافه .. انك شيء لا وجود لك .. انها نهايتنا نحن .. لقد انتقلنا من الوجود إلى العدم .. كنا بالأمس ، فأصبحنا اليوم شيئا غير كائن . ما ذلك أنت تتحطم نفسك وتخلق لك وجودا وكيانا ، وتقرض لنفسك سيطرة وسلطانا ، وتكسو نفسك الرهبة والروعة .. وانت في حد ذاتك .. لا شيء .

ما هذه الرهبة التي أحطت بها بقاينا من عظام رميم ، انها مخلفات جامدة .. انها انقراض لم تعد لنا بها صلة .. انها مواد فانية متحللة .. لا فارق بينها وبين انقراض الدور وبقايا الأثاث القديمة .. كلها صائر إلى رماد .. فعلام إذن الرهبة ولم الخشية ؟

وهبط شوشة بالجثة إلى باطن الأرض وهو في نضاله العجيب محاولا تهر أو هام الموت .. حتى انتهى من آخر الدرج ؛ وبدأ يتحرك في الداخل ، وقد أغشت عينيه الظلمة الجاثمة ، وصدمت وجهه برودة ثقيلة ونفذت إلى خياشيمه رائحة عفنة .

ولم يكذب يسير خطواته الأولى داخل القبر حتى صدمت قدمه شيئا صلبا ، ونتج من الصدام قرعة أشبه بقرع الطبل وأخذ الشيء المصدوم بتدحرج على الأرض ، فلم يعد هناك شك في أن الشيء المصدوم جمجمة ميت .

وكانت قرعة شوشة للجمجمة هي دقة الهزيمة .. لقد انهار الرجل تماما .. وجثا بالميت على الأرض .. ودفن رأسه بين كفيه واندفع في نحيب حاد .

— لا .. لا .. ليست هذه العظام انقاضا كإنقاض الدمن ، انها قد تكون كذلك .. لو لم يكن في صدورنا مؤاد يخفق وقلب يدق وينبض .. أما وهذه تكمن في حنايانا .. فما أعز البقايا وما أكرم الانقراض .. انها آثار عزيز غاب ، ودلائل حبيب فقد .

ايخفق القلب لشيء غير ملموس ؟ .. لرائحة سارية ؟ .. او لذكرى

عابرة .. ؟ ولا يخفق لبقية ملموسة ضمها الثرى ، وأثر محسوس حوته الأرض .

وأسرع الرجال بوضع الجثة فى مكانها واخراج « شوشة » من القبرة وقد انهارت مقاومته وتحطمت أعصابه .

وسرعان ما أغلق القبر وقرا القوم الفاتحة مترحمين على الفقيد ، ثم انصرفوا إلى سبيلهم ، وعاد « شوشة » إلى البيت فابدل ملابسه وهو ساهم واجم ثم خرج إلى عمله بعد أن خرج من الصراع بهزيمة بريرة .

قاتل الله ذلك الساكن فى الضلوع ، لقد خذله شر خذلان وكان السبب فى كل ما حاق به من هزيمة وما أصابه من انهيار .

عاد « شوشة » فى الظهر إلى داره ولم يتناول إلا قليلا من الطعام ، وكان سكون الموت ما زال يجثم على الدار ، وكان يشعر بثقل فى اطرافه وانهاك فى جسده ، ولكنه لم يرد أن يستسلم لآثار الهزيمة ، نخرج بعد الصلاة لتصريف شئونه والذهاب إلى المقهى ، ومر بعد ذلك يومان عاد كل شئ خلالها إلى طبيعته فى الدار ، وعاد « سيد » إلى لهوه ، وشوشة إلى جلسته فى الليل ، وأم آمنة إلى قبوعها فى الفناء ، ولم يعد هناك أثر لشحاعة إلا تلك الصرة المنزوية فوق الصحارة .

وفى ظهر ذات يوم وقد عاد « شوشة » من عمله وانتهى من الصلاة سمع طرقا على الباب فقام ليرى الطارق فإذا به عجوز يرتدى جلبابا وطربوشا ولم يصعب على « شوشة » أن يميز فيه أحد أولئك الأفندية زملاء « شحاعة » الذين كانت تكتظ بهم قهوة الأفندية .

واكد سؤال الرجل ظن « شوشة » فقد تساءل قائلا :

— هى دى شقة شحاته أفندى ؟

— أيوه هيه .

— أمال هوا فين بقاله يومين غايب عن القهوة ؟ .. والشغل
كابس اليومين دول والمعلم محتاج له .

— شحاته افندى .. تعيش انت .

— بتقول إيه ؟

— تعيش انت .

وصاح الرجل فى دهشة بالغة وحزن ظاهر :

— مش ممكن .. حاجه ما تعقلش .. آخر مره شفناه كان زى

البمب لا بيه ولا عليه .. كان ماثى فى آخر جنازه زى الحصان

الاسترالى .. هو الوحيد اللى ما شتكاش م المشوار .. كان ماثى

طول الجنازه يضحك ويهرا .

— الى حصل .. الموت مايرحمش .

— حاجه غريبه ! الله يرحمك يا شحاته افندى .. كان راجل امير

زى السكره عمره ما زعل حد ولا عاب فى حد .. طول النهار قاعد

يغنى ويضحك .. الله يرحمه .. والله يا شيخ زعلتنى ونكدت على ...

واستمر الرجل فى ومفته على الباب ، ولم يجد « شوشة » أن

هناك شيئا يقال ، ولكنه كذلك لم يستطع أن يطرد الرجل فدعاه إلى

الدخول من باب المجاملة قائلا :

— ما تتفضل تستريح شويه !! خشى اشرب لك فنجان قهوه ...

— كتر خيرك . أمال حضرتك تقرب له إيه ! أنا فاكرا ان أنا شفتك

معاه مره فى القهوة ؟

— والله معرفه عزيزه قوى .. كنا زى الاخوات .

— انعم واكرم .. أنا محسوبك هلال خلف الله هلال زميل المرحوم .

— أهلا وسهلا .

واستمر الرجل واقفا فى مكانه لا يدخل ولا ينصرف حتى بدا

« شوشة » يقلق ، وأخيرا قال الرجل متسائلا :

— وبعدين ؟ إيه العمل دلوقت ؟

— فى إيه ؟

— فى أزمة الأنفار اللي احنا فيها .. الأفنديه مش ملاحقين على الجنازات .. الشغل حمى خالص .

وهز « شوشة » كتفيه مظهرها أسف العاجز الذى لا يملك حلا .. واستمر الرجل فى قوله :

— وكنا معتمدين على « شحاتة » ييجى معانا .. اهو خلى بينا .. إيه العمل دلوقت ؟

واستمر « شوشة » فى اظهار أسفه الصامت ، فقد كان الجواب فى غير دائرة قدرته ، وكان سؤال الرجل له غير ذى جدوى ومع ذلك فقد استمر الرجل الملحاح فى حديثه قائلا :

— حاجه تحير .. إذا لقينا النفر مش حائلناقى البدله .

وهنا فقط أحس « شوشة » أن المسألة دخلت فى دائرة قدرته وأنه يستطيع أن يساهم فى حلها .. فعددة الشغل الخاصة بشحاتة افندى موجودة كما هى فى صرتها ، وهو لا يظن أن أحدا فى هذه الدار يمكن أن يحتاجها ، ولذا فإن خير ما يفعله هو أن يعطيها لهم بأى ثمن .. فهم وحدهم الذين يستطيعون استغلالها .

وقال شوشة مبشرا الرجل :

— إذا كان على البدله .. البدله موجوده .. هى والفوطه والمجبره .. كل حاجه موجوده بحالها زى ماهيه .

وصاح الرجل فى لهفة :

— أيوالله . صحيح . الله يسترك . لكن مين حايلبسها ؟

— انت مش بتقول ان الأنفار موجودين .

— أيوه .. لكن فين دلوقت حلاقيهم .. الجنازه فاضل لها حسبة

نص ساعه .

وعاد الرجل إلى إطراقه ونحيبته ، ولكنه ما لبث حتى رفع رأسه
متسائلا :

— اسمع .. ما تيجى انت معيا .
وكان السؤال مفاجئا لشوثة فقد كان آخر ما ينتظر ، فأجاب
متلعثبا :

— أنا ؟ . آجى معاك ؟ . لكن أنا مالياش فى الشغلانه دى ؟ ...
— يعنى إيه مالكش فى الشغلانه دى ! ؟ هى دى شغلانه ..
البدله مش تيجى على قدك ؟
وكان شوثة يعرف الرد فقد سبق له إرتداؤها فأجاب بلا تفكير :

— أيوه على أدى .

— خلاص .. انتهينا .. الحكايه كلها مش عايزه غير انك تلبس
البدله ، وتمشى معنا قدام الخشبه ، وفى آخر المشوار تنقح لك اللى
فيه القسمه إذا كان شلن والا نص ريال ، وإذا كانت الجنازه حاره
والميت سقع .. يمكن توصل لريال .. خُش يا شيخ بلا وسوسه
.. دا رزق ربنا بعثوك .. حد يرفض الرزق ؟ يا الله بلا بطر ؟

وكان ذهن شوثة يعمل فى سرعة .. كان يفكر فى المسأله من
وجهة نظر أخرى .. كان يفكر فيها على أنها فرصة أخرى لدخول معركة
ثانية مع الموت ورهبته .. لقد خسر الجولة الأولى ، وها هى تسنح
له الفرصة لجولة ثانية وثالثة ورابعة .. إن الزمن معه وهو لا شك
منتصر . انها — كما قال شحاته — مسألة تعود لا أقل ولا أكثر ، وليس
هناك فرصة خير من هذه لقهر الموت .

وفى ابح البصر كان شوثة قد حمل الصرة وسار مع الرجل إلى
قهوة لفنديه ، وعندما وصل إلى هناك كان النشاط على أشده والمقهى
والحانوت كخلية النحل ، ولم يكد الحاج سرور يرى هلال خلف الله
هلال حتى صاح به :

— آمال فىن شحاته النحس ؟

- سبقنا .
- على فين ؟
- على المقر الأخير .. على الذى لابد منه .
- يعنى إيه ؟
- على القرافه .
- راح لوحده كده ؟
- طبعا .. امال يعنى راح بزفه ؟
- يا جدع اتكلم جد .. حايرجع امتى ؟
- ماهوش راجع .
- مش راجع ازاي ؟
- زى الفاس . أصله راح راكب . قطع ذهاب بلا اياب .
- ؟ صدك تقول انه مسافر ؟
- حاجه زى كده .
- يعنى إيه حاجه زى كده ؟
- يعنى مات .
- مات !! بتكلم جد ؟
- وهى الحاجات دى فيها هزار يا حاج .. شحاته افندى مات وشبع موت .. البركه فيك .
- ولم بكذ يسمع القوم النبأ حتى تصايحوا نى دهشة : « مات ؟ » ،
- « مات ازاي ؟ » ، « الله يرحمك يا عم شحاته » ، « يا سائر يارب » ،
- « قال يا ريحين يكتيكو شر الجايين » ، « لا حول ولا قوة إلا بالله » .
- وعندما هدأت التعليقات صاح الحاج سرور بهلال :
- وبعدين ؟ والعمل إيه دلوقت ؟
- ولا يهكم .. جيت لك نفر بداله .. حايلبس بدلته ويمشى مطرحة .
- انا مش قصدى كده .

— أmaal تصدك على إياه ؟

— تصدى ع الأربعين قرش اللى مسلفهم له .. ريالين مشنيرين ..
ريال يخبط ريال .. يا خسارة الفلوس .. أنا كان قلبى حاسس انهم
حايضيعوا .

وكان شوشة قد وقف فى هذا الوسط العجيب يرقب الحوار ويسمع
إلى التعليقات ، فلم يكذب يسمع حسرة الرجل على دينه الضائع حتى
قال له فى هدوء :

— ما تخافش على فلوسك يا حاج .. المرحوم ما كانش ياكل مال
حد أبدا .

— ما كانش إياه ؟ الظاهر انك ما تعرفوش كويس ؟ .. دا كان
ياكل مال النبى .

— ماتقولش كده . عيب ... الأربعين قرش بتوعك اهم ..

ثم أخرج كيس النقود وأعطى الريالين لصاحبهما وصدق الحاج سرور
فى الريالين دهشا :

— عجيبه ! دول هم الريالين بتوعى .. الله يرحمك يا شحاته
افندى .. الظاهر انه مالحقش يصرفهم .

وكان مخزن المخدرات قابعا فى إحدى الزوايا وقد راح وسط هذا
الضجيج فى غيبوبته ، ولكن يبدو أن رشاشا من الحديث قد نفذ إلى
مسامعه وانه أدرك ما حدث ، فقد اهتز جفناه ، ثم صاح بصوته
المتحشرج دون أن يوجه أحد الحديث إليه :

— النص ريال بتاعى ماتيش عايزه ، ولا حتة المنزل وفص
الحشيش خليفهم رحمه ونور على روح المرحوم .

ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال داعيا :

— أرحمه يارب .. حقيقى كان بتاع نسوان ، وفلاتى ، وخياص
وهلاس .. لكن برضك أحسن من ولاد الكلب السفله دول كلهم ..

طبيب وأمير وعمره ما أذى حد ، ولا عاب في حد .. ولا تسبب في ضرر حد .

وأمن « شوشة » على قول « الشيخ سيد » بقوله :
— معاك حق .. كان قلبه أبيض زى حنة البفته .

ولم يرد « الشيخ سيد » على « شوشة » بل استمر موجهها قوله إلى الله :

— وأنت عايز إيه من العبد غير أنه ما يضرش أخوه ، إيه يضايك من أنه يشبرق نفسه ويشوف كيفه ؟ .. وإيه يفيدك من حرمانه من نعمك ؟ .. أرحمه يارب ، وأرحمنا معاه .. احنا عبيدك الغلابه .

وعلا صوت « الحاج سرور » مقاطعا « الشيخ سيد » ، صائحا « بشوشة » :

— يا الله ياسيدنا خش البس . مستنى إيه ؟ معندناش وقت .

وسرعان ما جذبته هلال إلى الحانوت قائلا له :

— تعرف تلبس والا لا ؟

— أعرف البس الجاكطة والبنطلون .. بس القميص والبتاعة السوده دى مالبستهاش قبل كده .

— طب خش أنا السك .

وبعد بضع دقائق كان « شوشة » يغادر الحانوت .. وقد ارتدى الطقم الكامل .. وهلال وراءه يصفق بيديه طريا ويصيح :

— حلو .. اللي يشوفك يقول أفندى أصيل .. أفندى ابن أفندى .. هات الطربوش لقدام شوية .. ما تقصعوش لورا كده زى العصبجيه .. أيوه كده .

ثم صاح « هلال » قائلا « الحاج سرور » :

— احنا حانروح أنهى جنازه يا حاج ؟

— جنازة الجماليه .. حنقوم من الجماليه ع المجاورين .. يا الله اعملوكلو همه .. انا حاوصل لجنازة الكحكيين .. اودى الطقم

وحاصلكو على هناك .. مش عايز لخطبه .. خد بالك من النفر الجديد .. لحسن يعمل حاجه كده ولا كده .

— ما تخافش . خليه على .

وتحرك « شوشة » وسط الجمع يحثون الخطا فى شارع الخليج متجهين إلى شارع أمير الجيوش ، ثم إلى الجمالية حتى وصلوا إلى بيت الميت .. ووقف « شوشة » يرقب المعزين ، ويرقب الاستعداد للجنازة ، وقد بدا مأخوذا بما حوله ، وأجم الوجه ، شارد الذهن ، ولم تترك له غرابة الموقف فرصة للتفكير فى الميت ذاته ، ولا الرثاء له ، والعطف عليه .. فقد كان مشدوها من ضجيج المظاهرة ، وكانت مشاعره فى حالة تبلد وجمود .

واستمر به هذا التبلد والجهود حتى أخذ الميت يهبط من درج البيت وانطلقت الأصوات تشق أجواز الفضاء .. ويدت وهى تنطلق تكاد تنتزع قلوب مطلقيا .. وهنا أصابته رجفة شديدة جعلته ينتفض فى حلقه كأنه « العصفور بالله القطر » .. ثم لاح النعش .. نعش قد لف فى الحرير الأبيض ، دلالة على أن صاحبتة سيدة شابة .. فلم يكذ تنقع عليه عينا « شوشة » حتى أصابه ما أصابه عندما طرقت قدمه الجمجمة من أول جولة .. فقد انهار تماما ، واندفع فى نوبة يكاء عنيف .

وكان التأثير المباشر لنوبة البكاء التى أصابته ، نوبة ضحك أصابت بقية الزملاء ، فقد كانت نظرتهم إليه ، وهو يندفع فى البكاء نظرة كل محترف متمكن فى مهنته إلى مستجد غشيم يبدأ المهنة لأول مرة فيندفع فى حماقة ، يسببها جهله ، وقلة درايته ، وضعف احتماله .

وقال له « هلال » مهدئا :

— كفايه بقى يا سى شوشة .. خلى شويه للجنازه الجايه لسه قدامك مناحات كتير .. انت بالطريقه دى حاتخلص فى جنازتين تلاته .. وبعدين حاتدور أنت على اللى يعيط عليك .. انتل بقى يا جدع انتل ..

بلاش شغل هبل ، كفايه تبص فى الأرض وتعمل نفسك زعلان .
وقال الشيخ سيد متسائلا :

— انت يا جدع بتعيط على إيه ، على الميت ، ولا على المشوار
اللى حاترقه ؟
واجاب هلال :
— الميت .

— ميت ؟ ليه ؟ تعيط عليه ليه ؟ جعان ، والا عطشان ، والا عريان ،
والا بردان .. والا تعبان .. والا مروع . ما هو نايم أربعه وعشرين
قيراط .. ده هوا اللى حقه يعيط علينا . طب على الطلاق بالتلاته يوم
ما أرقد الرقده دى .. لأبص من الخشب واطلع لسانى للمغفلين اللى
بيعطوا عليه . آل بيعيط على الميت آل .. ليه هى الحكايه انقلبت ؟
فيه ماشى يعيط على راكب ؟ فيه محتاج يعيط على اللى مش محتاج ؟ ..
فيه متالم يعيط على اللى ما يتالمش ؟ يا ناس اعقلوا . ما تضحكوش علينا
الأموات .

وبدأت الجنازة فى السير واتخذ شوشة مكانه فى طابور الأفندية ..
ووصلوا إلى المدافن وواروا الميت التراب .. وعاد شوشة مع الجمع
إلى المقهى فأبدل ثيابه وقبض الأجر ثم عاد إلى البيت مطرق الرأس ،
أحمر العينين وأرم الأنف .

لقد انتهت الجولة الثانية بهزيمة أخرى .

وصل شوشة إلى البيت مع وصول الظلام ، وتلقاه ابنه سيد وهو
يعدو من آخر الدرب قافزا متواثبا وهو يصيح :

— آنا .. المعلم خشت سال عليك ثلاث أربع مرات ، وقال لى
اول ما تيجى من بره أقول لك عشان يقابلك .

وقبل أن يجيب الأب كان الصبى قد لاحظ الصرة فى يده وعلامات
التعب واثار الجفاء فتسائل فى دهشة :

— الله .. إيه ده بابا .. كنت مين ؟

— كنت فى مشوار كده .

— وزعلان ليه ؟

وتضاحك شوشة قاتلا :

— مش زعلان ولا حاجه .. خد القرش ده اشترى به حاجه .

ولكن « سيد » لم يتقبل القرش بما يجب من ترحيب وحماس ..

بل أطبق عليه بين أصابعه .. وكأنه يطبق على حصاة لا قيمة لها .

كان الصبى يحب أباه .. ولشد ما كان يضايقه أن يراه حزينا

موجعا .

وهم الصبى بسؤال ، ولكن شوشة لم يعطه الفرصة وصرفه

قاتلا :

— يا الله يا سيد أجرى قول للمعلم خشت ان أنا جيت ، وخليه يتفضل .

وعدا « سيد » صاعدا إلى الدور العلوى ليبلغ الرسالة ، ودخل

شوشة إلى الشقة فتوضأ وصلى ثم جلس ينتظر المعلم خشت .

وبعد لحظة سمع وقع أقدامه البطيئة المتهايدة منهض لاستقباله مرحبا

وقد كسا وجهه ما استطاع من علامات البشاشة والسرور :

— أهلا .. وسهلا .. أهلا أهلا .. اتفضل يا معلم .

— ازيك يا معلم شوشه .. ازاي الحال !

— رضا .. أهى ماشيه .

وجلس « المعلم محمود » على الأريكة فأصدرت قرعة وطققة ثم

استقرت فى النهاية مستسلمة إلى حملها ، وجلس « شوشة » على مقعد

خشبي واطيء وهو مستمر فى الفاظ الترحيب ، ولح « سيد » وهو يهبط

إلى الفناء فصاح به :

— واد يا سيد .. أوصل هات قزازة كازوزه من على باب الحارة .

وأصدر الخشت بعض الفاظ التمنع مثل « مافيش لزوم » و « ليه

التعب ده » ؛ ولكن « سيد » كان قد انطلق ينفذ الأمر .. وما لبث

حتى عاد حاملا زجاجة الكازوزة .. ودلف إلى المطبخ ثم أفرغ جزءا منها
في كوب صغير وشرب بقية الزجاجة ، ثم حمل الكوب في صينية صدئة
إلى الضيف ، ثم وقف ينتظر حتى شرب الرجل معظم ما في الكوب ..
وعاد به ثانية إلى المطبخ فجرع ما تبقى به ، وانطلق إلى الفناء رابحا
ما يقرب من نصف زجاجة كازوزة .

وجرى الحديث بين الرجلين في أسئلة تافهة وأحاديث عادية حتى
تخنح الخشت وقال وقد كسا وجهه ابتسامة عريضة :

— أنا جاي آخذ رايك يا معلم شوشه في موضوع يهمني .. احنا
اصلنا مش جيران بس .. احنا اهل .
— طبعا يا معلم طبعا .

— بقى شوف يا سيدى .. المعلم احمد الفكهاني جالى من يومين
طالب القرب منى في بنتى زكيه لابنه إبراهيم .. قلت له سيبنى أشاور
عقلى .. وبعدين ضربت أخماس في أسداس لقيت الواد كويس .. وابن
حلال وأبوه راجل طيب وأمير .. قلت يا واد وافق .. وربنا يقدم اللي
فيه الخير .. وبعدين قلت لمراتي فقالت الأمر أمرك .. حبيت آخذ
شورتك .. وبرضه رايبين أحسن من رأى واحد .
وأطرق شوشة برأسه برهة ثم أجاب :

— والله الراجل أمير ، وحاله متيسر ، والولد شاطر وابن حلال ،
ورايى انك توافق على طول .

— كده ؟

— أوى .

— خلاص .. هو حافوت على الليلة دى .. أقول له ان اتا.
موافق وتنهى الحكايه .
— على خيرة الله .
— أنا عايز اعمل ليلة نفرح بيها .. بقالى كتير ما فرشتش ..
عايز اعملها ليلة بالعالم والتخت .

— ربنا يديم الأفراح يا معلم .

وضحك الخشت ، وبدت عليه آيات الغبطة ، ثم نهض للانصراف
مادا يده مودعا ، وكانت وقفته مواجهة لدورة المياه وبدأ لعينيه
الشق العميق فى الجدار هابطا من أعلى إلى أسفل منتثيا متعرجا ،
نتيجة النشع الذى أهال البياض ، وبدت على وجه الرجل علامات
الانزعاج وقال لشوشة :

— ده إيه الشق ده ؟

— الظاهر إن فيه نشع فى دورة المياه اللى عندكو .

— لكن ده شق جامد .. واصل من أول الجدار لآخره . . لازم
تشوف لك فيه طريقه .

وضحك شوشة وأجاب باستخفاف :

— ما تخافش يا معلم ، دا بقالة عشر سنين على دى الحال .
عمر الشقى بقى .

— على العموم أنا حاجيب السباك يشوف المواسير إذا كانت
فيه حاجة بتنز يصلحها . هه .. سلام عليكم . تصبح على خير ..
تصبحى على خير يا خالتى أم آمنه .

وأجابه صوت أم آمنه من حجرتها :

— وأنت من أهله يا معلم محمود .. ربنا يتم بخير .
— الله يحفظك .

وقبل أن ينصرف التفت فجأة كأنما قد نسى أمرا وقال :

— على فكره يا معلم شوشه يمكن نحتاج فى الفرح لأوده والا أوحيتين
من عندك . فيه مانع ؟

— أبدا .. أبدا .. الشقه وإصحابها تحت أمرك .
— كتر خيرك .

ولم يلبث النبا حتى سرى فى أنحاء الدار وأقبل سيد على صاحبه
« على الخشت » قائلا :

- حقيقى يا على اختك حانتجوز ؟
- بيقولوا كده .
- وحاتعملوا فرح ؟
- آمال .
- وحاتعملوا فيه رز من بتاع الفرع .
- إيه الرز بتاع الفرع ؟
- رز كده تلاقيه بشعريه وزيبب طعمه لفيذ قوى .. كلته مره
- الفرح الللى اتعمل فى بيت المعلم « زين » السنه الللى فاتت ..
- أيوه فاكده .. كان فيه رقاصه بترقص عريانه ..
- حاتجيبوا رقاصه وعوالم ؟
- لازم أبويه حاجيب .
- وتجببوا مغناوتيه ؟
- ضرورى .
- وتنهذ سيد تنهيدة رضا وغبطة وقال وهو يمنى نفسه بمشعة مقبلة ؟
- حاتبقى ليله هايله .. امتى حاتعملوها ؟
- الله أعلم .. على العموم لسه بدرى .. الظاهر ان لسه نيه
- اخذ وعطا .. لآتى سامع أبويا كده عمال يتودود مع امى .



ولكن المسألة انتهت بأسرع مما توقع الصبيان ، ففى اليوم التالى كان « المعلم خشت » يطرق باب « شوشة » وينبئه فرحا أن المسألة قد انتهت وأن الاتفاق قد تم على أن يكون يوم الخميس موعدا لكتب الكتاب .

وأردف « الخشت » يقول وهو يفرك يديه :

— طبعا انت مش عايز عزومه ... البنت بنتك والفرح فرحك .

— طبعا يا معلم ودى عايزه كلام .

— أنا حاعمل شادر فى الحاره للرجال والالاتيه وحاخلى البيت للنسوان والعوالم .. بس عايزك تقضى لى الأوده اللى قلت لك عليها عشان المعازيم الرجاله ياكلوا فيها .

— الشقه كلها تحت أمرك .. هى دى عايزه سؤال .

— كتر خيرك .. احنا برضك أهل .

وكان الحديث فى يوم اى لم يكن قد تبقى على يوم الخميس — موعد — الفرح — الا بضعة أيام جرى فيها الاستعداد للفرح على قدم وساق ..

— بدأت بشائر الزينة بعلمين اخضرين علقا على جانبى باب البيت وأورمة خشبية ملونة يعلوها التاج وضعت فوق منتصف الباب ، وكان هذا أول دليل ملموس اقنع « سيد » بأن هناك فرحا فعليا ، وأن المسألة لم تعد مجرد أمنية منتظرة ، وإن أكل رز الفرح ذى الشعرية والزبيب قد بات وشيك الوقوع .

ومرت بضعة الأيام التالية على سيد خفيفة الظل لطيفة الوقع ، فقد كان كل يوم يبصر دليلا جديدا .. ففى يوم فرش الرمل الأصفر ، وفى اليوم الآخر علق قدر آخر من الأعلام والبطيوخ الزجاجى الملون ، وفى اليوم الثالث غرست أعمدة خشبية على مدخل الدرب ، قد لفت بأشرطة مخططة خضر وببيض ، حتى حل يوم الخميس .. فبدىء فى نصب السرادق لاستقبال المدعوين ، وسرادق آخر صغير خلف السرادق الكبير اقيم فيه المطبخ ورصت فيه الحلل فوق كائون حجرى .

وبات الدرب كله منهمكا خلال الأسبوع فى الاستعداد للفرح كل بما يخصه ، كمدعو أو كمشارك فى أداء أحد الواجبات .

وهكذا كان أهل الدرب من الاستعداد للفرح فى فرح إلا أمرا واحدا ، هو « شوشة » ، فقد كان غريقا إلى شوشته فى الجنازات وتشيع الأموات .

اجل ! لقد فتح الله على الانجليزية بشوطة تدفقت عليهم من بعدها الجنازات ، ووجد « شوشة » نفسه ، وقد اندمج فيهم وجرت رجله بينهم فأخذ يشيع الميت تلو الميت .. وتوالت عليه جولات الصراع بينه وبين رهبة الموت سريعة متتالية .. فقوت من مقاومته وزادت من ملابته ، ففى كل جولة كان يجد نفسه أهدأ أعصابا وأقل حساسية من الجولة السابقة ، ووجد نفسه يمشى فى طريق النصر بخطا حثيثة .. وأنه لو استمر فى مثابرته على تشييع الموتى فسينتهى به الأمر إلى انتصار لا شك فيه ، وأنه سيقهر خصمه الرهيب ويسخر منه ويكشفه على حقيقته التافهة الخالية من كل وهم ورهبة وروعة .

وهكذا ظل « شوشة » يواظب على الذهاب إلى مقهى الانجليزية ، وعلى الخروج معهم فى الجنازات حاصلا من عمله على ربحين ربح باذى وريح معنى .

وبدا أهل الدرب يتهايمون فيما بينهم عن سر خروج « شوشة » بالصره يوميا بعد الظهيرة ، وما لبث أن ذاع الأمر عندما أبصره احدهم يسير ببذله السوداء امام إحدى الجنازات .

وأثار النبأ تعليقات شتى ، فمن قائل ان الرجل يجرى وراء القروش ، وأنه قد استغل فرصة حصوله على البذلة فورث عمل « شحاتة أفندى » ، ومن قائل ان الرجل يهوى الأحزان انه يريد جنازة لكى يشيع فيها لطبا ، ومن قائل بأنه أصيب بلوثة ، ومن قائل .. ومن قائل ...

كانت الأقاويل كثيرة ، ولكنها كلها كانت فى حدود الهمس إذ لم يجسر أحد منهم على أن يواجه بها ، وقد مرت الايام فما لبث القوم ان اعتادوا المسألة ، فحفت همساتهم ولم يعد أحد منهم يعنيه الأمر .

ولكن « سيدا » لم يعتد المسألة ، ولم تخف الهمسات التى كانت تطن فى رأسه ، بل ظل الأمر يعنيه ويقض مضجعه .

كانت المسألة كلها بغيضة إلى نفسه ، كان يشتم منها رائحة ذلك الشيء المجهول الكريه الذى يغيب الأحياء ويأخذهم إلى حيث لا رجعة .. كان يجد فى البدلة والصرة ما يذكره « بشحاتة » ، وما يذكره بالغيبة الطويلة والضياح الأبدى ، وما يذكره بفقد الأعزاء فقدا مئوسا منه ، فقدا لا مبرر له ، ولا أمل بعده فى استرجاع المفقود ، لقد كان إذا ما ضاعت منه بلية أو نحلة يعزيه أنه يعرف كيف ضاعت ، وابن ضاعت ، يعزيه احساسه بأنه يستطيع أن يجدها أو يجد غيرها بدلا منها .. أما ذلك الضياح الذى لا يعرف له سببا ، ولا ينتظر عنه تعويضا ، ولا يجد بعده من الضائع بدلا .. فذلك هو الشيء المروع .

كانت الصرة المغلقة تشعر « سيدا » بذلك الضياح .. وكان يخشى منها على أبيه الحبيب ، أبيه الذى كان لا يتصور كيف يمكن أن تكون الدنيا بغيره .. ولكنه مع ذلك لم يملك إلا أن يسكت الهمسات التى تطن فى رأسه ، وساعدت الاستعدادات للفرح والصخب والضجيج على إسكات تلك الهمسات إلى حين ، فأنصرف الصبى عن الصرة المغلقة ، إلى الأعلام المنثورة ، والرمال المفروشة .

الفصل العشائر

على عرش المياه

حلت ليلة الخميس وكان كل شيء على تمام الأبهة . فالسراق قد أقيم من أول الدرب حتى قرب السبيل ، والأعلام تزفرف على مدخله ، والكلوبات تتدلى في أنحائه يلاحقها عفريت قذر أسود بسلم يسنده إلى الأعمدة الخشبية ، ثم يتسلقه إلى سقف السراق ، ويدفع في الكلوبات النفس تلو النفس ويسلكها بآبرة في يده فيزداد وهجا ويشدد ضوءها ، وفي مقدمة السراق جلست فرقة موسيقية ترتدى ثيابا قديمة من ثياب موسيقى الحرس الملكي لا صلة بين مقاسها ولا بفسيا فلما أن يكون الفرد غريفا في حلقته وإما أن يكون محشورا بين أزرارها فهي لا تكاد تلم لحمة .

ولم تكن الآلات الموسيقية لتنزل عن أفواههم إلا لترفع ثانية فقد كانوا يعزفون السلام لكل داخل على قدر حاله فإذا بدا القادم من ذوى المكانة عزف السلام على مهل وبكل مقاطعه ، وإذا كان هلفوتا ضرب السلام سريعا مختصرا . . . وعندما كان يخف الاقبال على السراق كانت تبدأ الفرقة في عزف أحد الأدوار كإفراح القبة أو يا ملكي أنا عبدك . . . ولكن لا يكاد يقبل مدعو حتى تترك الدور وتزف السلام ، ثم تعود ثانية إلى الدور التي كانت تعزفه .

وفي السراق كان يصطف المدعوون . . لا يكاد يبدو بينهم وجه غريب عن الدرب ، ففي أحد الأركان جلس المعلم مسطرين ، وزكى زين ،

والأسطى شيحة البقال ، وعيد الحلاق .. وفى ركن آخر كان يجلس على الحمى ، وجاد صبى الحاجة زمزم ، والحاج إبراهيم المعيرجى ، وعم جاب الله البواب .. وفى ركن ثالث كان يجلس الشيخ عبد الرسول ومعاونوه ، وبين كل هؤلاء كانت تتناثر بضعة وجوه مجهولة .

وفى صدر السراقد أعد موضع التخت وهو أريكة خشبية عالية حفت ببعض مقاعد خالية لللاتية .

وراء السراقد يوجد سراقد المطبخ وهو لا يزيد عن « تزلك » أحاط الفرن المصنوع من حجارة شيدت على وجه السرعة ورسدت فوقها القزانات الضخمة والحلل السوداء « المهبية » ، وأخذت النار تنز من تحتها ، ومن آن آخر يدفع الطباخ بعض الحطب إلى أسفلها .

ومن وراء « التزلك » كن يطل وجه صغير يستبشق بأنه شهيقة طويلا ثم يلتفت وراءه ويخاطب آخر لم يبد وجهه :
— وله يا على .

— عايز إيه يا سيد ؟ .

— أمال امتى حاييتدوا الأكل .. أنا خلاص بطنى نونوت .. أنا بقالى يومين مبطل أكل وبستعد للعشوه دى .

— صبرك شويه .. لما تكمل المعازيم .

— أسمع .. احنا حايوكلونا لوحدنا والا مع الكبار ؟

— أنا عارف .

— عايزين ناكل لوحدنا .. روح قول لآبوك كده .

— أروح أقول له دلوقت ؟ .

— أيوه .. أمال حانتقول له بعد العشا ؟ .

وهم « على » بأن يعدو من وراء سراقد المطبخ إلى داخل السراقد الكبير حيث كان أبوه يرحب بالدعوين وينثر عليهم التحيات .. ولكن « سيد » سرعان ما أمسك بتلابيبه صائحا :

— والا أقول لك .. بلاش دلوقت .. لحسن يجيوا لنا صنف
والا صنفين ويكروتونا ، ولا من درى ولا من شناف .. خلينا ناكل مع
الكبار .. أقل ما فيها نضمن إن مافيش صنف حايسينا .. والا إيه
رايك ؟

— برضك كلام مضبوط .. وعلى العموم احنا نقدر ناكل مرتين .
— ازاي بقى ؟ .

— مره مع الرجاله ومره مع الستات .

— لا والله حدق .. يا سلام يابو علوه .. إيه الأفكار النيره دى ..
انا طول عمرى أقول عليك غبى .. ومخك زى الصرمة القديمه .. لكن
فى الحكايه دى طلعت حدق . بس اسمع ...
— إيه ؟ .

— عليك تشوف لنا مين حياكل الاول .. الستات والا الرجاله ؟ .
— بس كده .

ثم انطلق يعدو وبعد لحظة أقبل عليه بجوار السراقى يقول
هامسا :

— وله يا سيد .. الستات فى الاول .
— طب يالله بينا على فوق .

ودلف الصبيان إلى الداخل وكان الفناء يجمع بالصبيه والبنات ،
وكانت شقة شوشة قد فتحت على مصراعيها وقد أخلت القاعة وحجرة
شوشة ، ووضع بضعه مقاعد فى حجرة شوشة ووضع فى القاعة
منضدة مستديرة قد غطيت بمفرش أبيض ووضع عليها الأطباق
الفارغة .. وكانت « أم آمنة » قابضة فى حجرها جالسة على الشلطة
جلستها التقليديه الحزينه الشارده .

وشق الصبيان طريقهما إلى أعلى وكانت الزغاريد تهبط طويلا
مسترسلة .. وكانت الشقة تعج بالنساء وقد توسط القاعة بضعه

مقاعد وحشيات انتظم عليها عقد العوالم وقد توسطتتهن رئيستهن
« الأسطى إحسان » وهى امرأة يتكون هيكلها من عدة دوائر متوازية :
فوجهها قرص دائرى أبيض متورد أشبه بصينية البطاطس ، وجسدها
دوائر من اللحم الأبيض قد رصت فوق بعضها البعض ، وذراعاها
وساقاها طيات دائرية أحاطت بها الخلاخيل والأساور .

والمرأة بوجه عام جميلة مجلجلة الصوت لا تفتأ صيححتها تنطلق
رنانة بين آونة وأخرى وقد أحاطت بها صبياتها من الفتيات والمغنيات
والراقصات وبجوارهن جلس عجوز ضمر فى حلة سوداء وقد وضع
على ساقيه قاتونا أخذ يتشاغل فى تصليح أوتاره وفى تجربة بعض
التقاسيم .

وبدا « سيد » يخوض وسط اللحوم البيضاء الطرية ويشق طريقه
بين كتل الأرداف المنتخخة والصدر البارزة .. ولحته أم على فصاحت :

— فـين سـتك أم آمنـة يا سيد .. ما طلعتش ليه ؟

— أظن قاعده تحت .

— تحت ! .. يا ندامه ! .. ليه ؟ .. عايزه عزومه ؟ .. دى ست

البيت .. أوعى ياست منك لها .. أما أتزل أجيبها يا نداشه .. وهى
السهره تحلى من غيرها .

— واندفعت أم العروس هابطة إلى أسفل ، وبعد هنيهة كانت

تعود ساجبة العجوز الضريرة من يدها مفسحة لها الطريق بين
المدعوات ثم هيات لها حشية فى أحد الأركان وأجلستها عليها وهى
تفرقها بمظاهر الترحيب والتكريم .

وكان سيد وصاحبه يستكشfan مكان الطعام ويحومان حول المنضدة

المستديرة التى توسطت إحدى الحجرات التى أخليت من أثاثها .

وقال سيد وهو يفرك كفيه رضاء وغبطة :

— بس ، ولا كلمة .. جـلينا لازقـين فى الإوده دى عشان نخش فى

أول دور . وبعدين نطير على تحت نلحق فور .

وانبعث من القاعة صوت نسائي يهتف :

— ما تسمعونا حاجة يا جماعه .. والا حاتفضلوا كده قاعدين

ساكتين .. هو احنا قاعدين فى محزنه والا إيه ؟

وكان الرجاء موجها إلى الأسطى إحسان .. التى انطلق صوتها

الرنان يجيب على الرجاء محاولا اسكات عش النحل الذى يطن فى أرجاء

المكان :

— هو إيه أصله ده يا ستات .. ما تسكتوا بقى عشان نعصرف

نشتغل .. بت يا تفيده جاهزه والا لا ؟

واجابت تفيدة :

— أيوه يا أسطى جاهزه ، بس بدور على الصاجات ، مين فيكو خد

الصاجات . بت يا شربات .. أنا مش مدياهم لك ، عشان تشيلهم

قبل ما تيجى هنا ؟

وصاحت شربات :

— أنا مش خدامة أبوكى عشان أشيلهم لك .. متشيلهمش انت

ليه .. مأسدة فى إيديكى ؟

وتدخلت الرئيسة لحسم الموضوع صائحة فيهما :

— بسر يا بت منك لها .. هوا دا وقت خناق .. اتلمى بلاش

فضايح ، اديها يا بت يا نعيمة الصاجات بتوعك .. يالله بقى المعازيم

زهقوا .

ثم أمسكت بالرق وطرقت عليه طرقتين ثم أخذت تهزه فى يدها

قائلة لصاحب القانون :

— رقص الهوام يا خليل أفندى .

ولم يفتح خليل أفندى فاه ، بل ازداد انحناء على القانون وأخذت

أصابعه تنتقل بسرعة بين أوتاره . وقد أخذ نصفه الأعلى يتحرك ويهتز

مع النغمات .

ونهضت تفيدة تنثنى وتتلوى ملقبة عن جسدها وشاحا كانت تستر

به حلة الرقص ، وافسح لها القوم رحبة وسط القاعة تباشر فيها رقصها .

وقفت الراقصة رافعة كفيها بالصاجات تقرعها بين أصابعها مع اللحن ، وتحرك نصفها السفلى المغطى بشرائيب من التل والخرز وتكشف عن فخذيها البضاوين المثلثين ، وبطنها الطرى المستدير الذى ينطبق عليه الوصف القديم « عجبن خمران » ، أما نصفها الأعلى فقد شد بصديرى لا يكاد يلم صدرها المترجح المكنز .

واخذ القانونجى الضرير يتلاعب بأصابعه ويهز جسده مترنحا ، والراقصة تتبع نفثاته ، مسيطرة على كل قطعة فى جسدها محرقة رديفها وثدييها ووسطها حسب رنين الاوتار ودقات الرق .

وانتهت تقيدة من الرقص ، وانبعث سيد يصفق بيديه طربا وهو يطل بعنقه بين أجساد المعازيم وهمس فى أذن على :
— يا سلام يا على .. البت دى هايله !

ولم يكذ ينتهى الرقص حتى بدت « الرئيسة » وصبيانها الغناء بعد أن نهبت خليل أفندى إلى الدور بقولها « الهؤ النؤ » .

وجرت أصابع خليل أفندى بمطلع الدور أو كما يسمونه فى لغة الموسيقيين « الدولاى » ، ثم علا صوت « الرئيسة » احسان منشدا :
« الهؤ النؤ .. الها النؤ .. تكايدنى ليه مالكش حق » .

وبدا الانشراح على المدعوات ، إذ كان الدور محببا إلى نفوسهن واشتركن فى الغناء مع الموالم مرددات قولهن : « الهؤ النؤ .. » .
وكان سيد منهمكا فى الترديد عندما توقف فجأة ، وغمز ذراع صاحبه قائلا :

— شايف ؟

— شايف إيه !

— شايف اللى طالع على السلم ف

— أبوه شليف .

— طيب يا الله بينا بأه ، بلا الهؤ النؤ ، بلا الها النا .. يا الله بينا

نقعد على التراييزه .. انا قتيل الرز أبو صنيير ، والمهلبيه أم فزدق .

ثم تسلل من القاعة واتجه إلى الحجرة التى بها المنضدة ، وجلس على أحد المقاعد وأجلس عليها بجواره ، وبعد لحظة وصلت الصينية الخشبية التى أبصرها « سيد » صاعدة من السلم ، وأخذ حاملها يرص الصحاف على المنضدة و « سيد » يحملق فى كل طبق ويتلمظ .

ونظر إليه حامل الصينية شزرا وصاح به :

— قوم يا واد انت وهوا من هنا ، يا الله روحوا شوعوا شغلکم .

— شغلنا ! ماهو دا شغلنا .. زى ما انت شغلتك انك ترص

اللى معاك على التراييزه . احنا شغلنا اننا نرص اللى على التراييزه فى بطننا .

ثم صاح متهتها ، ولكن الرجل لم تعجبه النكتة فامسك به من ذراعه وحاول جذبها بعيدا من المنضدة ، ولكن « سيد » تملص من قبضته مهددا بقوله :

— حيلك .. انت فاكركنا مين ؟

— يعنى تبقوا مين !

— ده ابن صاحب البيت .. اخو العروسة لزم .

— وانت تبقي مين ؟

— اخو العريس .

وانبسطت أسارير الرجل وتكلف ابتسامة على شفتيه وأجاب :

— عدم المؤاخذه .. انتفضم بالهنا والشفا .. بس ما تجرحوش

الاطباق إلا لما يتعدوا المعازيم .

— وجب .. لكّ علينا كده .

وانصرف الرجل وأخذ « سيد » بتغزل فى الاطباق سائلا « على »

بين آونة وأخرى عن هذا الصنف أو ذاك .

وأخيرا أقبلت الدفعة الأولى من الأكلات ، واندمج « سيد » بكليته
فى الطعام ، وأكل من الرز ، ومن غيره ، على حد قول جدته « لما وقف
على ضوافره » .

وعندما انتهى من الطعام سحب صاحبه من يده قائلا :

— يا لله بنا على تحت .

— لا يا عم أنا مقدرش أكل لقمة بعد اللي كلته .

— يا أخى مش ضرورى ناكل نقعد كده نمزمز .. ناكل لحمه ..

نفقى الصنير والزبيب الللى فى الرز ، ناكل الفزدق من على وش المهلبه ،
بالله يا عبيط ، دا الواحد ما بيشوفش العزائم إلا كل عشر سنين مره .

وهبط الاثنان إلى أسفل . واشتركا ثانية فى احد ادوار الرجال ،

ولم يكن الدور متعا كاول دور ، ولكنه كان مجرد نائاة كما قال « سيد » .

وبعد الانتهاء من الأكل خرجا إلى السراق .

كان الآلاتية والمغنى قد حضروا ، واتخذوا أماكنهم فى صدر

السراق وبدأت أصولت تصلح الآلات تنبعث متناثرة من هنا وهناك ،

وكان المغنى — الأستاذ عبده زياده — قد ارتدى الحلة السوداء الرسمية

الشبيهة بحلة المرحوم « شحاتة أفندى » ، وكان الرجل مطبق الوجه

مجعده ، « مقروح الجفن مسهده » .. نتيجة لرمد مزمن ، وكان الرجل

يتلمظ ويحرك لسانه بين شذقيه كأنه يمص شيئا ويسلك زوره متحنحا

بين آونة وأخرى .

وانبعثت الأصوات من أنحاء السراق محيية « الأستاذ عبده »

سائلة إياه بعض الأوار ، وكان هو يرد التحيات رافعا كلتا يديه إلى

أعلى طربوشه على طريقة « بارك الله فيكم » ويهز رأسه كلما طلب

منه أن يغنى دورا قاتلا :

— حاضر .. حاضر .

وأخيرا ، وبعد طول « تنقنة » من الآلاتية وتمتمة من المطرب ..

بدأ الغناء .. منشدا دور عبد الحى حلمى : « متع حياتك بالأحباب » ..
 بالطريقة التوقيعية المنتطعة البطيئة مثالا :

— مت .. تع .. حيا .. تك .. حيا .. تك .. بلا .. اح ..
 باب .. آه .. آه .. آه .. حبك ، (ثم كلمة مدغومة غير مفهومة ،
 اغلب الظن أنها ، وصل ، أو هجر ، أو غدر ، أو شيء على هذا
 الوزن) .

واندفع المستمعون يضجون بالصراخ ، لست تدري من فرط الطرب
 .. أم من مجرد الإيحاء ، أم هى مسألة واجب كان لابد أن يؤديه ،
 إذ كان على المطرب الغناء ، وعلى المستمعين الصياح .

على أية حال لقد أحدث صياحهم اثره فى المغنى وفى السراق
 كله ، إذ سرت فيه موجة طرب وجذل ، ووجد السرور صداه فى كل
 نفس .

وعاد الأستاذ عبده يهتز ويتلوى ويقطع فى الغناء ، ويتلوى
 منشدا : « مت ، تع ، حيا ، تك ، حيا ، تك » .

واستمر التجاوب بين المغنى والمستمعين ، واستمرت موجة
 السرور تغمر السراق حتى سمع المدعوون قهقهة عالية تنطلق من مدخل
 السراق فتغطى على صوت المغنى والآلات ، ثم أعقبها صيحة عالية :
 — هاى ، ماتعبرونا يا خلائق .

وتوقف الأستاذ عبده عن الغناء وتلفت المستمعون إلى ناحية الصوت
 وقد تملكهم الوجود وبدأ على وجوههم الدهش فوجدوا المعلم دنجل يقف
 بباب السراق وقد أمسك بشوخته وعلت شفته ابتسامة ساخرة .
 وهمس المعلم عز فى صوت قلق :

— الظاهر انه شارب حبتين .. رينا يفوت الليله دى على خير .
 وعاد المعلم دنجل يصيح :

— إيه مالكم كده سلكتين زى اللى نزل عليكم سهم الله ، مفيش

— وله يا عبده .. أنت بقيت صاحب تخت ؟ ! . والله عال ..
الله يرحم الرق اللي كنت تقعد تهز فيه طول الليلة .. طب ما اعمل انا
كمان مغنى .. اشمعنى انت .. هو انت احسن منى .. هع .. قوم
يا واد خلينى اتعد .. قوم .

ونظر المغنى حوله مستنجد .. متسائلا فى نظرات مذعورة هل
بخلى له الحل ام ان هناك منقذا بين الرجال .

ولم يطق الخشت صبرا واندفع كالقنبلة ، وقد أخرج من جيبه مديّة
طويلة وهو يهدر صائحا :

— سيونى على ابن الكلب ده .. انا افتح كرشه .. هو مش عارف
مين صاحب الفرع .. سيونى بس .

ولكن شوشة اعترض طريقه مرة ثانية .. وأطبق على ذراعه بقوة
.. وصاح :

— اسكت انت يا معلم خشت .. دخل المطوه فى جيبك ماتضيعش
نفسك فى شربة ميه .. سيبولى إنا حاعرف اريبه .

— سيونى يا شوشه . سيونى بقولك .

وصاح دنجل :

— مين المره اللي بيزعق ده .. مين اللي ..

ولكنه لم يتم قوله فقد خطف شوشة أحد المقاعد ورفعته بسرعة
البرق ثم قذف به فى وجه دنجل فانطلق كالصاروخ وأصابته حافته
جبين الرجل فمزق منه الدم كالصنبور .

كانت الضربة مفاجئة .. فقد كانت المعركة متوقعة بين « الخشت »
ودنجل ، وكان شوشة لين الالفاظ مسالم الحديث ولم يكن يبدو عليه قط
أنه هو الذى سيكون البادى بالقتال .

وقبل أن يغيق دنجل من وقع المفاجأة ، وقبل أن ينتهى من تحسس
جبينه واكتشاف الدماء السائلة اندفع « شوشة » هاجما عليه فأسرع
الرجل بتلقيه بشوخته محاولا أن يهوى بها على رأسه ، ولكن « شوشة »

تلقاها بيسراه ، ثم ناوله يميناه لكمة تشديدة إلى أعلى بطن خصمه
أو ما يسمونه « فم المعدة » فصرخ صرخة مكتومة وانحنى ممسكا بطنه
وقد بدا عليه ألم شديد .

وتلقى شوشة انحناعته بضربة سريعة برأسه فى وجهه .
وبدا على الرجل التسليم .. ولم يعد هناك شك فى انه انتهى ..
ولكن أحد أنصاره أسرع فهوى بشوخته على ظهر شوشة .. ثم
أسرع آخر فحطم أحد الكلويات بمقعد من المقاعد وبدأ الضرب والتحطيم
والقتال . وسرت موجة الذعر فى السرادق ، وعلا الصراخ ، واختلط
الحابل بالنابل وما لبث الفزع حتى سرى إلى مجمع النساء فاستبدلت
بالزغاريد ولولة وصراخا .

وانطلقت الصفافير وأقبل الشرطة .. ويعد لحظات أقبلت عربات
الاسعاف يتقدمها رنين الجرس .

وأخيرا هدأت المعركة .. وخرجت العربة تحمل المعلم دنجل وأحد
أنصاره .. وانصرف المدعوون والتخت والعوالم .. وأخذ الفراش
يحل السرادق ويجمع المقاعد .. ثم ساد السكون وعاد كل شيء إلى
ما كان عليه .. كان لم يكن هناك فرح ولا مغنى ولا معركة .

وعلى الفراش جلس شوشة فى حجرته ولم يكن يتطلع إلى السماء
من النافذة كعادته بل كان منهمكا فى تدليك مرفقه بالزيت من أثر الضربة
التي تلقاها من شومة دنجل ، وأحس بوقع أقدام تتسلل إليه فى الظلمة
والتفت فوجد ابنة سيد يقترب منه فلما وصل إليه رفع ذراعيه الصغيرتين
وأحاط جسده بهما وأسند رأسه عليه قائلا فى صوت تملؤه الدموع :

— ايدك وجعتك يابا .. أنا حسيت زى اما تكون الشومة تازله
علىّ وهجمت على الراجل وعضيته حته عضه .

وضحك شوشة ورفع سيده ووضع على حجره وضمه إليه وقبله

قائلا :

— لكن مش علقه كويسه ؟ .

— كويسه وبس ؟ .. دانت دشدشته .. أنا ما كنتش فاكرا انك
فتوه بالشكل ده .. أنا كان نفسى أشوفك بتتخاف .. دانت خبطته
خبطه بالكرسى طلع من إيدك زى القنبلة .. والا الروسيه اللى ضربتها
له كانت مدهشه .

وريت شوثة على ظهر ابنه وقال :

— روح بقى نام دلوقت .. لحسن اتأخرت فى النوم .
— أصل بكرة بطاله .

— معملش .. برضك روح نام .. كفايه سهر .

وذهب « سيد » للنوم فى أحضان جدته .. وجلس شوثة برهة
ثم ما لبث حتى رقد فى فراشه وراح فى سبات عميق .

استيقظ شوثة فى الصباح على صوت طرقات على الباب وكان
قد تعود أن يهب نفسه بعض الراحة يوم الجمعة فلا يستيقظ مبكرا
كمعاده ، وزادته السهرة ومعركة الليلة رغبة فى الاستمتاع بنومة طويلة
واستيقاظ متأخر ، ولذا كانت اشمة الشمس تهبط من النافذة نتيه
والضوء يتسرب قويا عندهما ذهب لفتح الباب .

ووجد أمامه رجلا يرتدى حلة صفراء رسمية أشبه بحلة السعاة ،
ولم يكذبصره الرجل حتى سألته :

— هوا دا بيت المعلم شوثة السقا ؟

— أيوه .

— وهوه فين ؟

— أنا المعلم شوثة .. يلزم خدمه .

— صباح الخير يا معلم .

— صباح النور .. أهلا وسهلا .

— أهلا بك .. أنا جاى من الشركه .. شركة اليه .

— خير ان شاء الله .. فيه حاجه ؟

— عايزينك تكلم فى المكتب بتاع الشركه فى شارع الفجالة .

— عشان إيه ؟ . ما تعرفش ؟

— الظاهر انهم عايزين يسلموك الحنفية بتاعة الحسينية ، اصل

ببنى وبينك الراجل « دنجل » ... باين عليه ابن كلب ، ماسترشى ..

جت فيه شكاوى كتير .. كل يوم ما بيفتحش الحنفية غير الضهر ..

ده غير الخنصره اللي بيخنصرها من الإيراد .. الظاهر انهم ضبطوا

عليه حاجه .. والا لقوه بيتلاعب .. الله أعلم . أهو كلام بيقولوه ..

ان بعض الظن اثم .. وآخرة المتبه ، والا زى ما بيقولوا بالنحوى

وثالثه الاثنى .. النهارده مارحش الحنفية خالص ، وبيقولوا انه بات

فى الاسفاف بعد خنائة أترقع فيها علقه جامده ، مين يعرف ..

أهو كلام .

— لا .. ده بقى مش كلام .. ده صحيح .. أنا اللي مبينه فى

الاسعاف بايدى دى .

— طيب اديهالى أبوسها .. تسلم ايدك يا معلم شوشه .. كان

مثرعن أوى .. ومش حاطط واطى .. مره جه المكتب وبكلمه بالفوق ،

راح مهزائى قدام الناس ، وكان حايعتدى على بالضرب ، لولا ان أنا

أخدتها من قصيرها .. لما لقيتته قدامى زى الفحل .

— كنت تعالى اتفرج عليه امبارح .. وهو مفرش فى الأرض

بالاربعة زى القبتل .

— والله براوه عليك ، يا الله بينا لحسن الوقت متأخر .

— حالا . اغير الجلابيه واحط البلغه فى رجلى وألف اللاسه على

راسى وأجبلك .. خش اتعد استريح ، خش اشرب لك فنجان قهوه .

— لا .. لا .. مفيش وقت ، بس البس انت قوام .

ودخل شوشة مسرعا وارتنى ملابس فى عجلة . ولم يكن هناك

ثبك فى أن الطرب قد استخف الرجل الرزين ، وأن فرحته بالمنصب

الرفيع ، كانت أعظم من أن يستطيع اخفاءها .

لقد كان يعتبر الحنفية مقره الطبيعى وكان يرى فى نفسه الورث
الشرعى لعرش المياه فى حى الحسينية .

كان الكرسي مطمعه ومنتهى أمله فلما خلا مكانه ووضع فيه « دنجل »
أحس أنه سلب حقه ، وأن الظلم قد حاق به ، ولكنه لم يملك ردا ولم
يستطع سوى الصبر والاستكانة حتى يرفع الله عنه الظلم ويرد له
الحق .

وهكذا لم يكد ينبئه الرجل بأنه مذ اتى ليستدعيه لتولى العرش ،
وتسلم مفاتيح خزائن المياه ، حتى فأخذ الفرح بنفسه ، ولم تستطع
تدريته على ضبط أعصابه والتحكم فى مشاعره أن تطوى موجة الفرح
الظاهرة .

وعندما تم ارتداء ملابسه دخل حجرة « أم آمنة » فوجدها راكعة
تتمتم ببعض الدعوات . ووجد سيدا ما زال مستغرقا فى نومه .

وصاح بأمر آمنة فى جذل :

— صباح الخير يا حابه ، هوا سيد لسه ماصحيش ؟

وتقلب سيد فى فراشه وفتح عينيه ، وتمطى ثم أغمض عينيه مرة
أخرى ، وأجابت « أم آمنة » وهى تنهض واقفة :

— خير عليك ياخويا ، خليه نائم ، مادام ماوراهش كتاب .

— طيب أنا خارج ، رايح الشركه .

— شركة إيه ؟

— شركة المياه .

— ليه كفى الله الشر ؟

— ولا شر ولا حابه ، أنا رايح استلم مفاتيح الحنفية .

— حنفية إيه ؟

— حنفية المياه ، خلاص حاستلم الكشك بدل دنجل .

— يا خويا ألف نهار أبيض ، مبارك ، ألف مبارك ، ربنا تاب عليك

من ألف والدوران وشيل القرب .

- ومرة ثانية فتح سيد عينية وهو ما زال راقدا ، ثم تساءل في دهشة :
- فيه إيه ! ربنا تاب عليك من شيل القرب ليه !
- وضحك شوشة وأجاب :
- خلاص بقيت من أصحاب الاكتشاك .
- وقفز سيد من فراشه وصاح في دهشة :
- بالذمة صحيح .. حانتقد في الكشك بدل دنجل ؟
- أمال .. احنا شويه في الحته والا إيه !
- ولم يجب سيد فقد اندفع يصفق بيديه ويطوف بالحجرة راقصا وهو بصيح :
- ول .. يا ول .. ول .. يا ول .
- ثم التفت إلى أبيه متسائلا :
- ودنجل راح فين ؟
- في الاسعاف .. العلقه بتاعة ابارج جابت خبره .
- وتمتمت أم آمنة :
- عشان ما يبقاش يتعدى على الناس ، ويسود ليالهم ربنا ما يسيبش ظالم أبدا .
- وخرج شوشة إلى الرجل « مندوب الشركة » ، وسار الاثنان عابرين درب القط إلى درب عجور . وفي الطريق سال شوشة :
- ماتعرفناش بالاسم الكريم .
- محسوبك خليل .. محمد خليل الشنواني .
- أهلا وسهلا .. محسوبك شوشه الدنك .
- تشرفنا يا معلم شوشه .. انت حضرت التأمين معاك ؟
- التأمين ؟ أي والله فكرتني .. دانا نامى الحكايه دى خالص .
- هو اطلع كام التأمين ؟
- اظن حوالى ميه وخمسين قرش .
- كده خبط لزق ؟

— أهو كده تقريبا .

وتمهل شوشة فى سيره متفكرا .. هذه مسأله لم يعمل لها حسابا ..
مائة وخمسون قرشا دفعة واحدة .. من أين له بهذا المبلغ وكل ما يملكه
فى جيبه لا يزيد على الثلاثين قرشا . لو أن الرجل أتى إليه بالأمس أو
أول أمس لكان فى استطاعته دفعها بسهولة ، فقد استطاع أن يقتصد
من أجر الجنازات ما يقرب من المائة قرش ، ولكنه دفعها بالأمس لشراء
قرب جديدة ولتصليح العربة .

وكان قد وصل فى سيره إلى دكان « المعلم خشت » ووجد الرجل قد
أخذ فى تعليق اللحوم فى واجهة الحانوت ، ولم يكد يراه حتى قذفه بتحية
عالية صارخة :

— ازيك يا معلم شوشه .. صباح الخير .. على نين كده .
شايفك لابس ومتقمع ؟

وهنا وجد شوشة أنه لن يحل مشكلته سوى المعلم « خشت » ..
انه رجل كريم خير ، ولن يبخل عليه بالمائة وخمسين قرشا .. ما دام
يملكها ، ولكن أترأه حقا يملكها أم ترأه قد استنفد كل ما معه فى فرح
الأمس ، وأصبح « على الحديدية ؟ » .

أجل .. أجل .. أن من المستبعد أن يكون المعلم خشت مالكا فى
مثل هذه « الصباحية » لمائة وخمسين قرشا .. أو حتى لمائة وخمسين
مليما . أن سوء الحظ يابى إلا التدخل . أفلم يكن من الخير أن تتحقق
الأمنية منذ بضعة أيام قبل الانتهاء من الفرع ؟ ولكن كيف كان يمكن
حدوثها قبل الفرع ، ودنجل لم يذهب إلى الاسعاف إلا نتيجة الفرع ،
وتهجمه على الفرع ، وضربه وعراكه مع أهل الحى ؟
على أية حال .. لا داعى لكل هذا التشاؤم .. ليحرب سؤاله ..

نن يدري .

واتجه إلى الدكان معتذرا « لخليل » بقوله :

— إذذك يا عم خليل أفندى .. دقيقه واحده .

— احنا مستعجلين أوى يا معلم شوشه ، مافيش وقت .
 — حالا ، دى كلمه واجده ، أصلها حاجه مهمه أوى .
 ثم أسرع إلى « المعلم خشت » فتلقاه الرجل فى شئ من الدهش
 قائلا :

— إيه الحكايه ؟ مالك مطقم كده ليه ؟
 — أصلى رايح الشركه .
 — ليه ؟
 — معتولى دلوقت عشان استلم الحنفية بدال دنجل .
 وتلقى « المعلم خشت » الخبر بتصفيقه من يده — وصاح فرحا :
 — حلو .. اهو كده الشغل والا بلاش .. أمال . ادى العيش
 لخيازينه .. مش يجيبوا مطيباتى يشغلوه سقا ، مبروك يا معلم ، الف
 مبروك .

— كتر خيرك يا حاج .. بس كان فيه حكايه كده .
 — إيه ؟ فيه إيه ؟
 — والله طلب مكسوف أطلبه منك .
 — متولش كده عيب .. احنا أهل .. رقبتي ..
 — الحكايه لازم لها مايه وخمسين قرش تأمين .. ما معيش منهم
 غير ريال .

ووجم « المعلم خشت » برهة ورفع يده وأخذ يعصر رأسه ثم ضرب
 جبينه بكفه وتهللت أساريره وهتف قائلا :
 — بس ولا كلمه .. فرجت .. برضك تقدر تحلها .. خد ..
 ادى مايه وخمسين قرش معايه كنت شايهم للفراش .. لكن خد ،
 فوز بيهم انت ، ولما يجى الفراش نبقى يفرجها رينا ، الحمد لله .. أنا كنت
 فاكرا مامعيش ولا ملهم ، وعز على أن ارد طلبك ، ولكن الحمد لله رينا
 سترها .

ثم مد يده فدفعها فى حافظة نقوده وأخرج المائة وخمسين قرشا

واعطاها « لشوشة » ، وتردد « شوشة » فى اخذها قائلا فى كثير من الخجل :

— لكن يا معلم حاتعمل إيه مع الفراش ؟

— خد يا شيخ خد ، يحلها سيدك .. يالله روح استلم شفلك ، احنا ديكى الساعه لما نشوفك قاعد على الحنفية ورينا يتوب عليك م اللف والمرطه .

— كتر خيرك يا معلم .. رينا مايحرمناش منك ابدا ، رينا يقدرنا على رد جميلك .

واسرع « شوشة » إلى « خليل أفندى » وسارا حاثين الخطا إلى مكتب الشركة بالفجالة حيث أنهى الاجراءات الشكليه ، ثم عاد مسرعا إلى الحنفية فوجد الزبائن متكاثرين حولها فى شبه مظاهرة وهم يتصايحون شاكين متبرمين ، ولم يكادوا يبصرون « شوشة » فى جلبابه النظيف ولاسته وبلغته بلا عربة ولا قرب حتى تساءلوا فى دهش :

— إيه الحكايه ؟ مالك كفى الله الشر ؟ عيان والا إيه ؟
ثم قال أحدهم :

— شايف الرجل النصاب لغاية دلوقت ماجاش !
وقال آخر :

— لازم بايت فى السجن .
وقال ثالث :

— والا فى الاسعاف .
وقال رابع :

— والا فى بيت سر .
وقال خامس :

— والا فى غرزه .

ولم يجب « شوشة » بل تقدم فى خطوات ثابتة متزنة ووجهه عليه سياء الطرب قائلا فى لهجة حازمة :

— وسع منك له .. خلينا نشوف شغلنا .

فأجاب صوت ساخر :

— شغلك إيه يا عم ؟ إذا كان صاحب الأمر لسه ما صحيحش م النوم

.. تعال اركن جنبنا هنا .

ولكن « شوشة » استمر فى سيره حتى وصل إلى الحنفية وارتقى السلم إلى المقعد خلفها ، ثم جلس فى تؤدة وفتح الحنفية فائلا فى لهجة أمرة :

— اتقوا ورا بعض صف واحد .. السنتات قدام والرجاله ورا ..

مش عايزين زحمه ومش عايز زيطة . اللي حايطلع من الصف مش حاصر له إلا فى الآخر .

وبهت القوم .. ثم ما لبثوا حتى تهلت أساريهم وصاح أحدهم :

— انت حاتقعد هنا على طول يا معلم شوشة ؟

— إن شاء الله .

فهتف صائحا :

— يعيش المعلم شوشة .

وردد الجمع :

— يعيش المعلم شوشة .

ثم تعالت الصيحات من هنا وهناك : « مبارك يا معلم » . « بركه

اللى غار فى داهيه » ، « الحمد لله » ، « ألف نهار أبيض » .

وهكذا تربع « شوشة » على العرش ، واستوى على أريكة المياه ، وبلغ أمنيته الكبرى ، وأضحى المانع المانع للمياه فى حى الحسينية ، وكماه الله شر اللف فى الدروب والجري فى الحوارى ، واستقر به المقام ، واطمأن به الحال .

وكان حريا والأمر كذلك أن يقطع عن عمله الآخر ، وهو السير فى الجنازات وتشيع الموتى وحمل القمام وزياره القبور ، فما كان مركزه الجديد يلائم تلك « الرمطة والبهذلة » وما عادت به من حاجة إلى المزيد من النقود التى يتقاضاها من الجنازات بعد أن زاد دخله زيادة محسوسة .

ولكنه مع ذلك — ولدهشة كل من حوله — استمر فى عمله الإضافى المشئوم ، وكان لا يكاد يفلق الصنبور ويعود إلى الدار حتى يخرج مرة ثانية حاملا صرة الشغل متوجها إلى قهوة الأندية .. حيث يعينه الحاج سرور فى الجنازات المطلوبة .

لقد اعتاد شوشة عمله فى الجنازات ، وسره أن ينتصر على المخاوف القديمة والرعبة الموهومة ، وسره أن يتحقق قول شحاتة وأن يجد المسألة بعد أن جردت مما علق بها من أوهام .. قد أضحت هيئة تافهة ليس بها ما يخيف أو يروع .

لقد سره أن ينتصر على الموت ، وأن يصبح كشحاتة . رجلا شجاعا .. أزيلت عن عينيه غشاوة الوهم .. فنفذ ببصيرته إلى الحقيقة العارية .. وكشف عن روعته الزائفة وروض نفسه على قبوله ، كأمر طبيعى .

لقد بات يحتقى الموت ، ويحتقر — أكثر منه — الحياة .

وأثار استمراره على السير فى الجنازات ، أقاويل الناس ولغظهم ، ولكنها — كما كانت فى المرة السابقة عند بدايته العمل مجرد أقاويل ولغظ ما لبثت حتى بددتها الأيام وذرتها ربح النسيان .

امرؤ واحد .. هو الذى لم تستطع الأيام أن تبدد من ذهنه اثر العمل ، بل زاده عمقا وتأثيرا .

كان سيد يكره تلك المشاوير الجنائزية ، ويكره أن يبصر أباه خارجا بالصرة انماها ، ولكنه كان يتلمس بالحاجة عذرا لأبيه ، وينتظر بفارغ الصبر يوم يجلس أبيه فى الكشك فيغنيه الله عن ذلك العمل الرهيب ويصبح فى غير حاجة إلى دريهمات المشئومة .

فلما من الله عليهم بمطلب العمر وحقق لهم الأمنية المنشودة .. طارت
نفسه فرحا ، وحمد الله أن خلصهم من الجنازات والاموات . ومن كل
ما يتبعها من أقاويل الناس وسخریات الصبية وغمزهم ولزهم ، وذهب
إلى حجرة الصحارة فركل الصرة بقدمه ثم قذف بها داخل الصحارة
قائلا فى شماته :

— ربنا تاب علينا منك .

ولكنه لم يتمتع بفرحته طويلا .. فلشد ما أذهله أن يجد أباه فى اليوم
التالى قد حملها فى يده وخرج كعادته بعد الظهر .

وهم بالعدو وراءه لاستبقائه وتأنيه ، ولكنه كان يعرف أباه ..
يغرف حزمه واصراره وصرامته ، فكبت غيظه فى صدره وخرج يتسلى
باللعب مع أترابه بجوار السبيل .

ومرت الأيام وعادت العجلة تدور دورتها الطبيعية .. شوشة
وراء الصنبور صباحا ، ووراء الموتى بعد الظهر ، وسيد فى الكتاب
صباحا وفى لعبه حتى المساء ، وأم آمنة تابعة فى مكانها مخنية الظهر
مطاطاة الرأس مسندة ذقنها إلى خدها .

وفى ذات صباح خرج سيد كعادته إلى الكتاب وقد أمسك بلوح من
الصفیح .. وسار بجوار على الخشت يتبادلان الحديث فى شتى توافه
الأمور عن الشيخ عبد الرسول وجرادة والبلى والنحلة ، والكرة الشراب
وإبراهيم المعرجى وصدق .. الخ ..

وعندما وصلا إلى بائع البليلة توقف على وقال لسيد :

— انت عليك الدور النهارده .

— ازای بقى ؟

— أنا مش موكلك امبارح ؟

— وانا مش مديلك عشرين بليه امبارح ؟

— مانا خسرتهم ، وخذتهم انت تانى .

— وانا مالى . أهم محبوبيين عليك . هو أنا كمان مسئول عن خسارتك . حد قال لك اللعب واخسر ؟

— يعنى مش حاتوكلنا ؟

— أنا مستعد اوكلك لو كان معايا فلوس .. لكن ما معيش ، وكلنا انت النهارده وانا لك على اوكلك بكره وبعده .

— لا يا عم لا توكلني ولا اوكلك .. أنا رايح أكل لوحدى .

— طب سلفنى نكله ؟

— مايسلفش حد .

— طب هات تمن البلى ؟

— مش جاديك حاجة .

— يعنى عافيه !

— أيوه عافيه .

ومد « سيد » يده فأمسك بتلابيب « على » ومد « على » يده فأمسك بتلابيب « سيد » ، وهمت المعركة بأن تدور لولا أن مر بهما « المعلم على الحمى » وتدخل بينهما مخلصا كل منهما من قبضة أخيه ، زاجرا إياهما بقوله :

— يا واد عيب منك له .. دانتو ولاد حته وجيران ، ميصحش .

وتخلص « على » من المعركة واتجه إلى بائع البلبلة ، واتخذ سيد طريقته إلى الكتاب وحيدا وهو يحرق ارم الغيظ بعد أن حرم من طبق البلبلة دون صاحبه .

وعندما ذهب « على » إلى الكتاب بعد أن انتهى من طبق البلبلة واجتاز الباب إلى الفناء ، وجد سيدا واقفا أسفل النخلة ، وقد التف حوله ثلة من الصبية له يكادوا يبصرونه حتى أخذوا فى التهامس ، وتعالّت من بعضهم ضحكات عالية .

واقترب « على » فى حذر وهو يتوجس خيفة شاعرا أن مكيدة قد

دبرت له وأن خطرا يوشك أن يحرق به ، فلم يكذب يصر إليهم حتى
أحاطوا به وأخذوا يصفقون بأيديهم وينشدون ما يشبه اللحن قائلين :

على يا على يا بتساع الزيت
وابوك يا على ركبته عقرت
وامك يا على ماشيه ع الحيط
على يا على يا بتساع الزيت

واحر وجه « على » وبدت عليه سيماء الغضب وهو يرى نفسه
محاطا بتلك الحملة الساخرة التي قادها ضده سيد نتيجة لرفضه مشاركته
البليدة .

واستمر الصبية في مظاهرتهم المجانة الصاخبة حتى دق الجرس
ودخلوا الفصول ووراءهم « على » باكي العين .

ومرت الحصة تلو الحصة ثم حلت فسحة الظهر وتفرق الصبية
في أرجاء الفناء ، ولكن البعض كانوا يحيطون بعلى وقد أخذوا
يتهايمسون ، وبدأ لسيد أن هناك مؤامرة تدبر للرد على مؤامرة الصباح
وأن عليا أخذ يجبع حوله الانصار . . فقد كانت أصابع موز الحلوى
وبراغيت الست تفرق بكيات وفيرة دفع فيها كل ما معه من ملايم .

ولم تمض هنية حتى تكتلت الأنصار حول « على » ، ووجد سيد
نفسه وحيدا وأخذ يرقب الصبية وهم يتهايمسون ويتصايحون وحاول
جهده أن يستنتج ماذا يمكن أن يكيدوا له ، حتى يستعد لأجراءات
مضادة .

ومجأة بدأت المؤامرة ، فقد انتشر الصبية وأحرقوا به كما سبق أن
أحرقوا بخصمه ، ثم بدعوا نشيدهم الساخر ، بنغمة مختلفة ، ولفظ
مختلف قائلين :

ابوك السقا مات
بيمشي في الجنازات

ويوصل الأموات أبوك السقا مات

وفوجيء سيد بأقوال الصبية مفاجأة شديدة . فقد مست منه موضعا
شديد الحساسية ، ونكأت فيه أوجع الجروح .

لم يأخذ « سيد » كلام الصبية على أنه لهو ومزاح .. وقول
طائش ماجن .. بل انطبعت في ذهنه في لمح البرق صورة أبيه يحمل
الصره ، ثم صورته وهو يرتدى الحلة المشنومة ويسير أمام النعوش
ويصاحب الموتى ويجول بين القبور ثم صورته وهو مستلق ، كما استلقى
شحاته من قبل .. بلا حراك .. ولا أمل في حراك .. بل جثة هالكة
مفقودة ، لا تلبث حتى توضع في صندوق وتحمل على الأعناق ثم
تغيب في باطن الأرض .

ومن ؟ . من الذي يحدث له كل هذا ؟

أبوه الحنون الطيب الحازم المروء القوي .. الذي حطم الرجل
الفحل واطاح به إلى الأسعاف !

أبوه !! نموذج الأحياء ، بل هو نفسه الحياة ، وبغيره لا تكون
حياة .. يضع منه كما تضع البلية التافهة أو الكرة القديسة . يضع
منه أبدا . يضع نهائيا . بلا أي أمل في عودة .

أبوه نفسه ، يغيب في باطن الأرض ، ويدفن كالقمامة والديدان !
لعنة الله عليهم أجمعين .

انه لا يابه للشتم والسخرات والمزح .. بل هو نفسه أطول الصبية
لسانا وأقذعهم سبابا ، ولكن السباب شيء ، وهذه الأقوال المروعة شيء
آخر .

لو أنهم قالوا له « يلعن أبوك » أو حتى « يا ابن الكلب » أو أنهم
سخرُوا منه بأقسي ما يشاعون من الهزء والسخرية ، لاستطاع الاحتمال
.. فهو قد تعود منهم الشتم والسخرية ، وهو أيضا البادي بالشتيمة ،
والضارب مضروب ، والشتم مشتوم .

اما ان يقولوا على ابيه مثل هذا القول المروع ، الذى يبدو كأن له صلة كبيرة بالواقع ، وأنه محتمل الحدوث .. فهذا ما لم يستطع عليه صبرا .

واندفع « سيد » باكيا واقبل على الصبية يمعن فيهم ضربا ، ولكن الخبثاء امعنوا فى الضحك والصياح ، وكلما ازداد هياجه ازداد مجونهم ومرحهم ، حتى كل من الصياح والضرب والهياج والبكاء ، فعاد إلى فصله وجلس على تختته وحيدا يبكى بهرارة .

وكان هياجه وبكاؤه ابعث للصبية على التمسك بالأنشودة والاصرار على ترديدها ، والامعان فيها ، فلو أن « سيدا » قابلها ببرود وهدوء ، لملوا منها سراحا ، ولكن انتاجها فيه هذا الاثر الباهر السريع ، جعلهم أكثر تشبها بها وجعله العويثهم كما يتخذون من الأبله الهائج والمجنون المنفذ ، موضع تسلية ووسيلة لهو .

وعندما انتهت الدراسة ، عاد « سيد » إلى البيت مشيعا .. بالأنشودة إياها ، وهو يعدو وراء الصبية ويتذفهم بالحجارة ويكل ما تصل إليه يده .. وفى البيت أمضى بقية اليوم حزينا مهموما ، ولم يحاول الخروج للعب .

وفى اليوم التالى تكرر الأمر ، وعاد « سيد » إلى البيت أشد حزنا ، وأكثر غما .. ولم يحاول الخروج للعب ، حتى دهشت « أم آمنة » وصاحت به متسائلة فى انزعاج :

— مالك يا سيد .. انت عيان ؟

— لا .

— أمال مالك ؟ تعالى ورينى أورتك لما أجسها .

— قلت لك مش عيان ولا حاجه .

— أمال ما بتخرجش تلعب ليه مع العيال ؟

— عشان عندنا سوره لازم أحفظها .

— طيب يا خويا ربنا يهديك وينجحك .. القرآن مفيش أحسن منه .
وكان اليوم يوم خميس ، ولم يكن أبوه فى البيت ، وكان واثقا
أنه قد خرج إلى احدى الجنازات ، إذ لم يجد للصرة المنحوسة اثرا فى
حجرة الصحارة .

وقبيل المغرب عاد أبوه ، وقد تحقق ظنه .. فقد دخل الرجل من
باب البيت .. ليس حاملا الصرة فقط .. بل — شرا من ذلك — مرتديا
الحلة نفسها ، وواضعا الجلاب تحت ابطه .

ولم يحتمل « سيد » أن يراه بمنظره هذا ، فأوى إلى مضجعه
ووضع رأسه فى الوسادة واندفع فى البكاء .

وفى مخبئه سمع صوت أبيه يسأل « أم آمنة » :

— أمال سيد فمين .. مارجعشنى من بره ؟

— دا جوه عندك ، مخرجش أبدا .

— ليه .. كنى الله الشر ؟

— آل بيحفص سوره .

— ما شاء الله ، ربنا يهديه .

ثم علا صوت أبيه متناديا :

— سيد .. سيد .

واسرع « سيد » بكفكة دمه ومسح أنفه بكم جلابيه ، ثم أجاب
على أبيه :

— أبوه بابا .

— انت فمين ؟ تعالى .

— حاضر بابا .

وتريث « سيد » برهة ريثما يذهب عنه أثر البكاء ، ثم حمل اللوح
معه وذهب إلى حجرة أبيه .

وفى الحجرة وقف يرقب الرجل ، وهو يتزعج عنه ملابس الاموات ،
وعندما رآه الرجل قال مازحا :

— هيه يا شيخ سيد .. حفظت السوره .. ربنا يجعلنا من
بركاتك ، ادعى لنا « يا شيخ سيد » .

ودعا الصبى بحرارة من صميم قلبه :

— ربنا يخليك يا ابا ، ربنا يطول عمرك .

ونظر الأب إلى عيني ابنه .. فلمح على الضوء القريب الباهت
المتسلل من النافذة احمرارا ينبىء عن آثار يكاء .. فتساءل فى دهش :

— ايه ده ؟ . انت كنت بتعيط ؟

— لا يا ابا .. دا اصل عيني انطرفت ودعكتها .

وارتدى الأب جلبابه ، ثم جلس على حرف الفراش ، وقال « لسيد »
مبتاسطا :

— حفظت سورة إيه ؟

— عم .

— انت لسه فى جزء عم ؟

— خلاص ختمناه النهارده ، وحاتمك فى تبارك .

— طب اسمع بقى يا عم .. ما دام ختمت جزء عم .. إيه رأيك

لو نخرج نتفصح سوا .

وبدا البشر على وجه الصبى وتهللت أساريره وتبددت منه سحب

الهم التى أثقلت نفسه وصاح فى فرحة ظاهرة :

— بحق وحقيق ؟

— أمال .

— حانتفصح مين ؟

— تروح القهوه معايا .

— ودى نسحه دى .. تقضل انت تلعب فى طاوله .. وأنا قاعد

انثى .. لا يا عم ما تتفغنئش الفسحه دى .

— أمال تروح مين ؟

— نروح التياترو اللى اتنصب فى الحته الفاضيه اللى تدام البوابه .. بيقولوا فيه حاجات هايله .

وصبت الأب برهة وبدت عليه سيما التفكير كأنها يزن قول ابنه
ثم هتف فجأة :

— اسمع يا سيد .. إيه رأيك لو نروح الحمام .. احنا بقالنا مده مارحناش ؟

وصاح سيد فرحا :

— هايله .. يا سلام بابا .. أنا كان نفسى أقول لك من زمان لكن خايف تقول لى لا .. لحسن تفرق فى المغطس .

وضحك شوشة قائلا :

— انت فاكرك .. آخر مره ، لما كنت حاتفرق .. لكن انت كبرت دلوقت وطولت مافيش خوف خليك ، اتقف كده وربنى طولك .

وتفز سيد واقفا وهو يشب على أطراف أصابعه وقال ضاحكا :

— شاييف .. إيه رأيك مش بقيت أطول منك ؟

— بزمان ، مش معقول المغطس يفرتك .

— بس اسمع أنا عايزك ثعلمنى العموم .

— حاضر .. يالله بينا .

— أما اقول لستى عشان تحضر لنا غيار .

— وعايزين نوضب لنا عشوه كويسه ناكلها هناك بعد ما نستحمى .
— وجب .

وخرج الاثنان من الحجرة فى فرحة ظاهرة ، واتجه سيد إلى جدته يتراقص متواثبا وإرتدى بين أحضانها قائلا :

— أم آمنه يا ويكا .. رايحين الحمام يا ويكا ، وحانتعشى هناك باويكا .. وحانتسبك لوحدة يا ويكا .

— ولزومه إيه الحمام دلوقتى بس . دى الدنيا بردت .. ما اسخن لكم ميه فى الصفيحه ، وتستحموا هنا وتستكوا فى الأوده .

بـ طلب بس وحياة أبوكى بلاش الشوره المبيهه دى ، بلا صفيحه
 .. بلا هباب .. هو انتى غاويه شقا .. احنا جاتروح نيعوم فى
 المغطس .. الغيار فين ؟

— أهو عندك فى الصندوق .. خذ لك لباس وفائله وجلابيه
 وخذ الصديرى الصوف وخذ كمان الجاكتيه القديمه بتاعة أبوك عشان
 تلبسها وانت خارج ، وخذ الطاقيه معاك لحسن رأسك تبرد ، وقول
 لابوك ياخذ البالطو معاه وياخذ الشال .. أنا عارفه بس لزومه إيه
 الحمام ده ؟

ولكن « سيدا » تركها وهى فى منتصف الحديث واندفع يخطف
 ملابس من صندوق الملابس ، وبعد لحظه كان يقف أمام أبيه متعجلا :
 — يالله بابا .. انا جاهز .. انت جاهز ؟

— يالله بينا .. خليتك بعانيه يام آمنه .

— الله يعافيك يابنى .. خذ بالك م الولد كويس . لفه كويس واوعى
 يستهوى منك .. بس هوا يعنى كان لزومه ايه .. ما كُنت أسخن لكم
 فيه فى ...

ولكن « سيدا » سحب اياه بسرعة إلى خارج الدار قبل أن يسمع
 بقية الاقتراح ، وسار الاثنان عابرين درب القط إلى درب عجور إلى
 شارع البغالة إلى الحسينية ، وفى الطريق ابتاع المعلم شوشة من
 عربة الكفتة الواقفة على ناصية الشارع رغيفين ملاهما بالكفتة والممبار
 والكباب وبعض قطع الطرشى ولفهما فى ورقة وتابط اللسان متجها إلى
 الحمام .

الفصل الحادى عشر

كيف ماتت

وصل شوشمة إلى حمام الحسينية والشارع مزدحم بالباعة والمارة ، وعلى باب الحمام قد وقفت « عربية بطاطا » قد اتكا صاحبها باحدى قدميه على يد العربية ، ثانيا ركبته ، ممسكا باحدى يديه « جوزة » وجعل يشد منها النفس بعد النفس وقد رصت البطاطا النيئة فوق العربية ووضع فى ركن منها الفرن الأسود ذو المدخنة وقد احتشدت فى جوفه البطاطا اللينة الحلوة الحارة المكتنزة كأنهاخذ العيد وأخذ ينفث الدخان فى الجو كزفرات العشق .

وبدا الحمام بنوافذه ذات القضبان الحديدية المتقاطعة والضلف الخشبية المغلقة التى علتها الأتربة وخيمت عليها العناكب ، وفوق الباب قد وضع مصباحان زجاجيان علق كل منهما فى احد الأجناب .

وهبط « شوشمة » بضع درجات دانعا الباب الزجاجى ، وعبر مرأ ضيقا أمضى به إلى قاعة رحبة غير منتظمة الشكل قد رصت بها دواليب خشبية قديمة وضعت بها المناشف ، وعلى الجانب الأيمن للقاعة مصطبة مسيحة عريضة أقيمت على حافتيها أعمدة ضخمة مستديرة واصلت إلى السقف المرتفع ذى الضلف الزجاجية ، وعلى المصطبة تمددت بضعة أجساد ملتفة بالمناشف وكأنها جثث لا حراك بها ، ويجوار الأجساد المتمددة التى انتهت من الحمام وقف بضعة رجال يظلمون ملابسهم ويلفون

البشاكير حول خصورهم ساترين نصفهم الأسفل استعدادا لدخول الحمام .

وعلى يسار القاعة وفى مواجهة المصطبة ذات العمدان ، أو حسب الاصطلاح الفنى « اللون » توجد حجرة زجاجية يصعد إليها بوضع درجات يستعملها الخاصة من المستحمين بدل اللون .

ولما كان المعلم شوشة يعتبر من خاصة المستحمين لا سيما بعدما تسلم الحنفية فقد أمسك ابنه واتجه إلى الحجرة بعد أن ألقى بضع تحيات إلى موظفى الحمام وإلى بعض المعارف من الزبائن ، وكانت الحجرة محاطة بالأرائك الخشبية التى صفت عليها الحشيات وغطيت بالملاءات المحلاوى الحائلة اللون وقد تمدد على الأرائك بعض افراد من المستجمين ، وكان أحدهم يرقد على وجهه وقد وقف بجواره رجل من عمال الحمام انهمك فى تدليكه وتكبيسه ، وبين آونة وأخرى تسمع طقطقة من عظام الرجل وتنهدة راحة من شفتيه .

وفى جانب الحجرة الخالى من الأرائك وبجوار النافذة المطلة على الشارع والمغلقة الزجاج وضع « كئصول » .. ذو مرآة مغبشة مشققة مهشمة الحروف ورف خشبى ذو قوائم مكسورة موصولة مدهونة باللاكه الفزدقى المترب .

وأخذ شوشة وسيد فى خلع ملابسهما ولف كل منهما منشفة حول نصفه الأسفل ومنشفة أخرى حول صدره ورأسه ، ولغا الملابس القذرة فى صرة سلماها لأحد عمال الحمام الذى وضعها فى دولاب بالحجرة وكذلك تسلم منها الملابس النظيفة فوضعها فى دولاب آخر .

وهبط الاثنان من الحجرة الزجاجية وعبرا الفناء أو القاعة متجهين إلى باب الحمام ، ودخلا إلى حجرة بها مصطبة تمدد عليها عدد آخر من الجثث المستحمة ، ودهليز يفضى إلى باب آخر فى المواجهة وقد ملئ جوها بالبخار وبدا سقفها مقببا ذا عوينات زجاجية .

كانت هذه هي. « باب أول » حيث الحرارة وسط بين الحمام وخارجه ، كى يستريح المستحمون برهة فوق المصطبة حتى « تستهدى » أجسامهم وحتى لا يتعرضوا للبرد بانتقالهم المفجئ من الحمام الحار إلى الصالة الباردة .

ونزع شوشة وابنه المناشف عن جسيديهما ووضعاهما على المصطبة ثم دلفا من الباب المواجه إلى الحمام نفسه .

وفوجيء « سيد » ببخار كثيف ثقیل يعتم الجو ويحجب ضوء بضعة الفوانيس المتناثرة فى أرجاء الحمام ، ونفذ البخار الثقيل إلى أنفه وحجرتة فاندفع فى سعال شديد ضايق أنفاسه .. ولم يستطع احتمال البقاء فصاح بأبيه وهو يسعل :

— آبا .. مشى قادر .

وضحك الأب وجذبه من يده :

— خشى ما تخافش .. دلوقت تاخذ عليه .. مانتش تلمكر المره اللى فاتت برضه عملت كده ؟

— مافيش حاجه بتضايقتى فى الحمام غير الدخان ده .. مافيش حمام من غير دخان ؟

— ويبقى حمام إيه ده .. البخار ده هوا اللى بيدفیه ويخليه حمام .

وبدت فى الحمام من الداخل رحبة يتوسطها إيوان رخامى مستدير فى منتصفه نافورة وقد رقد على الإيوان رجل عار وقف بجواره عبد الله المكيساتى الشبيه بعناريت الليل .. بارز عظام الوجه والجسد ، بتصبب جبينه عرقا وقد أدخل فى بيناه كيسا جلديا أشبه بالقنار وأخذ يذلک جلد الرجل الراقد بعنف وقوة وفى كل دعة يفرج منه أقدارا مبرومة سوداء يلتقى بها بجوار الإيوان .

ويحيط بالرحبة أبواب تقضى إلى مختلف أنحاء الحمام فالباب الأول يقود إلى المغطس الحار وهو عبارة عن حجرة ضيقة يصعد إليها الداخل

يبضع درجات ثم يجد في أرضها حفرة متسعة مليئة بالمياه كأنها تد
حفرت في الصخر تملأ رحاب الحجرة إلا حافة ضيقة تحيط بها كالمشي
والماء يتساقط من ماسورة في السقف المقبي ذي العوينات الزجاجية ،
ودرجة حرارة الماء في المغطس تكاد تصل إلى درجة الغليان .

أما بقية الأبواب فيفضي أحدها إلى المغطس العادي وهو أوسع
من المغطس الحار وأقل حرارة ، والأبواب الأخرى تفضي إلى خلوات
بها أحواض مياه وصنابير يغتسل فيها الزبائن .

وكان المستحمون قد انتشروا في أرجاء الحمام ما بين مغتسل
وغاطس وداعك بالليفة والصابونة ، وكانوا يبدون بأجسادهم الكرشاء
السمينة أو المعجفاء النحيلة وقد لفهم البخار الثقيل كأنهم أشباح أو حن
يتحركون بلا صوت ولا همس .

وذهب شوثة وابنه إلى المغطس العادي وهبط الرجل بجسده
في الماء ثم تلقى ابنه بين ذراعيه وأخذوا يعبشان في الماء الساخن
ضاحكين مرحين وبعد برهة قال شوثة :

— أنا حاطلع بقي عشان اتكيس ، وانت تروح تليف نفسك كويس .

— ما تخلينا هنا في المغطس أحسن .

— المغطس ما يطلعش الوساخه .

— مش ضرورى .. عنها ما طلعت .. احنا عايزينها تطلع ليه ؟

احنا بندفع عليها أرضيه ؟

— يابنى حد ييجى الحمام ولا يطلعش الوساخه اللي على جتته ..

دى النظافه من الإيمان .

— بس إيه دخل النظافه في الإيمان يابا .. ما تخلينا في المغطس

مستريحين وسبيك من الوساخه .. دى طلعت ما طلعتش عنها
ما طلعت .

— عايز تقعد في المغطس خليك .. أنا حاروح اتكيس علشان

أفوق واستريح .

وخرج شوشة من المغطس وكان عبد الله قد انتهى من تكييس الرجل الرأقد على الفنسية .. فاستلقى شوشة مكانه وتلقاه المكيساتى مرحبا بقوله :

— اهلا وسهلا .. والله زمان يا معلم .. يقالنا مده ما شفنكش .

— مشاغل الدنيا يا عم عبد الله .. والله ان كان على ماسيبش الحمام أبدا .. لكن فين الوقت .

وبدأت عملية التكييس ، وشنوشة مستسلم ليد الرجل فى استرخاء وخمول ، وظل الرجل يدعك فى جسده بالكيس حتى كاد يجلمه ، وأخيرا نهض شوشة واتجه إلى المغطس ليخرج سيد .

وذهب الاثنان إلى إحدى الخلوات ، ولم يكد سسيد يرى الليفة والصابونة حتى بدا عليه الغم وتمتم قائلا :

— أدى عيبه .. جالك الموت يا تارك الصلاة .

ثم قال لأبيه :

— ما بلاش يايا حكية الليفة والصابونه ، انت حاتمبل زى سنى .. هوا الصابون دا ورائنا ورائنا .

— ما تخافش مش حاجيب الصابون نواحي وشك .. انا حاليك جسمك قوام وأغسل انت وشك .

وأخيرا انتهى الاثنان من الاغتسال بالليفة وصبا على جسديهما من الماء ما أنزل الصابون ، ثم اتجها إلى المغطس مرة ثانية فأخذا يتمتعان بالتلوى فيه والاسترخاء واللعب ، ثم أخرج الأب ابنه قائلا :

— أظن كفايه بقى .. يا الله بيينا ؟

— يا الله .

وجفف كل منهما جسده باحدى المناشف ، ثم التقا فى بشكرين كبيرين وخرجا إلى باب أول فاستلقيا فى خمول على المصطبة .

وتثايب الأب فى تكاسل وهو يتمطى ويمدد جسده ، وقد رقد ابنه بجواره وقال فى غبطة ظاهرة وقد زفر زفرة حادة مريحة :

— يا سلام .. حاجه تهدى الأعصاب وتريح الجته .. أنا بعد المشوار اللى خبطته النهارده ، كنت فاكّر انى مش حاستريح ولا بعد سنه .. كانت جنازه سخنه .

وكان « سيد » حتى هذه اللحظة يشارك أباه فى احساسه بالراحة والفبطة ان لم يزد عنه ، ولكن لم تكّد تصكّ أذنه كلمة « الجنازة » حتى استيقظت همومه ونكّأت جراحه ، واندفع إلى ذهنه فى سرعة البرق معاكسة الصبية له وسخريتهم منه وأنشودتهم عن موت أبيه .. والصرة والحلة المشنومة والقبور ، وأحس بالدمع يصعد إلى مقلتيه كأنه مياه النافورة .

وتلفت الأب إلى ابنه فأذهله أن يجد الدمع يفيض من عينيه ، ولم يتصور فى بادئ الأمر أنه بكاء وقال متسائلاً :

— عينيك لسه حمرة من الحمام ؟

ولم يجب الابن فقد كان يحاول جهده كبت مشاعره ، وعاد شوشة يتسائل فى دهشة :

— مالك .. ما بتردش ليه ؟

وأجاب « سيد » .. ليس بالكلام .. ولكن بالاندفاع فى البكاء .
ذهل الأب ونهض بجسده نصف قومة وأمسك بفراخ ابنه وتساءل دهشاً :

— إيه الحكاية ! ! مالك ! ! جرى إيه ؟

— ولا حاجه .

— مش ممكن لازم فيه حاجه ، قول إيه الحكاية ؟

ولم يكن هناك بد من أن يتكلم « سيد » فيفرغ كل ما فى نفسه ..
قال الصبى :

— أصل بابا الحقيقة ان أنا بخاف من الجنازات اللى بتطلعها دى ، وكنت زمان بقول يمكن محتاجين ، لكن دلوقت لزومها إيه ؟
— وتخاف منها ليه ؟

— بخاف عليك .. أنا بقالى جيمسه والولاد فى الكتاب كل
ما يشوفونى يتلموا على ويقولوا لى : أبوك السقا مات ، بيمشى فى
الجنازات ، حايحصل الأموات .

— وانت بتتكسف ؟

وأجاب « سيد » هازا رأسه بشدة :

— أنا أتكسف ؟ !! أتكسف من إيه ؟ أنا مابتكسفش منك أبدا ..
لكن بخاف عليك ، لحسن كلامهم يتحقق ، بخاف من قرهم عليك .
وتضاحك الأب قائلا :

— ولا يهيك .. خليمهم يقولوا زى ما هم عايزين .. عمر القر ما ناد
ولا ضر .

— ما هى لو كانت الحكايه حكاية قر وكلام فى الهوا مكاتش يهمنى
.. لكن دا قر فى محله .. أنا مفيش حاجه مخوفانى من الكلام .. إلا ان
أنا بلاقى له أصل .. أنا كل ما بلاقيك شابل الصره اللى كان شابلها
« شحاتة أفندى » ولايس البدله اللى كان بيلبسها ، يبقى متهيالى أنك
حايجرالك زى ماجراله ، يبقى متهيالى أنك حاتنام نومته ، وما ترصاش
تصلى أبدا ، وبمدين ياخذوك يشيلوك غصب عنا ويحطوك فى الصندوق
زى ما عملوا فى « شحاتة أفندى » ، ولا يرجعوكش لنا أبدا ، ونتمسد
لوحشنا أنا و « مستى أم آمنة » ..

ولم يكد الصبى يتم حديثه حتى أجهش بالبكاء ، وأخفى وجهه
بذراعه ، وأخذ جسده الصغير العارى الملتف فى المنشفة يرتجف .

ولم يحاول الأب التضاحك فى هذه المرة ، ولو حاول لما استطاع ،
نقد سرت نوية الحزن والتشاؤم من الأمن إليه ومد يده فربت عليه بحنان
وقال :

— بس .. بس .. عيب يا سيد عيب .. أنا بقول عليك راجل كبير
.. حد يعيط كده من شوية أو هام ؟ ثم افترض أنها تحققت .. تقوم

برضك تعيط كده زى النسوان .. الراجل لازم يكون راجل ، وياخذ الحكاية دى بسهولة .. آمال أنا بطلع ليه ورا الجنازات ، مش عشان الواحد يعيد نفسه على وحشة السكة اللى مسيره يقطعها .. أنا كنت زمان برضك بتوهم منها ، كنت فاكرها حاجه صعب ، حاجه مخيفه لكن لقيتها كلها كلام فارغ وهاف ، وإذا ما كانتش حاتحصل لنا النهارده حاتحصل بكرة أو بعد بكرة .. والواحد بيفكر بكرة بعيد ، لكن ما أسرع ما ييجى بكرة ، وبعد بكرة .. ليه تخاف من الموت ، ما دام حاصل ، هو اقيه حد مش حايوت .. كلنا حايوت ، كل حى لازم يموت ، ولنا حى فلانم حايوت .

ورفع « سيد » رأسه إلى أبيه فى ارتياح وتساءل فى استنكار ودهش :

— لا يابا ماتقولشى كده ، أنت مش حاتموت ، مش ممكن تموت ، تموت ليه ؟ أنت ما بتعملش حاجات وجشه ، ولا أنت عجوز ، ولا عيان ، وأنا عايزك ، تموت ليه ؟

وصمت الرجل برهة قبل أن يجيب ورفع كفه إلى جبينه ثم إلى عينيه وبدا كأنه يغالب فى إعادة بعض قطرات من الدمع فرت من مجاريها ، وشرد ذهنه ، ويدت على وجهه علامات حزن دفين ولوعة مكبوتة . ثم قال أخيرا فيما يشبه الهمس كأنما يحدث نفسه :

— هى كما كانت كده ، عمرها ما عملت حاجه وحشه ، ولا كانت عجوزه ، ولا عيانه .. وكنت أنا وانت عايزينها .. لكن ماتت ، ماتت ليه ؟ . معرفشى .

وتساءل « سيد » فى دهش :

— هى مين يابا !

— أمك .. يابا سهرت الليالى أسأل نفسى ، وأسأل السما والنجوم ، ورينا : ماتت ليه ! . وعشان إيه ؟ . لكن ما كنتش بلاقى جواب .. ماكنتش بلاقى سبب .. غير ان الموت بلا سبب ... زى

الحيا .. ليه بنتولد ؟ . وليه بنموت ؟ مين يعرف !
أمه ؟ !!

كانت المرة الاولى التى يحدثه أبوه عن أمه .. فما حاول من قبل أن يجرى ذكرها على لسانه .. انه لم يرها قط ، ولم يحدثه عنها أحد ، ولم يحاول هو أن يستفسر عنها .. فقد صدته الأجوية المقتضبة والهة ملاهى الحياة ومشاغفها ، ولم تشعره جدته ولا أبوه .. بحاجته إلى أم .. فبدأ له انه قد خلق هكذا بلا أم ، وانه ليس من المحتم أن يكون لكل انسان أم كأمهات أصحابه من الصبية .

لم يكن يشعر بالفراغ ، ولذلك لم يشعر بالتالى بفقدان ما كان يجب أن يملأ الفراغ .. كان يجد ما يكفيه من المحبة ، والعطف والحنان .. لقد تضخم أبوه فى حياته بحيث ملأ عليه كل فراغ وبحيث شغل مكان الآب والأم .. فأحس « سيد » .. أن المرء يمكن أن يعيش بلا أم ، ولكن تستحيل عليه الحياة .. بلاآب .

وهو يفكر جلسة أبيه وراء النافذة كل ليلة ، ونفثه الدخان ، ورنوه إلى النجوم والسماء .. كأنها كان يسألها عن شيء أضاعه .. أو عن معضلة أعياء حلها .

وهو يذكر جلسة جدته واطرافها وشرودها وذقتها المسند غى كنفها ، ويدها المطلوبة التى تطرق ركبته ، ورأسها المتلهم يينة وبيرة . وحديثها الهامس لنفسها بين آونة وأخرى ، كأنها تتساءل عن شيء .. أو تطلب حاجة ، وعندما كان يسألها عما تطلب كانت تنفيق إلى نفسه قائلة :

— ولا حاجة .

إذا فهذا هو الشيء الضائع والمعضلة المستعصية التى أضنت أباه .

إذا فهذا هو السؤال الحائر ، والمطلب المتمتع الذى أعياء جدته !
وبدا للصبي أن الفرصة سانحة لكى يحمل عبئه .. الذى سها عن

حملة طوال السنين الماضية ، ولكى يشارك أباه وجدته ، وجيعتهما ،
وأحزانها ، وسهرها ، وشرودها ، وسؤالها عن المطلب الضائع .

ولم لا .. ليست أمه ؟

الا يحق له أن يعرف عنها كل شيء ؟

ورفع الصبى رأسه إلى أبيه ، وبلا ارادة ولا وعى ، وجد شفتيه
تنطقان بالسؤال الذى لم يخطر له ببال من قبل :

« كيف ماتت ؟ » .

وكان الصمت قد خيم ، والمكان قد خلا إلا من الرجل وابنه ،
والبخار قد تكاثف فى الجو غبدد أشعة المصباح الهابطة من أعلى
السقف .

واستند الأب بظهره إلى حشية على المصطبة بجوار الجدران وجذب
ابنه إليه فألصقه به محيطا إياه بذراعه ثم أعرق برأسه وانطلقت من
صدره زفرة حارة وعاد يردد قول الصبى :

« كيف ماتت ؟ ! » .

ثم انبرى يتقص القصة ويجيب عن السؤال .

ماتت كما يموت كل انسان .

سكنت أنفاسها وتصلب جسدها وبردت أطرافها .

واضحت لا شيء بعد أن كانت كل شيء .

من كان يصدق أنها مستهوت ؟

ذلك الجسد القوى ، والوجه النضير ، والثغر الباسم ، والعينان
الضاحكتان المتلألئتان .. من كان يصدق أن كل ذلك يمكن أن يتبع فى
حفرة رطبة مظلمة يباطن الأرض ، مسلوب الحركة فاقد الحياة .. ليصبح
بعد حين هيكلا قد أكله البلى وعظاما قد نخرها السوس ؟ . من يصدق

أن هذا الكوم من العظام كان فى يوم من الأيام رية البيت التى تفيض فيها الحياة وتتفجر منها العافية ؟ من كان يصدق أن تلك الجمجمة المخيفة التى قرعتها بقمى كانت هى نفسها الرأس الفلتن ذا الجدائل الحالكة والشفاه الوردية ؟ من كان يصدق أن هذا الرماد المكون لأديم الأرض هو نفس الجسد الفارع الياسق الذى أبصرته أول مرة فى حديقة السراى فكأنه النبت الزكى والشجرة المزدهرة ؟ من يصدق أن آمنة التى كانت تطاول السماء .. قد باتت موطنا للأقدام ؟

انى لأذكرها يوم ذاك وقد هبطت من الطابق العلوى قبيل الشروق وأنا املا حوض النافورة ، وهى تبتسم فى دلال وتسالنى أن أسقى شجرة التمرحنة .

ولم أكن مسئولاً بالطبع عن سقى الشجر فقد كان ذلك من عمل البستاني وكان عملى مقصوراً على حمل المياه وإفراغها فى الحوض ثم ملء الأبار والصفائح والطشوت وغيرها من خزانات المياه الموجودة بالدار .

ولكن لم أستطع حينذاك أن أرفض طلبها لا سيما وأنها انبأتنى أنها قد غرستها بيدها وأنها تخشى أن يهملها البستاني فتتوت وهى عزيزة عليها حبيبة إلى نفسها .. وضحكت ووعدتها أن أداوم على سقيها يوماً بعد يوم ، وأن تجعل مسئوليتها فى عنى ما دامت تهتم بها كل هذا الاعتزاز .

وكنيت أعرفها من قبل فقد سبق لى أن رأيتها ضمن ثلة الخاديمات اللاتى تكنتن بهن السراى ، وكنيت أستطيع بسهولة تمييزها من بين عدة الوجوه التى تتوالى على رائحة غادية .

ولكنها كانت المرة الأولى أن أبادلها الحديث ، وإن تكل إلى بعمل خاص بها وتخطبني كما يخاطب الرء صديقه وتضع فى عنى شيئاً مزيماً لديها أتولى سقيها والسهر على حيلته .

ومن ذلك الحين بدأت أشعر بشيء يربطني بها ويشدني إليها ،
واعتبرت سقيا شجرتها العزيزة واجبي الأول في الحياة .

كنت أراها كل صباح إما في المطبخ حين أضعد للء الأواني وإما
في الحديقة حين تهبط لتلقاني أو لتطمئن على شجرتها .

وكان كل يوم يمر يجعلني أشعر أننا لسنا غريبين أحدا عن الآخر ،
وأنه لابد أن يكون بيننا سابق عشرة أو قديم معرفة ...

كانت صبوحة مشرقة الوجه ، دائمة البسمة ، وكان اشراقها سريع
الانفكاس في نفسي وبسمتها سريعة التردد بين جوانحي .. فكنت
لا أكاد أراها حتى تشرق مني النفس ويضجك القلب وتصنق الروح .

ولشد ما سرني أن أسمعها ذات صباح تسألني عن شجرة التمرحنة
بقولها : « شجرتنا » ، فقد أحسست أنه قد بات بيننا شيء مشترك ،
وأن لنا مصلحة واحدة .. تافهة مهما كانت .. فهي تربط بين أحدا
وصاحبه .

وبدأ بيننا دور التعبير عن المشاعر بالهدايا .. أحملها إليها وتحملها
إلى خلسة ، ويعيدا عن الأعين .. أنا أقتصد من دريهمات لأبتاع لها
منديلا للرأس أو قطعة رخيصة من الحلوى .. حلقا أو خاتما أو أسورة ،
وهي تقتصد من طعامها لتحمل إلى بعضه .. أو تقتصد من مصروفها
أو تحتجز من أجرها الذي تعول بها أمها دريهمات لتبتاع لي منديلا
أو جوربا .

وكما سقيت الشجرة فترعرعت ، سقى الله حبنا فترعرع ، وباتت
الحياة عندي تنحصر في تلك الهنيئات التي أحمل فيها الماء إلى السراي
الكبيرة ، والتي ألقى فيها أمانة تبادل النظرات أو التحيات أو الكلمات .

وفي ذات يوم ألت بى علة .. بدأت في المساء خفيفة ثم زادت
سطوتها واستثرى شرها طول الليل ، فلم أذق النوم إلا لاما وأنا أنقلب
على أحر من جمر الغضى وقد جف حلقى والهبت الحمى رأسي .
وفي الصباح .. لم أقو على النهوض ، وكنت أسكن في حجرتي

وحيدا ووجدت نفسي أستسلم إلى ما يشبه الغيبوبة ، ورقست في
الغرائس كالجثة الهامدة .. لا أقوى حتى على الاستجد بأحد يحمل دواء
أو يبل لي شفة .

وقبل الضحا سمعت طرقا على الباب فأمرت الطارق بصوت خافت
بالدخول وإذا بي أفاجأ بأمة تدفع الباب ببطء وحذر وتناديني في تردد
وخشية

ودهلت وأجبته بقدر ما أستطيع من جهد .

كانت آخر من أنتظر دخوله .. كنت أتوقع أن يحصر إلى جوار
أو زميل .. أما أن تفرك هي عملها وتحضر إلى في البيت .. فكان أمرا
بعيدا عن تصوري .

وأقبلت على جزمة تحسس جبيني ولاطفني مطمئنة بوضع كلمات
حنون ، ثم غابت عني لحظة ورجعت فجلست بجواري ومعها خرقة
فحمتها في طبق خل ووضعتها على جبيني ، وظلت تمسح بالخرق على
جبيني حتى أحسست بالحرارة تهدأ بعض الشيء ، وشعرت برغبة في
النعاس فأحكمت الفطاء حول جسدي وحذرتني من رمعه ، ثم غابت
لحظات أخرى وعادت حاملة إلى اناء من اللبن ويضعة برتقالات وسألني
أن أتأولها .

وغادرتني وقد تحسنت حالتي بعض الشيء ، وفي الصباح التالي
استيقظت على صوت طرقاتها الحذرة وخطواتها المتسللة ، وكانت
نحمل في يدها بعض القراقيش وآناء من اللبن ، وجلست بجواري
وتحسنت جبيني بيدها .

وكنيت أحس بكثير من التحسن ، رغم أن الحرارة لم تكن قد هبطت
تماما ، ورغم أن قواي كانت ما زال بها كثير من انحطاط .. ولكن كان
لابد لي من النهوض فان عملي لا يتحمل الرقاد أو الانقطاع . والناس ان
صبروا على المياه يوما فهم لا يستطيعون أن يصبروا يوما آخر ..

وان هم استعانوا بسقا آخر استحل مكانى واستمرا مرعاى وطارت
زبائنى ، ولذا فقد عزمت على النهوض .

ونظرت هى إلى مؤنية دهشة ، وأنبأتنى أنها لن تتركنى انهض باية
حال .. والا أصابتنى نكسة أعادتنى إلى شر مما كنت عليه ، ولكننى
أصررت على ترك الفراش قائلا لها : ان الناس لا يستغفون عن مياهى
وانا لا استغفى عن نقود الناس .. وخير لى أن أعيش مريضا من أن
أموت جوعا .

ولكنها خاطبتنى بقولها ان المياه مستصل إلى الناس وان النقود لن
تتقطع عنى ، وانى لن أموت جوعا وهى على قيد الحياة .

وكان قولها عجيبا ، ولكن أعجب منه كان فعلها .. فقد أصرت على
أن تحل هى المياه إلى الزبائن حتى أبل من مرضى ، وكان من الجنون أن
أقبل منها عرضها ، وأن أترك امرأة تقوم عنى بعملى الشاق ، ولكنها
أنذرتنى ان لم أضعها تقوم بما أرادت .. فلن أراها بعد ذاك ، وستقطع
كل ما بيننا .. حتى الشجرة ستقتلعها من مكانها .

ولم يكن هناك مفر من الاستسلام لاصرارها .. ولو كنت فى صحتى
وفى كامل قواى ، لكنت أقدر على اخضاعها .. ولكن الرأس الملتهب ،
والجسد المنهك ، والنفس الواهنة ، والداء الذى لم ينصرف بعد .. كل
ذلك تعاون على غلبتى ، فرقدت مستسلما ، وخرجت هى لابسة السطيح
حاملة القرية .

وشاهد حى الحسينية يومذاك لأول مرة ولاحر مرة فتاة تحمل
القرية ، وتسير مثقلة بها ، لتبدأ الأزيار والصفائح ، ولتجيب على الزبائن
بأن شوشة مريض وانها تقوم بالسقية بدله حتى يبل .

وفى اليوم التالى استيقظت من الفجر ، قبل أن تحضر إلى وأسرعت
بالقرية إلى السراى الكبيرة وهناك أفرغتها وسالت عن أمنة ، ولكن
لدهشتى أنبأونى أنها غير موجودة !

لم ؟ .. لأنها طردت .. لهربها من البيت .. وغياها طيلة أمس .

وروعنى النبا فى بادىء الامر .. ولكن الفكرة دارت فى رأسى ،
 فشعرت منها بنشوة وطرب .. ولم البث حتى حششت الخطأ إلى بيت
 أمها .. بعد أن سألت عنه إحدى الخاديات .

وهناك وجدتتها ترقد وأمها ، ولم تكذبصرنى حتى صاحبت بى فرحة
 متسائلة عما أتى بى فى هذا الوقت المبكر ، ولم تركت فراشى ؟ وقلت
 لها انى قد أبليت وانى سمعت عن طردها من السراى الكبيرة وانى قد
 فرحت للنبا لانى صممت على نقلها إلى السراى الصغيرة .. إلى حجرتى
 المتواضعة .

ودخلت على أمها الطيبة فسألتها أن تزوجنى ابنتها ، فلم تعارض
 « أم آمنة » .

ولم تشرق شمس صباح اليوم التالى إلا زلزلتنسا - أنا وآمنة
 وأمها قد ضمنا ذلك البيت الذى نسكن فيه فى درب القط بعد أن
 نوجهنا إلى المآذون وقد عقد علينا . وبقينا زوجاً وزوجة ، وثالثهما
 حياه .

وبدأت حياة جديدة ، حياة سعيدة هنيئة قريبة .

لقد أحسست مذ ضمتنا دار واحدة أن عبء الحياة قد خف ، وأن
 ثغرها قد بسم ، وأنه قد أضحى عندى ما أعيش لأجله ، وانى تغيرت من
 سائمة ضالة إلى إنسان قرير .

أى والله .. لقد بت مخلوقاً آخر وملئت حياتى الجوفاء الخالية .
 ولم أعد أحس بالوحدة المريرة والوحشة الاليمة .

بات البيت عندى ملجأً إلجأ إليه .. ولماذا الود به .. وحياة أحياء
 فيها .. بعد أن كان مجرد مضجع أقضي به سواد الليل .. لا يسامرنى
 فيه غير مواء القطط ، وعواء الكلاب .

كانت مخلوقة عجيبة ، كأنها فى الجهد مائة امرأة فى امرأة لم أر
 أشد منها احساساً بواجبها وتفانياً فيه ، ولا أقل منها مطالبة بحقها
 وتناسياً له .. كانت صبوراً على البأساء .. حمالة للأسى . كانت

نموذجاً للتضحية والوفاء والبعد عن الأنانية ، كانت أقدر الناس على
تبديد الهموم وطرد الأحزان وتسهيل الحياة وتخطي عقباتها .. ما رأيته
قط شاكية ولا متبرمة .. يملأ نفسها دواما الرضا والقناعة .

وحمدت الله الذي وهبني الهناء والاستقرار بعد طول جهد وانهك ،
وضلالة فى ببداء الحياة .. وشعرت ان الله قد أكرمنى إلى أبعد حدود
الاکرام ، وأنى ما كنت أتمنى فى أحلامى أكثر مما وهبني إياه .

أمنية واحدة هى التى كانت لا تزال قلقة فى افق الأمانى ، وأمل
واحد هو الذى كان يداعب النفس ، ويبتغى طريقا إلى الظهور .
هذه الأمنية وذلك الأمل .. هو أنت يابنى .

كان بنا حنين إليك ، وشوق إلى الابن المجهول المنطوى فى غياهب
الغيب والذى لم تبد لنا بشائره بعد .

ولم أحاول أنا قط أن أفصح عن ذلك الأمل الذى كان يراود النفس
خفية .. لأنى كنت واثقا بالله .. عوقنا أن الأمنية وان تأخرت فهى
قادمة قادمة .. وانك وان تمهلت فانك آت آت .

وكننت أخشى أن أشعرها بالتقصير وبأنها بعد كل هذا الجهد
والفنائى والاخلاص ، لم تنلنى أمنية عزيزة .. يعلم الله إذا كانت قديرة
عليها أم أن بها عجزا وعقما .

وهكذا طويت الأمنية بين جوانحي ، وبالفث فى اظهار اثرها
والسعادة ، ولكنها كانت أذكى من أن تخدع وكانت من أشد من رأيت
نفاداً إلى راسى وقلبى واكتشافا لباطنى واحساسا بمتاعبى وآلامى
وأحزانى وآمالى .

وإلى جانب ذلك فقد كانت هى الأخرى أشد رغبة لىك ، وتمنيا
لمجيئك .. ولذا فقد بدأ القلق والخوف يدخل إلى نفسها ، وأخذت
تزرور الاولياء والمشايخ .. وتتعاطى للوصفات وتتبع المشورات .
وأخيرا .. حقق الله يقينى .. واستجاب لدعائها .. وأعطينا

الإنذار الأول .. لبدء خلقك .. ولتكوينك فى باطنها ..

وسادت فى الدار حركة نشاط واستعداد ، وفرحنا ، كما يقولون ،
قبل الهنا بسنه ، وأخذنا نعد العدة لاستقبالك .. وتوقعنا ، أو تمنينا ،
أن تكون ولدا ، وسميناك باسمك وأنت فى علم الغيب وناجينك ولاغيناك
وأنت منطو فى حشاياها .

كنت موجودا بيننا قبل أن تهبط إلينا .. لقد دفعنا لهفتنا عليك إلى
أن نخرجك بيننا قبل أن يخرجك الله .

ولا اظن أن هناك مخلوقا أصاب قدرا من السعادة كما أصابت هى
فى فترة حملك ، لقد كانت تشعر أنها تحمل أمنية عزيزة ، وحلما جميلا .
ومحت فرحتها بك كل متاعب الحمل ، فما أذكر أنها تأملت من شيء
أو عجزت عن شيء .. لقد تعاونت قوتها الجسمانية وقوتها النفسية على
حملك كاصح وأقوى ما حملت أم .

وأخيرا .. وبعد طول ترقب وانتظار .. وتحضير .. واستعداد -
هبطت إلينا .

هبطت أنت .. وصعدت هى .

يا للسخرية الكبرى !! لكنها كانت تشعر بأنها لن تسعد بك بعد
ولادتك ، فأخذت نصيبها من السعادة بك وأنت طاو فى باطنها .

وعندما أقول لك الآن صعدت .. لا املك إلا أن أقولها ببساطة ..
بساطة أى لفظ .. لا يحمل أكثر من معناه ، ولكن صعودها وتذكك ، كان
أجل من أن يستعمل للتعبير عنه أى لفظ ، كان أشبه بانطباق السماء
على الأرض أو حلول الساعة .

كان كل شيء يمكن أن يتصور الإنسان حدوثه .. غير أن تصعد هى ،
وتركنا فى وحدتنا ، أنا وأنت ، وأما .

كانت مسألة لا يقبلها العقل ولا يسمح بتصديقها .

ولم يستغرق صعودها وهبوطك وقتا طويلا بل حدث التبادل فى مثل
لمح البصر .

فى لحظة من اللحظات ، كانت هى موجودة ، وأنت فى عالم الغيب ،

الانذار الاول .. لبدء خلقك .. ولتكوينك فى باطنها .

وسادت فى الدار حركة نشاط واستعداد ، وفرحنا ، كما يقولون ،
قبل الهنا بسنه ، وأخذنا نعد العدة لاستقبالك .. وتوقعنا ، أو تمنينا ،
أن تكون ولدا ، وسميناك باسمك وأنت فى علم الغيب وناجيناك ولاغيناك
وأنت منطو فى حشاياها .

كنت موجودا بيننا قبل أن تهبط إلينا .. لقد دفعنا لهفتنا عليك إلى
أن نخرجك بيننا قبل أن يخرجك الله .

ولا أظن أن هناك مخلوقا أصاب قدرا من السعادة كما أصابت هى
فى فترة حملك ، لقد كانت تشعر أنها تحمل أمنية عزيزة ، وحلما جميلا .
ومحت فرحتها بك كل متاعب الحمل ، فما أذكر أنها تأملت من شيء
أو عجزت عن شيء .. لقد تعاونت قوتها الجسمانية وقوتها النفسية على
حملك كأصح وأقوى ما حملت أم .

وأخيرا .. وبعد طول ترقب وانتظار .. وتحضير .. واستعداد ..
هبطت إلينا .

هبطت أنت .. وصعدت هى .

يا للسخرية الكبرى !! لكأنها كانت تشعر بأنها لن تسعد بك بعد
ولادتك ، فأخذت نصيبها من السعادة بك وأنت طاو فى باطنها .

وعندما أقول لك الآن صعدت .. لا أملك إلا أن أقولها ببساطة ..
بساطة أى لفظ .. لا يحمل أكثر من معناه ، ولكن صعودها وقتذاك ، كان
أجل من أن يستعمل للتعبير عنه أى لفظ ، كان أشبه بانطباق السماء
على الأرض أو حلول الساعة .

كان كل شيء يمكن أن يتصور الإنسان حدوثه .. غير أن تصعد هى ،
وتركنا فى وحدتنا ، أنا وأنت ، وأما .

كلنت مسألة لا يقبلها العقل ولا يسمح بتصديقتها .

ولم يستغرق صعودها وهبوطك وتنا طويلا بل حدث التبادل فى مثل
لمح البصر .

فى لحظة من اللحظات ، كانت هى موجودة ، وأنت فى عالم الغيب ،

وفى اللحظة التالية كنت انت موجودا وهى فى طريقها إلى عالم الغيب بلا أمل فى عودة أو رجاء فى بقاء .

انى لا أذكر أنها تعذبت فى ولادتك ، أو ربما تعذبت ، ولكن جلدها العجيب وقدرتها على تحمل الآلام منعها أن تفصح عن شيء .. فرقدت فى حجرتها .. الحجرة التى بها الصحارة ، ثم جاءها الطلق ، وأخذت أمها تعاونها حتى تحضر « الداية » ولكن قبل حضورها كان كل شيء قد انتهى .

هبطت أنت .. وصعدت هى .

ويعلم الله إذا كانت قد صعدت حقاً .. أم أنها هى الأخرى قد هبطت مع جسدها إلى جوف القبر .. وانتهت — كما يقول شحاتة — ككل مقعد قديم وقطة .

كنت وقتذاك أشبه بالضائع فى غيبوبة .. كنت مرتاعاً إلى أقصى حدود الارتياح .. فقد كنت — إن صح التعبير — محدث وفاة .. لم يسبق لى أن فجعت — على كبر وإدراك — فى عزيز لدى .. بل فى أعز ما أملك .

واندفعت أمها يومذاك فى الصراخ .. كأنها كلب جريح يعوى .. ولكنى لم أصرخ ولم أعو .. فقد كنت .. كما قلت لك فى غيبوبة .. أسير وأتحرك وأتصرف بلا وعى ولا إدراك .. ولقد سألنى من حولى وقتذاك أن أبكى .. حتى أفرج عن نفسى ، وحتى لا أجن أو أصرع ، ولكن الدمع كان يستعصى ، فالبكى لا بد أن يبكى عن إدراك ، أما أنا فقد كنت من الصدمة فاقد الإدراك .

وقام الناس بإجراءات التفسير والتكفين والجنائز والدفن وأنا انظر إليهم نظرتى إلى أشباح مزعجة مخيفة .

كانت الرهبة تجثم على أنفاسى فنجعلنى أرى كل هذه الإجراءات أشياء مروعة رهيبة من الصعب فهمها ، أو مباشرتها .

وخلا الدار من عنصر الحياة فيه ، بعد أن قطع شريانه وأقبل

الليل المدهم ، وأنا وانت والعجوز وحدنا .. أشبه بجند حديثي عهد
بمعركة فقدوا قائدهم ، أو يركاب سفينة فقدت ريانها ، أو بثلاث عجائز
تركن في صحراء مقفرة لا ماء فيها ولا رواء ، ولا زرع ولا ضرع .
وكان على العجوز الثكلى النائحة أن تتولى أمرك ولقد تولته —
والحمد لله ولها — على أحسن حال .

ولقد حاولت جهدها التجلد والتحمل من أجل ومن أجلك ، ولكن
الحزن والدموع المناسبة في الليل الطويل ، أفقدها البصر ، ولكن لم
يفقدها الجلد والتحمل والصبر على رعايتنا ، أنا وانت ، أو بقايا ابنتها
الراحلة .

وحاولت أنا الصبر والتجلد واستعنت بالصلاة وبالقُرآن ووضعت
آيات الصبر نصب عيني أقرؤها في كل غدوة وروحة ، ولكن الصبر
كان متعذرا والوجيمة جاثمة على القلب تابى فراقه .

ولا أكذبك القول يابني انني كرهتك في أول الأمر ، كنت أراك
لا تستحق الثمن .. كان ثمنك نادحا جدا لا يدفع لشراء عالم بأكمله ..
نما بالك بوليد تافه ، وكنت أتمنى في قرارة نفسي لو يعدل الله عن
البذل فيأخذك ويردها ، ولكن كنت أشعر أنني في تفكيري أحق مجنون ..
وأن قضاء الله لا راد له .

ورويدا رويدا بدأت أحبك ، واتخذت منك عزاء عنها ، بعد أن
عز العزاء ، ووجدت منك إلى حد كبير دافعا على التحمل ومواصلة
العيش .

ولقد كنت دائما أسائل نفسي في يأس — كما سألتني أنت — لماذا
نبوت وهي لم تفعل شرا ولا هي عجوز ولا مريضة ونحن في أشد
الحاجة إليها .

ولقد استعصى الجواب على حتى دخل « شحاتة » في حياتي وأخذ
يلقنني حديثا بدا لي في أول الأمر حديث خرافة .

قال لي : إن وجه الأرض متغير ، وأن مركبات هذا الوجه من مختلف

الكائنات محدود وجودها بفترة معينة لها بداية ونهاية .. وان ابن آدم لا يزيد عن أن يكون أحد مركبات وجه الأرض ، فوجوده محدود لفترة معينة حكمه فى ذلك حكم المقعد الذى تجلس عليه والقطعة الجالسة اسفل المنضدة ، وأنه لا بد له من الانتهاء ليحل محله سواه ويأخذ مكانه فى الوجه المتغير .

ولكن ابن آدم المغرور يكره ان يقارن نفسه بالمقعد أو بالقطعة أو بأى مخلوق من المخلوقات ذوات البقاء المحدود ، وهو كذلك يكره الموت ويأبى قبوله كنهاية محتمة ويأبى إلا احاطته بأوهام كريمة ، ومناظر مفاجئة ، ويرفض تَعُودُه وترويض نفسه عليه .

انها مسألة ترويض وتعود .. لا أثل ولا أكثر .. ان كل حدث على الأرض يهون بالعود .

هكذا قال لى الرجل .. ولقد بدا حديثه .. كما قلت لك حديث . مخرف ، وكان من المستحيل على ، أنا المفجوع المجوع .. المجروح القلب ، الكليم الفؤاد ، أن استسيغ مثل هذا القول الساخر الواقعى الجاف .

ولكن لم أكد أنزل الحومة وأجوس بالساحة .. حومة الأموات وساحة المقابر .. حتى تبددت من نفسى الرهبة شيئاً فشيئاً .. وأدركت ضيق الثقب الذى ينظر منه الإنسان إلى هذه الأشياء .

لقد نزلت إلى ساحة الأموات .. فوجدتها سخریات فى سخریات ، ووجدت الإنسان .. مهما كان .. لن يزيد على المقعد أو القطعة ، ووجدت اكوام العظام فى القبور .. أحقر كثيراً من انقاض المقاعد المهشمة . وان رمم القطط والكلاب قد تبدو أبهى منظراً من رمم الإنسان .

لقد باشرت التفسير والتكفين والدفن .. فوجدتها سخافات فى سخافات وتفاهات فى تفاهات .. ان المسألة كلها لا تريد على دفن القمامات الإنسانية والمخلفات البشرية ورميها فى حفرة بباطن الأرض . - عرفت الكثير من الحقائق فى عملى الجديد .. الذى فككت به

العقدة الكبرى المعقودة في نفسي وفي نفس كل إنسان : ووجدت الإجابة المستعصية تأتي سهلة هينة وأنا أسأل نفسي : لماذا تموت وهي ليست عجوزا ولا مريضة ونحن في أشد الحاجة إليها ؟

لقد قلت لنفسي يابنى لنها ليست أول من يموت ولمست اور من فم زوجة ولا كنت أنت بأول من يولد بلا أم .. هذه أشياء تحدث كثيرا في الحياة ، فيجب ألا ينظر إليها على أنها مأس قد خصنا بها القدر .. يجب أن نعرف أن هذا الأمر هو سنة الحياة وطبيعة الأشياء ، ويجب ألا نعتبرها مفاجأة .. بل نتقبلها بالصبر ، ونواصل السير لنقوم بواجبنا .. حتى يصيبنا قضاء الله .

بهذا وحده أحسبت بالاستمرار والسكينة ، ولكن ليس بالنسيان .. لقد كنت حريا أن أنسى .. لولا ذلك القلب الناتج بين الضلوع . الباكي في الحنايا ، والذي لا يقتنع بمنطق ولا يسلم بعقل ولا يحتمل صبرا .. اننى لم أنسها رغم اكتشافي لحقيقة الموت والحياة .. لقد كنت أشيّعها في كل جنازة أسير أمامها . وكنت أراها في دن ميت أواريه الثرى . انى أحس بمتعة من تشييع الجنازات .. نهى تقربنى إليها وتبغنى برفقتها وذكرها ، وتهون على نفسي مسألة الموت وتعبدنى لاستقباله غير وجل ولا هيب ، وعندما تهون على الإنسان النهاية .. تهون الحياة .

* * *

وصبت الرجل ورفع الصبي رأسه في خوف وجزع وقال في صوت خافت ملئ بالدموع :

— ولكنك رغم ذلك .. لن تذهب .. انى أريدك .. إذا هانت عليك نفسك فلن تهون على .. إذا كنت قد روضت نفسك على الذهاب ، فانا لم أروضاها .. ليس لى في الحياة سواك .. انك الأم والأب .. انك ما أشعرتنى قط بأننى فقدت أمى .. لا تذكر الموت ابدا ولا تعود نفسك عليه .. فإنك لن تموت .

الفصل الثاني عشر

لن يموت

ومرة ثانية بذل الرجل جهدا كبيرا ليحبس الدمع في المآقي ولا يفضح تأثره بحديث الصبى وهو القوى المتجلد ، وبعد فترة صمت استعاد خلالها نفسه وتمالك قواه اصطنع ضحكة خفيفة أسدل بها ستارا على حديث الشجن الذى فاض به .. ثم قال لابنه فى لهجة مازحة :

— طيب ياسى سيد خلاص .. ماشى كلامك .. ما دام مش عايزنى أموت .. مانيش رايح أموت .

وأجاب « سيد » ، وهو يكتف دمه :

— ولا تطلع الجنازات ، ولا تلبس البدله دى أبدا ؟

— ولا حاحطها على جتتى عشان خاطرك .. مبسوط بقى يا عم ؟

— أيوه مبسوط .

— طيب آمال مبتضحكش ليه .. يالله اضحك .

وافتر ثغر الصبى عن ابتسامة مفتعلة صاحبها بقايا دمع سائل على خديه ، ولكن الرجل عاد يقول مازحا فى بعض التآنيب :

— برضه ده ضحك ؟ !! اضحك كويس .. احنا خلاص مش

حائجيب سيرة الزعل بعد كده .. يالله ورينى ضحكك .

وضحك الصبى ضحكة غريضة خالصة وريت أبوه على ظهره فى

رفق ، وهو يقول :

— أيوه كده ، خلينا نفرغش .. يالله بينا نقوم نلبس بقى أنا بطنى
فونوت ، وكل ما افكر رغييف الكياب ريقى يجرى ...

— أيوه حقيقى .. أنا كمان جعت .. يالله بينا ناكل .

ونھض الاثنان ملتفتين فى المناشف وغادرا باب أول إلى القاعة
الرحبة ، ثم اتجها إلى اللوان الزجاجى الذى خلعا فيه ملابسهما مجيبين
فى طريقهما على بضعة تحيات من هنا وهناك ...
« نعيما » .. « أنعم الله عليك » .

وفى اللوان تمدد « شوشة » على إحدى الأرائك وأقبل عليه
« عميره » المدلكاتى المكسأتى فأخذ يدلكه ويكبسه ويطلق عظامه ،
وانهمك « سيد » فى خلع المناشف وارتداء ملابس النظيفة ، ولم يكد
يقم اللبس حتى صاح « بعميره » :

— فىن الأكل يا عميره ؟

— حالا حاجييهولكوا .. أنا أصلى ادبت الرغيفين « لعبده » بتاع
المستوقد يحطهم فى الفرن عشان يفضلوا سخنين .
— زمانه طير نصهم .

— ما تخافش أنا نبهت عليه انه ما يمدش ايده عليهم ، وهوا يخاف
بنى ويعمل لى حساب .

وضاق « سيد » ذرعا بطول التكبيس والتدليك فصاح بأبيه :

— ماتيالله بقى يابا .. آمال كنت بتقول انك جعان ازاي ؟

— أهو خلاص .. يالله يا عميره انت روح هات لنا الأكل .

ونھض « شوشة » وأخذ فى ارتداء ملابس ، وبعد برهة أحضر
« عميره » الأرفة الساخنة يتصاعد من باطنها بواخ اللحم ورائحة
الشواء ، وجلس كل منهما يلتهم رغيفه فى أنهماك وصمت ، وبين
آونة وأخرى يتبادلان جرعة من « القلة » التى أحضرها « عميره » ،
وبعد الانتهاء من الطعام صاح « شوشة » « بعميره » :

— يا عميره .

ودنا « عميره » مسرعا .. فمد الرجل يده ببضعة قروش قائلا :
 — خذ هات لنا كل واحد كباية شاي وخذ الباقي .
 — كثر خيرك يا معلم شوشه .

وبعد هنيهة كان كل منهما يجرع كوب الشاي فى لذة واستمتاع ،
 وأخيرا نهض الرجل والتفت بوشاحه الصوفى ولف ابنه بجاكته القديمة ،
 ثم غادرا الحمام عائدين إلى البيت بعد أن ابتاع « لأم آمنة » نصيبها من
 الكفتة والكباب .



نام الثلاثة : الابن والاب والجدة انعم ما يكون بالا ، وأقر ما يكون
 نفسا .. وكان « سيد » أكثرهم هدوءا وطمأنينة بعد أن وثق تماما من
 الخلاص من بدلة النحس ، ومن العمل المشئوم الذى يقوم به أبوه ..
 وبعد أن وعده الأب وعدا جازما بأنه لن يموت .

وكانت « الجدة » أول من استيقظ ، فأخذت تبشر أعمالها العادية
 التى تعودت أن تقوم بها بطريق التحسس والتوجيه .

واستيقظ بعدها « سيد » ، وكان اليوم جمعة .. وهو يوم يتلف
 عليه « سيد » لكى يستيقظ متأخرا حتى يثار من بقية الأيام التى يبكر
 فيها فى الاستيقاظ ، ومع ذلك لا يكاد يحل اليوم حتى يجد « سيد » نفسه
 أشد رغبة فى الإستيقاظ مبكرا عنه فى بقية الأيام .

وأخذ « سيد » يعد البلى ويجهز أحد الجوارب لعمل كورة ثم
 خرج لينادى عليها حتى يتفق معه على عمل طائرة ، ولكنه فوجئ « بعلی »
 وأمه وأخته وأبيه هابطين على السلم ، وقد حملا بعض السلال .
 وصاح به « على » :

— على فبين كده .. بربطة المعلم ؟

— معزومين النهارده عند أخت المعلم عز فى لهبابه .

— حانتغدوا هناك ؟

- أبوه .
- يا بختكم .
- ما تيجى معنا ؟
- على إيه .
- قول لابوك وتعالى .
- أبويا لسه نايم .
- وكانت الأسرة قد وصلت إلى الباب ، فقال المعلم خشت وهو يذلف إلى الخارج :
- ابقى صبح لنا عليه لما يصحى .
- وقالت زكية وامها :
- وابقى صبح لنا على الحاجه .
- وغاب الأربعة فى الطريق .. ووقف سيد وحده يجهز الكرة الشراب ، ولكنه ما لبث أن اصاح السمع ، فقد بدا له كأن هناك من يناديه ، وبالأصوات ميز صوت أبيه يأتى من الداخل :
- يا سيد .
- وبدخل الصبى يعدو إلى الداخل ملبيا نداء أبيه ووجده ما زال فى نرائه ، وقد لف رأسه بالوشاح الصوفى واحكم تغطية جسده بالبطانية . ووقف سيد بجوار أبيه :
- أبوه بابا .
- اسمع يا سيد .. انا عايزك تاخذ المفاتيح ، وتروح تفتح الحنية ، وتترك قاعد لغاية ما توزع الميه على السقاين وبقية الزبائن .. النهارده الجمعه مفيش شغل كثير ، لكن عايزك تاخذ بالك كويس وتفتح عينك ، تيد كل اللى تصرفه فى الدفتر واللى تقبضه اكتب قصاده .. وحط القلوس فى الكيس .. فاهم ؟
- ولكن « سيد » كان مشدوها فصاح بأبيه فى جزع :
- ليه بابا ؟

— ولا حاجة أنا أصلى حاسس ان جتتى مخدله .. الظاهر انى
خدت برد .. خلاص يا سيد .. الظاهر ان الواحد عجز .. مابقيناش
نستحمل زى زمان .. لكن نقول إيه .. الواحد مش عايز يعترف انه
ساب الشباب .

ثم حاول التضاحك ، ولكن قطع تضاحكه نوبة حادة من السعال ،
صعدت الدم إلى وجهه ، والدموع إلى عينيه ، وعندما انتهى من سعاله
عاود الضحك والحديث قائلاً :

— يا الله يا ابو السيد .. ورينا الشطاره ، عايز أشوفك راجل .

— لكن يابا انت عيان ؟

— ولا عيان ولا حاجة .. أنا عايز أستريح لى يوم .. والا منتش
قادر على الشغلانه ؟

وانتابت الصبى نوبة من الحماس أزاحت جزعه على أبيه جانباً
فصاح فى حزم :

— مش قادر ازاي .. دانا أدها وأدود .. ايدك على المفاتيح ..

دانا سيد ابن المعلم شوشة .. على سن ورمح .

وخطف سيد المفاتيح والدفتر والكيس الفارغ واندفع يعدو إلى
الخارج ، وصادفته « أم آمنة » فصاحت به :

— على فين ! ؟ إيه الحكايه ؟

— رايح افتح الحنفيه .

— تفتح الحنفيه ! ؟ ليه .. وأبوك فين ؟

— عايز يستريح شويه ، عن أذنك بقى لحسن مستعجل .

— هوا إيه أصله ده ! ؟ استنى شويه أما أشوف إيه الحكايه ؟

— يا ستي أنا مش قاضيلك ا عندى شغل .

ثم اندفع يعدو إلى الطريق ، واستمر فى عدوه فلم يقف حتى

وصل إلى الحنفية واعتلى مقعدها فى فخر وكبرياء .. وصاح فى الجمهور المحتشد الصاخب :

— بس منك له .. كل واحد يقف زرا التانى .. اللي حايرج عن الصف مش حاصر له إلا فى الآخر ، واللى حايعمل زبطه مش حاصر له .. واللى مش عاجبه يلعن أبوه فى الأرض .. فاهم منك له والا لا .

— وضج الناس بالضحك .. وانتظموا فى الصف وهم يتساءلون :

— آمال مين أبوك يا سيد ؟

— تعبان شويه .. مالوش كيف .

وتعالت التعليقات ما بين « لا بأس عليه » و « بعد الشر عنه » و « سلم لنا عليه » .. الخ .

وظل سيد منهكا فى العمل ، فرحاه به ، مستمتعا بمركزه الرفيع حتى انتهى من الصرف ، وقد نسى خلال العمل كل شئ عن مرض أبيه وجزعه عليه .

وبعد الانتهاء أغلق الحنفية وسار حاملا الكيس المليء هانئا سعيدا ، بفكر فيها ينوى أن يقول لأصحابه عن مغامرة اليوم وعن اعتلائه عرش المياه ، وتحكمه فى أفواه الناس .

ولكنه ما كاد يقترب من الباب .. حتى عاوده جزعه الخفى وأصابه قلق على رقدة أبيه ، ولكنه دعا الله أن يكون قد عافاه وأن يجده قد خرج إلى المقهى .

ودلف إلى الداخل فلم يجد جدته فى مكانها فى الفناء ، فزادت خيفته وانجه رأسا إلى حجرة أبيه فلم يجده بها لا هو ولا فرائشه . واستدار يبحث عنه فى الشقة فوجد العجوز جالسة قبال الأب ، والاب مضطجع على فرائشه فى حجرة الصحارة مغمض العينين وفوق جبينه خرقة مبللة وقد تعالت أنفاسه فى صوت مسهوع .

وأحس الصبى بقلبه يهبط بين جوانحه ويرجفة تصيبه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وتقدم فى حذر سائلا جدته فى همس جزع وتشاؤم :

— انتوا قاعدين فى الأوده دى ليه ؟

وأجابت جدته :

— الأوده التانيه بارده وقزازها مكسور .. ويتجيب هوا كبير .

— وهو ازيه .. لسه تعبنا ؟

— زى ماهو .. البرد مزومه .. ماقلت بلاش الحمام .. وقلت

اسخن. لكم ميه فى الصفيحه .. بس كان لزومه إيه ؟

وفتح الأب عينيه ونظر إلى ابنه .. وقال فى صوت ضعيف :

— عملت إيه يا سيد ؟

— خير بابا ، صرخت الميه ، وجمعت الفلوس وايدتها .

— قفلت الحنفية كويس ؟

— أيوم بابا .

وأغمض الأب عينيه مرة ثانية .. وبدأ كأنه يرغب فى الراحة من

الجهد الذى بذله فى الحديث ، ونكلت أم آمنة موجهة القول إلى سيد

— اسمع يا سيد .. خش كل لك لقمه .. عشان عايزاك تروح

تشتري لزته انجليزى .. وشوية لبان ذكر .. ويخمس قروش برتقال

ولون حلو .

— أنا مالباش نفس أكل .. حاروح اشتري الحاجه فى الأول

فبل ماكل .

— خش كل لك لقمه الأول .. انت خرجت من غير غطار على لحم

بطنك .

— طيب حاكل .

ودخل « سيد » إلى المطبخ فوضع قطعة من الجبن فى شقة وخرج

إلى جدته وهم يتضم منها قائلًا :

— أنا حاكل فى السكه .. هاتى الفلوس ، عشان اروح أجيب

الحاجه .

— فلوسى ؟ !!

وأخذت العجوز تبحث فى صدرها وجيوبها فى حيرة ، وعى
تردد :

— الفلوس .. دانا ممعيش ولا نكله .

ثم همست إلى شوشة فى رفق :

— معاك فلوس يا شوشه ؟

— وهز شوشة رأسه علامة النفى .

ووقف سيد برهة مترددا ، ثم قال وهو يشير إلى كيس النقود التى
جمعها :

— ماهى الفلوس أهى .. ناخذ منها ريال ؟

ولكن الاب فتح عينيه فى جزع :

— أوعوا تمدوا ايديكم على اللى فى الكيس ، دى عهده .
وأجاب سيد :

— مغلش يابا ، ماحنا حناخده سلف وبعدين نرده .

— أوعى تمد ايدك عليه ، دى تبقى سرته .

— لكن لازم نجيب لك اللزقه واللبن والبرتقان .

— مايفيش لزوم .. أنا كويس .

وتدخلت الجدة قائلة فى ضيق وقلق :

— مانتش كويس أبدا .. لازم نجيب اللزقه واللبن ، ولانم نجيب

حاجه تبل ريقك .. حاجه تقوى بيها .. انت من أول النهار ماحطتش
حاجه على لسانك .

وساد الصمت برهة ثم قال الاب فى صوت ضعيف :

— أنا ليه ريال عند الحاجه زمزم بقية حساب قديم ، أوصل خده

منها وروح اشترى اللى انتو علوزينه .. وإذا ما رضيتش قول لها ان

أبويا عيان ومحتاجينه ، عشان نجيب بيه دوا .

— طيب يابا . .

وانطلق سيد يعدو فى الطريق وييده شقة العيش والجبن فلم يقف
إلا عند مسط الحاجة زهرم .

وكانت الحاجة جالسة فى مصطبتها جلستها المعتادة .. فاقبل
الصبي وسألها فى لهفة وعجلة :

— يا حاجه .. عايزين الريال اللى عليكى لابويه .

وفوجئت المرأة بقول الصبي ونظرت إليه فى شزر ودهش وقالت
هائئة :

— ريال! ؟! إيه يا عומר !

— ريال قديم .. بقية حساب الميه .

— ما كانش يتعز يا خويا .

ثم رفعت يدها وأشارت بكفها مفتوحة أمام وجهه وأردفت فى
سخرية :

— قل له ييجى ياكل به ميمار .

واحتد سيد وقال ضارخا :

— هو ما بيكلش ميمار .. احنا عايزين الريال .

ولم تجب امرأة السوء .. بل تشاغلّت باعطاء أوامر إلى صبيها
« جاد » ، وصاح « سيد » فى حدة وغيظ :

— احنا عايزين الريال .. هاتى الريال .

ونظرت المرأة إلى « سيد » نظرة حنق وتهديد عندما رأت أنه بدأ
يلفت نظر الزبائن بصياحه ، ونهرته قاتلة :

— امشى يا واد من هنا بلاش زيتيه .

ولكن سيد أجاب فى عناد :

— مش حامشى إلا لما آخذ الريال .. هاتى الريال يقول لك .. احنا

عايزينه عشان نجيب دوا لابويه .. أبويه عيلان .

— ما يعيا والا ينفلق .. ان شالله حتى يموت .. أنا مالى وماله .

ولم يطق « سيد » سماع قولها فاندفع بأقصى قوة وأطبق ببديه الصغيرتين على عنقها صلحا وصوته بختنق بالبكاء :

— هاتى الريال يا بنت الكلب .. أن شالله تموتى انتى .

وزدهلت المرأة من تهجم الصبى عليها وما لبثت حتى دفعته فى صدره دفعة قوية طرحته أرضا .

وعلا بكاء الصبى ، ونهض من وقته محاولا الهجوم عليها مرة ثانية ، ولكن تلقاه هذه المرة صبيها « جاد » فلطمه بيناه لكمة قوية على صدغه ألغته أرضا ، وحاول الوقوف مرة ثانية فضربه « مشط » بقدمه نهوى إلى الأرض ، وظل كلما حاول القيام أعاده إلى الأرض ، والصبى يصرخ من فرط الألم والبكاء والعجز حتى تطوع أحد الزبائن باقتاذه من بين برائنه .

ولم يجد « سيد » بدا من الانصراف والدمع ينهمر من عينيه وتطرات الدماء تسيل من شفتيه على جلبابه ، وقلبه يفيض بالمرارة والحقد والألم وبغض الناس .

ولم يعرف كيف يعود إلى البيت دون أن يحضر الدواء إلى أبيه ولم يعرف كيف ينتقم من « زمزم » وصبيها « جاد » ، وهو عاجز ضعيف .

وسار « سيد » يضرب على غير هدى ، ونظر إلى السماء مسائلا نفسه : هناك حقا يوجد رب مطلع على كل شيء ؟ تقدير على كل شيء عادل رعوف رحيم ؟

— وهل رأى كل ما حدث وأقره . وسكت عليه .. لا .. لا .. لا بد أنه سيفعل شيئا .

وأخذ عقل الصبى الباطن يجرى بما يود من الله أن يفعل محاولا التنفيس عن كربيته وإخراج الغضب المكبوت والانتقام فى أفكاره من خصمه بعد أن عجز عن الانتقام فى الواقع .

أجل .. ان الله التقدير العروف لن يرضيه هذا .. انه سينتقم له .
ولكن باية وسيلة ؟ وعلى أى نمط ؟

يفعل « جاد » ما يغضب « الحاجة زمزم » .. فتسبه وتنهره وتقذفه
بالشومة التى فى يدها ، تصيب الشومة رأس « جاد » فيفقد أعصابه
ويندفع فى ثورة عنيفة هاجما على المرأة ممسكا سكينه التى يقطع بها
المبار والكرشة فيدفعها فى بطنها ويظل يمعن فيها القطع والطنعن
والتمزيق حتى يجعلها جثة هامدة ، ولا يكاد ينتهى من جريمته حتى تزلزل
الأرض زلزالها فتتهتز جدران المصمت. وينقض سقفه فوق رأس « جاد »
فيهشمه ويسحق جثة المرأة .

وتنهذ « سيد » وأخس بالكثير من الراحة ، وهو يصل إلى هذه
النتيجة من الانتقام الإلهى .

ولم لا يحدث هذا ! . اليس الله تنديرا على كل شئ ؟

وفى تلك اللحظة كان المعلم شوشة يتلمل ملقا ويسأل أم آمنة :

— هو سيد لسه ما جاش ؟

— لسه .

— هوا غاب كده ليه ؟

— أما اطلع بره أشوفه .. يمكن الأتى حد من الولاد يدور عليه
ويستعجله .

وخرجت العجوز إلى باب الدار ، ووقفت صامئة برهة ثم أخذت
تنادى بعض الصبية من أصحاب « سيد » صائحة :

— يا محمود .. يا دقدق .. يا زكى .. ياولاد حد منكم يشوف لى

سيد .

ولم يجيبها مجيب ، ولم تسمع ردا سوى قرقعة أمت من ورائها أعقبها
دوى شديد جعلها تجثو على الأرض .

وكان شوشة يرقد فى فرائشه .. فسمع نفس القرقعة والدوى ،
وكان الشق الذى فى جدار الحمام قد أخذ يتسع ، وبدأ ركن الجدار
ينهار والسقف من فوقه لا يجد ما يستقر عليه فيهبط فى قرقعة شديدة .

وهم شوشة بالنهوض متجها إلى باب الحجرة ولكنه سمع قرقعة
فوقه ووجد بعض الحصى والأتربة تنهار من بياض سقف الحجرة وفجأة
أحس كأن جدران الحجرة تتمايل ثم انقضض عليه حجر من أعلى فتلقاه
بيده وأقيا منه رأسه .. وتقدم خطوة أخرى .. ليتلقى قدرا متتاليا من
الحجارة تصيب رأسه وكتفيه وتصرعه أرضا .

وصرخ شوشة وأخذ يتلقى بيده الحجارة المنهارة وقد سالت الدماء
من رأسه فاختلطت بالتراب والثياب وظلت الأتربة والحجارة تنهار عليه
كالسيل وأحس بنفسه يضيق وبالأتربة تملا خياشيمه ، وجاهد فى
القيام حتى يرفع رأسه من بين الأتربة ، ولكنه أحس بالعجز وشعر
بالأتربة تتكاثر ، ولم يعد يبصر شيئا وتعذر عليه التنفس كأنه غريق ،
وتملكه ضيق شديد وتنى لو قتله الحجر الأول أو استطاع هو أن يخنق
نفسه ، ولكنه كان عاجزا عن كل شيء إلا الارتجاف تحت الركام ، وأخيرا
فقد الاحساس بكل شيء ، وانتهى العذاب .

وفى الخارج كانت صيحات العجوز تشق أجواز الفضاء وكانت
ترفع يديها إلى أعلى صائحة :

— يارب .

وحاولت أن تتلمس طريقها إلى الداخل لتتفقد المريض الراقد ، ولكنها
لم تكد تصل إلى الباب حتى كانت أكوام الركام والرماد والانقاض تسده
بعد أن انهار ركن البيت الذى يضم دورة المياه وحجرة الصحارة وجزء
من القاعة .

وتجمهر الناس وعلا الصياح والضجيج .

وكان « سيد » ما زال يضرب فى الطريق ، وهو يتصور المسبب
متهدما على رأس « زمزم » و « جاد » ، مستشهدا بذلك على قدرة الله

وعدله ، ومرت به سيارة الحريق ، وهى تقرع الجرس وتندفع مسرعة ..
فسأله نفسه :

— يا ترى حصلت حريقه فین ؟

ووجد السيارة فى اتجاه بيتهم ، فحث الخطا ليتمتع بمشاهدة
الحريق واطفائها .

وعندما وصل إلى قرب البيت كان الزحام قد سد منافذ درب القط ،
وكانت عربة الحريق تنتظر فى خارج الدرب لعجزها عن الدخول منه
لضيقة ، وأخذ الصبى يصيح متسائلا وسط الزحام ، وقد تملكه الدهش ،
وهو لا يرى أثر الدخان :

— ايه ده ؟ ايه اللى جرى ؟ هى فین الحريقه ؟ أنا مش شايف لها
أثر .

وكان الناس فى شغل عن الصبى ، ولكن « المعلم شичه » أبصره
فصاح به فى جزع :

— تعالى يا سيد هنا .. ماتروحش البيت .. لحسن البيت اتهد .
وصاح « سيد » :

— اتهد .. بيتنا احنا اتهد ، وابويا ؟

وكان الجمع قد التفتوا إلى الصبى وعرفوه ، وكان بينهم « المعلم
على الحمى » الذى أمسك بيده وأبعده عن الزحام قائلا له :

— تعال يا سيد .. ما تخافش تعال .. أهم الرجاله دخلوا
بطلعوه .

وكان « سيد » مذهولا .. مبهوتا .. فانساق مع الرجل ووقف وایاه
بجوار بقالة « المعلم شичه » .

وأخذ رجال الشرطة يبعدون المحتشدين عن البيت ويفسحون الطريق
لرجال المطافى الذين أخذوا فى رفع الانقاض والبحث عن المصابين .

وبين صخب الناس وضجيجهم استطاع « سيد » أن يسمع صوت
« جدته » يعلو بين الناس أشبه بأنين جريح . وكان يقف وسط الزحام

امام البقالة ، وقد أمسك بيد « المعلم على الحمى » ، ولكنه لم يكذب بسمع صياح « جدته » حتى تخلص من قبضته واندفع يشق طريقه وسط الأجساد المتزاحمة حتى وصل إلى مقربة من البيت ، وكانت واجهة البيت سليمة لم يبد عليها أثر للانهيال الذي حدث في الداخل اللهم إلا آثار الأثرية المتصاعدة من النوافذ ورجال المطافئ المتكاثرين حول البيت ، وفي داخله ، الدائبين في حركة مستمرة .

وأبصر « سيد » « جدته » ، وقد تهالكت أمام باب البيت المواجه . . فاندفع إليها مرتبها في أحضانها ، وضمتها هي إليها في لهفة كأنها غير مصدقة أنه قد عاد وصاحت بصوت منتحب :

— أبوك يا سيد ! . .

— ماله يا ستي ؟ هو فين ؟

— جوه يا سيد ، وقع عليه البيت . . أنا خرجت أشوفك لما استغيبتك وتعمدت أنادي على حد يدور عليك ويدوبك جيت أخش سمعت صوت زى الرعد ، فضلت أصرخ وأنادي وجيت أخش أطلعه لقيت الباب مسدود بالحجارة والتراب .

وقبل أن تتم العجوز حديثها الباكى تركها الصبي واندفع في جنون إلى باب البيت وحاول رجال المطافئ حجزه ، ولكنه أفلت منهم واندفع إلى الداخل صائحا :

— أبويه . . عايز أشوفه . . آبا . . آبا . . انت فين يابا ؟

وعندما وصل إلى الفناء وصيحاته ترن في أجواز الفضاء فوجيء برجال المطافئ يخرجون من باب الشقة حاملين إحدى النقالات وعليها شيء مغطى ببطانيته التي يتغطى بها ، وقد أخذوا يشقون طريقهم بين الأثرية والحجارة .

واندفع الصبي في صياحه :

— آما . . آبا .

وربت عليه أحد الرجال بعطف ، وقال له في صوت يقطر اثقاقا :

— بس يابنى بس .. قضا رينا .. حاتمعل فيه إيه ؟

وتذكر « سيد » جثة « شحاتة » المخطاة .. التى حملها الرجال ووضعوها فى الصندوق ، ولم يعودوا بها أبدا ، وتذكر الضياع بلا أمل فى استرجاع ، والفقد بلا رجاء فى استعادة ، وأصابته رجفة شديدة واندفع إلى الجسد المسجى على النقالة وارتمى عليه صائحا :

— آبا .. آبا .. حايودوك نين يابا .. مش حاخليك تخرج أبدا .. دول مش حايرجعوك تانى .. أنا عارف .. آبا .. آبا .. رد على يابا .. انت مش فاكرك انك قلت لى امبارح انك مش حاتموت أبدا ، فاكرك والا مش فاكرك ، آبا .. ما تخرجش والنبي يابا .

وأحس الرجال الشداد الغلاظ الذين يحملون الجثة فى المحفة .. بالدمع يتترقق فى مآقيهم ، وهم الجافو المآقى الجامدو الشمور المتعودون على مناظر الموت ومآسيه .

وأمسك أحدهم بالصبي فابعده عن النقالة وساروا بها فى طريقهم إلى خارج البيت ، وكانت عربة الاسعاف تقف بين الزحام على مقربة من البيت ، ولكن حملة النقالة تهامسوا مع رجالها برهة عادوا بعدها بعريتهم تاركين الجثة .

وبرز بين الزحام « على الحمى » و « المعلم شحيه » وكان بيت « الحمى » أقرب البيوت إلى البيت المهدوم فصاح الرجل :

— هاتوه عندى هنا .. اوعى يا جدع انت منك له .. وسع .

ورفع الرجال الجسد بالنقالة واختفوا بها داخل بيت الحمى .

وارتمى « سيد » يتمرغ على الأرض بلكيا ، فحمله أحد الرجال ووضعوه فى أحضان « جدته » .

وبدا الرجال يحضرون بعض العروق الخشبية لسند جدران البيت حتى لا تنهار بقيتها .

وبدا الزحام يخف رويدا رويدا عندما أقبل المعلم خشت وعائلته من زيارتهم ، ولم يكذب يبلغهم الخبر حتى اندفعت امرأته وابنه إلى

« أم آمنة » يولولان ويكيان .. واخذ الرجل يضرب كما يكف ، وقد دمت عيناه واخذ يصيح :

— يا ساتر يا رب .. لا حول ولا قوة إلا بالله .. يا ساتر يا رب .
ووقف « على » يرقب « سيدا » مرتبها على عتبة بيت « الحمى » ،
وقد أخذ ينشج بكيا .. ونظر إليه فى ذهول وتذكر القول الذى كان يعايره
به هو وبقيّة الصبية « أبوك السقامات » ، واحس بحزن شديد كأنها كان
هو المسؤول عن كل ما حدث ..

ويدا كأنها يحول أن يرفع مباء ضميره ويحدث نفسه قائلا انه هو
وزملاؤه إنما كانوا يهزلون .. وأنه لم يخطر ببالهم قط أن يموت السقا
حقا .. ويترك ابنه المسكين وحيدا فى الحياة بلا عائل ولا معين .

ولم يشعر إلا والدمع ينهمر من عينيه واقترب من « سيد » وضمه
إليه وصاح ، وهو يهتر من البكاء :

— معلش يا سيد .. مترعلش يا سيد .. ماكائش تصدى أبدا ..
لو كنت أعرف .. ماكنتش قلت لك كده أبدا .. حقك على يا سيد .
واقتلت زوجة « على الحمى » على الجمع .. وهى تكفكف دمعها
قائلة :

— تعالوا يا جماعه خضوا من السكه .. تعالوا اتعدوا عفدنا لغاية
ما نعمل اللازم ..

ومرت الليلة بين البكاء والترحم وقراءة القرآن والعزاء ، ولم يكن
يمكن لأحد من أهل الدار المهدومة المبيت بها .. خشية أن يحدث انهيار
آخر ، فقضت عائلة « الخشت » ليلتها عند نسيبهم « المعلم عز » ..
وقضت « أم آمنة » و « سيد » ليلتهما مع الجثة فى بيت « على الحمى » .
وكانت ليلة عجيبة تلك التى مرت « بسيد » .. ليلة كانت لا تكف
أذناه خلالها عن سماع التحيب والولولة آتية من كافة النواحي منبعثة
من جميع الجهات .. وفى اللحظات التى كان ينمى فيها لم تكن تفارق
أحلامه صورة تلك الصرة المشؤومة والبذلة المنحوسة .. و « شحاتة »

تارة مسجى ، وتارة يعدو راقصا .. تم صورة أبيه يجلس فى الحمام ، ليؤكد له انه لن يموت ، وأنه لن يرتدى البدلة ، ولكنه لا يلبث حتى يراه هابطا فى المغطس ، ولا يلبث حتى يرى المستحمين جميعهم يرتدون حلا مثلها ويمسكون الجامر والقماقم ثم يعدون وراءه صائحين : « أبوك السقا مات » .. فياخذ فى رجمهم بالطوب .

وتقبل الفجر تملكه نعاس طويل استيقظ منه على اثر ضجة فى البيت وحركة ، وشاهد نفس المناظر التى شاهدها يوم أن رحل « شحاتة » عن الدار محمولا فى صندوقه ، وأبصر نفس اللوفة البيضاء الشعر ، وقد أمسك بها رجل ، ثم أبصر برجل آخر يحضر نفس الصندوق الخشبى .

عجبا لهذه الدنيا ! .. أبوه حقا .. هو الذى تعد له كل تلك الإجراءات الرهيبة ؟

أبوه حقا هو الذى هدم البيت عليه .. فمزق جسده اربا ؟ وجاد ؟ والحاجة زمزم ؟ ألم يهدم عليها شيء ؟ . ألم ينقض عليها حجر ؟ . أما زالا يرتعان فى بحبوحة من السفالة والظلم والخسة والخطئة والدناءة ؟

حقا .. أن الله قدير على كل شيء .. ولكن قدرته تبدو وكأنها قد انحرفت فوضعت فى غير موضعها واتجهت اتجاها غير مطلوب ولا متوقع : أو هو قدير حتى على ما يراه العبد ظلما وحتى على فعل ما لا يقبله عقل المخلوق .. وما لا يقره منطق .. ولا ما يراه الانسان حكمة وعدلا ؟ .

لقد نظمه جاد وزمزم فدعا الله أن يظهر قدرته ويرد كيدهما ، ويهدم المسط على راسيهما ، ولقد أظهر الله قدرته وهدم بيتا فى نفس اللحظة التى دعاه سيد إلى ذلك ، ولكن يبدو أنه أخطأ البيت ، خطأ مقصودا ، أو غير مقصود .. وكانت نتيجة الخطأ أن أصابه بشر ما يمكن أن يصاب به .. لقد أخذ منه أنباه .

لم ؟ ! وأين سيذهب به ؟ ! إذا كان سيأخذه إلى السماء فما حاجته به ؟ اليس هو أشد منه حاجة إليه ؟ أهو محتاج إليه لكي يصرف عليه ويضبه إليه ؟ إذا فلم يصعد به إلى السماء ؟

إذا كان سيهبط به إلى باطن الأرض غاي شيء سيغيده منه ؟

وأطلق « سيد » زفرة حارة . وعاود البكاء والنشيج وهو يبصر الصندوق يدخل إلى الحجرة التي بها أبوه .. ثم يخرج محملا بحمله الثمين .. الضائع .. المفقود .

انتهى .

لا فائدة .. انهم يخرجون به إلى الفناء ثم إلى الطريق ، وبعد لحظة سيتحركون به .. ثم يعنون وحدهم .

لم لا يسير معهم ، حتى يبقى بجواره إلى اللحظة الأخيرة ؟

لم لا يرى الطريق الموحش .. الذي تعود أبوه السير فيه ؟

وفجأة قفز « سيد » من جلسته التي شرد خلالها بذنه .. وبدا كأنه نوى أمرا . ثم اندفع يمدو إلى الطريق متجها نحو بيتهم .. خائضا بين الأتربة والحجارة حتى وصل إلى حجرة الصحارة .. المليئة بأكوام الأتربة المنهارة ، ولم يتمم في الحصول على بغيته .. فقد وجدها كائنة أمامه فوق الصحارة كأنها تناديه : « ها أنذا » .

ومد يده فأخذ الصرة .. وأسرع بفتحها وأخرج منها البذلة ، فدرس ساقيه في البنطلون الطويل المهرول ، وأدخل ذراعيه في الجاكيت الواسعة الفضفاضة ، ثم وضع الطربوش على رأسه فهبط حتى استقر على أذنيه ، وعندما هم بالخروج لمح إحدى اللاتعات التي كانت معلقة على الحائط - اللاتعة التي حاول شحاتة أن يشرحها له - قد وقعت على الأرض بين الأتربة ووقع بصره عليها ، فاستطاع لأول مرة قراءتها بسهولة .. وخيل إليه أنه يسمع صوت شحاتة يقرأها ويعيد شرحها له :

« والصابرين في البأس والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وحمل « سيد » اللافقة وطبقها ووضعها فى جيب الجاكته ، ثم أسرع إلى الخارج ، فوجد الموكب على وشك التحرك .

وفوجيء القوم وهم يرون قزما ، يهرول فى بدلة سوداء مضفاضة وطربوش قد غطى اذنيه وكاد يغطى عينيه ، وقد اندفع يعدو حاملا القمقم ، متخذا مكانه امام النعش .

وحدق القوم بأبصارهم فى ذلك المخلوق العجيب فإذا به سيد قد ارتدى حلة الأندية .

وغلب القوم النائر ، وتفجرت الدموع من مآقيهم .. واقترب المعلم خشت من « سيد » وهو ينشج باكيا .. وأخذ يربت عليه بحنان شديد مواسيا مترفقا طالبا منه الا يسترسل فى الحزن ، مؤكدا له أن كل أهل الدرب إباؤه ، سائلا إياه أن يبقى مع الصبية حتى يفرغ المشيعون من تشييع الجنازة .

وازاح « سيد » الطربوش الواسع عن عينيه ، ونظر إلى الرجل وقد بدا عليه التجلد والصبر والهدوء ، والإيمان وقال فى صوت هادئ وكأنه يردد قطعة محفوظة حفظها عن ظهر قلب :

— انى أود أن اكرمه .. كما اكرم سواه ... وأنا لست حزينا .. انه ليس بأول أب يموت .. ولا كنت بأول يقيم يفقد أباه .. هذه أشياء تحدث كثيرا فى الحياة ، فيجب الا ننظر إليها على أنها مأس قد خصنا بها القدر ، يجب أن نعرف أن هذه هى سنة الحياة وطبيعة الاحداث فيها .. يجب الا نعتبرها مفاجأة .. بل نقبلها بالصبر .. والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون . يجب أن نصبر ونواصل السير فى الحياة لنقوم بواجبنا نحو الخالق والمخلوقات .. حتى يصينا قضاء الله .

وذهل المشيعون .. ولم يملكوا سوى أن يتركوا الصبى يسير ، وبدأت الجنازة سيرها .. والصبى على رأسها .. وقد بدا عليه مظهر التجلد .. لولا دمعتان تجريان فى صمت على خديه .. ولولا

همسات كان يهمنى بها إلى نفسه وكأنه يتم بها الجزء الباقي من قطعة المحفوظات :

« بهذا أحسست بالسكينة والاستقرار ، لولا ذلك القلب الذى لا يحتمل صبرا ولا يقبل منطقاً : القلب الناتج بين الضلوع الباكى فى الحنايا المقطر فى الصدر بدل الدمع دماً » .

واستمرت الجنازة فى السير ، وما زال الهاف يهتف فى نفس الصبى : « انها مسألة ترويض لا اقل ولا اكثر .. ان كل حدث على الأرض يهون بالتعود .. لقد نزلت إلى ساحة الأموات فوجدتها سخریات فى سخریات » .

واشرفت الجنازة على المقابر وبدأت إجراءات الدفن ، ووقف « سيد » يرقبها وهو ذاهل شارد لا يחס بها حوله .. ولا يسمع سوى الصوت الهاتف يردد :

« كنت أسمعها فى كل جنازة أسير امامها .. وكنت أراها فى كل ميت أواريه الثرى ، انى أحس بمقعة من تشييع الجنائزات .. نهى تقربنى إليها وتمتعنى برفقتها وفكرها وتهون على نفسى مسألة الموت وتعدنى لاستقباله غير وجل ولا هيب .. وعندما تهون على الإنسان النهاية .. تهون الحياة » .

وهبط القوم بالجثة إلى باطن الأرض فواروها الثرى ثم صعدوا وحدهم ووضعوا الحجارة فوق الحفرة وسويت الأرض فعادت كما كانت .

ورجع القوم وبينهم الصبى والصندوق الفارق .. بعد أن أفرغ حمولته من باطن الأرض فزاد ساكنو القبور ساكناً .. ونقص الأحياء حياً .

الأحياء !!

يا لسخرية الأرض من الحى والأحياء !

كل ما على الأرض أبقي من الحى .. وبقايا الحى .. ومخلفات
الحى .

كم اختال عليها من قبلنا كل مختال فخور .. وكم مشى على ظهرها
مرحاً كل منتفخ الأوداج مغرور .. وكم تثنت عليها الغيد وتمايلت الحور
.. فأين ذهب المختال وراح المغرور .. وأين صارت الغيسد وآلت
الحور !

ذهبوا كلهم .. كانوا يملئون الأرض ضجة وحركة .. وكانوا هم
الأحياء وغيرهم عدم .. ونى غمضة عين صاروا هم العدم وغيرهم
الحياة .

كل جامد فى الأرض أبقي من الحى .

هذه الصخرة الجامدة أبقي على الأرض من هذا الرأس الحى المفكر
.. هذا الحجر الجامد الصلد أثبت فى موضعه من صدر الحسنة
المكتنز بالحياة .. الصائر إلى ضمور المنتهى إلى فناء . هذا ينبوع
البارد الجارى فى الوهاد أكثر استمراراً فى التدفق من الدماء الحارة
الجارية فى العروق الصائرة إلى جفاف وجبود .

يا للحى التمس المسكين .. حتى قبوره ومخلفاته إلى الزوال
مصيرها ، وإلى الفناء مآلها ومقتهاها .

« صاح هذى قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد » .

ما أوهى خيط الحياة .. وأضعف مادة الأحياء .

حى واحد .. هو الباقي القوى .. هو « الله لا إله إلا هو الحى
القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السماوات وما فى الأرض من ذا
الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء
من علمه إلا بما شاء » .

وما أقل ما يشاء وأكثر ما لم يشأ .

الخاتمة

والصابرين فى البأساء

فى اليوم التالى كان سيد يتربع امام الحنفية متخذا مكان ابيه ، وقد كسا وجهه مظاهر الجد والحزم ، واصطف القوم امامه فى صمت ورهبة وخشوع .. بلا ضجيج ولا صخب ، ولا صياح ولا ضحك ، اللهم إلا كلمة « البقية فى حياتك » او « البركة فىك » يلتونها على الصبى فى تأثر وخشوع كأنهم يخاطبون شيخا كبيرا .

وفى نهاية اليوم .. حمل الصبى كيس النقود إلى مكتب الشركة بالفجالة وهناك سلم العهدة ، وسأله الحراف أن يحضر صباحا لمقابلة المدير .

وفى الصباح نظر إليه الرجل فى دهشة ثم صافحه بمزىا ، وأنبأه أنه سيستمر فى عمل ابيه .. وأنه سيجعله خليفة على الحنفية .

ومنذ ذلك اليوم وسيد قد حل محل ابيه وظل ضيفا هو وجدته فى بيت « على الحمى » حتى رمت دارهم وعادا إليها .

ومرت الايام والصبى يسير فى الحياة حاملا عبثها بجلد وصبر قائما بواجبه نحو الخالق والمخلوقات ، ولم ينس يوما ، واجبه نحو شىء عزيز .. كان يرى فيه .. صورة الغائبين ، ويشم منه عبثها .. لم ينس يوما سقية .. التمرحنة .

وماتت « أم أمّنة » ، وأضحى « سيد » رجلا وتزوج وأنجب ولدا ،
وفى كل صباح يحمل صبيه القرية الصغيرة ليستقى الشجرة العزيزة ..
لتزيد ايناعا وخضرة .. بين قفر يياب كأنها واحة للتذكر والوفاء ..
في صحارى النسيان والقطيعة والاهمال .

وفى الكشك الخشبي جلس « سيد » .. جلسته منذ ثلاثين عاما
ووراءه قد علق فى داخل الكشك لافتة أحالت الشمس لونها ، ولكن
الكتابة ما زالت بها جلية واضحة يقرؤها كل وارد على الصنبور .

« والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون » .

الفرست

صفحة

الإهداء	٢
المقدمة	٤
الفصل الأول	٧
» الثاني	٣٠
» الثالث	٥٨
» الرابع	٨٥
» الخامس	١١٠
» السادس	١٤١
» السابع	١٧٠
» الثامن	٢٠١
» التاسع	٢٢٢
» العاشر	٢٥٩
» الحادى عشر	٢٨٩
» الثانى عشر	٣١٠
الخاتمة	٣٣١

للمؤلف

(١٩٤٧) قصص قصيرة	اطياف . . .
(١٩٤٧) رواية	نائب عزرائيل . .
(١٩٤٨) قصص قصيرة	اثننا عشرة امرأة .
(١٩٤٨) قصص قصيرة	خبايا الصدور . .
(١٩٤٨) قصص قصيرة	يا امة ضحككت .
(١٩٤٩) قصص قصيرة	اثننا عشر رجلا
(١٩٤٩) رواية	ارض النفاق . .
(١٩٤٩) قصص قصيرة	فى موكب الهوى .
(١٩٤٩) قصص قصيرة	من العالم المجهول .
(١٩٥٠) قصص قصيرة	هذه النفوس . .
(١٩٥٠) رواية	انى راحلة . .
(١٩٥٠) قصص قصيرة	مبكى العشاق . .
	بين ابو الريش وجنيئة
(١٩٥٠) قصص قصيرة	ناميش . . .
(١٩٥١) قصص قصيرة	اغنيات . . .
(١٩٥١) مسرحية	ام رتيبة . . .
(١٩٥١) قصص قصيرة	هذا هو الحب . .
(١٩٥١) قصص قصيرة	صور طبق الاصل .
(١٩٥٢) رواية	بين الاطلال . .
(١٩٥٢) رواية	النسقامات . .
(١٩٥٢) قصص قصيرة	سهار الليالى . .
(١٩٥٢) قصص قصيرة	الشيخ زعرب . .
(١٩٥٢) قصص قصيرة	نفحة من الايمان .
(١٩٥٢) مسرحية	وراء الستار . .
(١٩٥٣) قصص قصيرة	ست نساء وستة رجال
(١٩٥٣) قصص قصيرة	هذه الحياة .

- (رواية ١٩٥٣) . البحث عن جسد .
 (مسرحية ١٩٥٣) جمعية قتل الزوجات .
 (رواية ١٩٥٣) فديتك يا ليلي .
 (قصص قصيرة ١٩٥٣) ليلة خمرة .
 (قصص قصيرة ١٩٥٣) همسة عابرة .
 (رواية في جزأين ١٩٥٤) رد قلبي .
 (قصص قصيرة ١٩٥٥) ليلال ودموع .
 (رواية ١٩٥٦) طريق العودة .
 (مقالات ١٩٥٧) أيام تمر .
 (مقالات ١٩٥٨) من حياتي .
 (مقالات ١٩٥٩) لطمات ولثمات .
 (رواية في جزأين ١٩٦٠) نادية .
 (رواية في جزأين ١٩٦١) جفت الدموع .
 (مقالات ١٩٦١) أيام مشرقة .
 (مقالات ١٩٦١) أيام وذكريات .
 (مقالات ١٩٦٢) أيام من عمري .
 (رواية في جزأين ١٩٦٤) ليل له آخر .
 (مسرحية ١٩٦٦) أقوى من الزمن .
 (رواية في جزأين ١٩٦٨) نحن لا نزرع الشوك .
 (رواية ١٩٧٠) لست وحدك .
 (مقالات ١٩٧٠) من وراء الغيم .
 (مقالات ١٩٧١) أيام عبد الناصر .
 (رواية ١٩٧١) ابتسامة على شفتيه .
 (رحلات ١٩٧١) طائر بين المحيطين .
 (قصة ١٩٧٣) العمر لحظة .

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السخار وشركاه

رقم الإيداع ٢٩٤٥

الناس
مكتبة مصير
٣ شارع كامل مدني - البحالة



الشمس ٧٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
معه جوده السحار وفركاه